ZAID AL-SHAHEED
زيد الشهيد
رواية
NOVEL
اسم العربة
أو الرجل الذي تحاور مع النار

رواية

اسم العربة

أو الرجل الذي تحاور مع النار

زيد الشهيد

اسم العربة، أو الرجل الذي تحاور مع النار/ رواية
زيد الشهيد/ مؤلف من العراق
الطبعة الأولى، 2013
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف: **ديمو برس / بيروت، لبنان**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-332-7

إلى د. فاضل عبود التميمي

صديقي الذي لا يُضاهى ..

قيل ليوسف عليه السلام :

ما لكَ تجوع وأنتَ على خزائن الأرض...أجاب :

أخاف أنْ أشبع فأنسى الجائعين...

هنا جاءَ إلينا رجلٌ مع الغيم .

زرعَ لنا قصيدةً على روابي القلوب .

نثرَ همومَهُ لافتاتٍ على جبهةِ القدر .

رشقَ ذاكرتَنا بحفرياتِ أزاميل لن تزول .

تركنا نستدلُّ على مصائرِنا بخيباتٍ لا تنتهي ،

وأيامِنا بتضحياتٍ لا بدَّ منها ..

هنا مرَّ من أمامِ انحناءاتِنا رجلٌ

يرفعُ على كفيّهِ ستَّ وعشرين حولاً من الآمال

ثمَ ، يتركُنا بملايينَ الصرخات ..

نتضوَّرُ حُزناً ، ونتفجَّرُ ثورات ..

نتعاطى غَضباً ، ونمزّق آهات ..

نرفعُ صوتاً ، ونصرخُ مرارات ..

هنا .. وقفَ رجلٌ يرسمُ تاريخاً من جسدٍ يتحاورُ مع النار .

هنا .. ماتَ رجلٌ خرافيٌّ أرعبَ أنصابَ الرعبِ .

هنا ولِدت أمّةٌ شبِعت من ماءِ الذُّلِّ .. غرِقت في يمِّ الخنوع .

هنا أعلنت اللافتاتُ تلعثُمَ الزمنِ ، ودهشةَ التاريخ ..

هنا صارَ القدرُ قدراً .. ولم يكنْ مِن قبلُ قَـدر ..

الفصل الأول

هذه إذاً السيدةُ الصغيرة التي أشعلَت الحَربَ الكَبيرة ؟!

ما قاله الرئيس الامريكي ابراهام لنكولن في لقائه بهيريت ستاو مؤلفة

رواية " كوخ العم توم .. 1852 " التي صدر على اثرها قانونُ تحرير العبيد

وأدّى الى اندلاعِ الحرب بين الامريكيتين 1861 .

... وهكذا هي الأيام ، نتداولها . تمر بنا وعلينا مرَّ السحاب في السماء . توجِهُها ريحٌ لا ترى.

وهكذا هي الأحداث ، تطأُ جسدَ التاريخ ؛ وتنثني .. منها ما تجري جريانَ ماءٍ على حصى ، ومنها ما تنحت وجودَها ندباً أو حفراً لا قدرة لأظافر الزمن مهما جهدت على محوها .

تموت أمم وتولد أمم . تتعاقب فصول ، وتنصرف حقب .

لكنَّ الأرض تبقى أمّاً وذاكرة .. أمّ تفرح لانبثاقِ الزرع وتحزن للذواء ، وذاكرة تفرد الذراعين لمن يرهف سمعه ، ويفتح عينيه ، ويوارب أبوابَ لهفته لما تريد أن تقول .

لا تصدق منوبية لحظة رمت رأسَها المثقل بأحمال القلق والهم والحيرة على الوسادة في صمت الليل الأدهم ما حصل ويحصل . كانت صرفت أعواماً دنت من الخمسين بين حياة يومية مثابرة في ريف يجاور مدينة صغيرة ، وحياة زوجية مع رجل اقترنت به يسكن مدينة تحسبها من عداد الفوز ونيل الحظ الضاحك . ذلك أن بوناً واضحاً بين حياة ريف فيه الكدُّ يبدأ من طلوع الشمس حتى مغيبها ومدينة لها زمن محدد للعمل وجغرافية تفتح قلبها للتحضّر وتنهل من منهل ما تجود به دولُ الشمال .. دول ما بعد البحر.

منوبية لا تصدق أنها أنجبت أولاداً من زوج أطلعتها الأيام على فقره وقلة حيلته في العيش . لكنها كانت راضية تمنّي النفسَ بأيامٍ آتية من عالم الغيب لا بدَّ أن تتغير لذلك ترفع رأسها شاكرةً ربّ السماء على كل ما كانت تحصل عليه . فالله عندها واسع الرحمة لا يترك عبده يتيه في براري الحيرة . وكثيراً ما رددت ما كان أبوها يردده : لأنْ شكرتم لأزيدنكم.

مرت الأيام ، وشبَّ الأولاد ، ومات الأب /الزوج . وشكرت .. واستمرت تشكر، لكن الزيادة لم تحصل . استمرت مؤمنة تعزو عدم الحصول لاختبار صبرها ، مرددةً ما كان أبوها يردده : المؤمن مبتلى.

لا تصدق منوبية أنّ بيتها المهمل وأولادها الذين لم ينالوا غير قسوة الحياة والتهميش يُطرَق بابه كل لحظة هذه الأيام . صحفيون ومصورون ومراسلو وكالة أنباء محلية وعربية وأجنبية ، يحتشدون في الساحة المواجهة للبيت . يستظلون بشجرة الزيتون التي تصنع ظلاً على الرصيف جوار سياج البيت من أجل لقطة أو كلمة تفوه بها إليهم ليكون سبقاً صحفياً وإعلامياً . تبصر الكاميرات المثبتة على أرجل ثلاثية تلتقط واجهة البيت ، وتروح كاميرات الفيديو تصور له ببطء فيلماً من زوايا مختلفة .. لا تصدق أن (بان كي مون) باسم أمم الأرض يزورها في بيتها ، فينحني أمامها ، ويطبع قبلة إجلال على ظاهر كفّها كأمٍّ أنجبت مَن مزّق أوراق الزمن الرتيب ، وصنع آخر يعبق بأنفاس صدور هتفت بالكرامة والثورة ورسمت لافتة الحرية من نجيع الدماء الفوّارة.

ما أن تُفتح الباب حتى يهبّ الجميع بحشدٍ متأهب لمن سيظهر أمامهم .. يوجّهون العيون الزجاجية بفضولٍ نهمٍ أو يفتحون لاقطات التسجيل ، وبعض يعتمد الكتابة في قصاصات أو كرّاسات أعدّوها مسبقاً ، فيما آخرون يستلّون أجهزةَ الهواتف النقّالة من حافظاتها المشدودة إلى أحزمة بناطيلهم ليصوّروا ، ويسجّلوا.

وفكّرت منوبية : لقد مرَّ أكثر من شهر وهي في دوّامة الحدث.

ترشقها الفلاشات بوميض يستفز عينيها الحسيرتين ، وتداهمها اندفاعات الأجساد لالتقاط ما تفوه به خبراً أو إجابة على سؤال . فتلكم اللحظة وذلكم المشهد قد لا يجريان مجدداً . هي الأميّة التي لم تمر أصابع النور على أيام حياتها لتتعلم في فصل ، وأمام سبورة.

البلاد تمور .. ! والعالم في استفهامات تترى : كيف حدث هذا الهول والتغيير بهدير لم يخطر على بال أحد من بيت كان قبل زمن يسير لا ترتفع إليه عين ، ولا يستدير له رأس ؛ وفي مدينة تشكّل نقطة تائهة على خارطة منسية ؟ !

لقد أقسمت أنْ لا توجه نظرها لشاشة التلفاز ، ولا تستمع لمذياع ؛ فهما لا يبثان غير فجيعتها ومأساتها ، تجسده قسوة القدر الذي سرق فلذة من فلذات كبدها.

في صخب الأسئلة ، ونزف الذاكرة ، وتواليات الأسى المهول تسيل دمعتان صامتتان على خديها الضامرين يمتصهما قطن الوسادة ..

بعدها تطبق الأجفان .. وتنام.

تنام منوبية ... لكن سيدي بوزيد المدينة تبقى . لا يأتيها النوم قطعاً . تظل مستيقظة ، تجتر الأحداث وتتابع التفاصيل . فقد استحالت منذ أسابيع مزاراً تهفو إليها عيون الفضول عابرة البحار والمحيطات ومجتازة الصحارى والبراري . تجري المحاولات لفك شفرة انبثاقها بحيث تغدو محط اهتمام العالم بأسره .. صارت

شوارعها مبعث اهتمام ومسعى بحث : عن آثار أقدام ذاك الذي زلزل الأرض بتضحيته ، عن أنفاس ما زالت عالقة في ذرات الهواء أو متكئة على جدران البيوت وأوراق الشجر تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، عن همس سبق فعل الهول ، أو رافق شجاعة القرار في وضع حدٍّ للصبر والتحمل والإذلال الذي لا يمكن لِحرٍّ تحمّله.

نامت منوبية ، لكن سيدي بوزيد لم تنم قطعاً . استمرت مستيقظة على متوالية أمطار متقطعة يأتي بها البحر من بعيد لتغسل حشود الآهات والآلام وتوالي الصرخات ، تتعالى في الفضاء كما لو كانت تمتص حرارة القلوب والمد غير المحدود من الاحتجاج والرفض ، ووضع حدٍّ للتعسف ، والجور ، والمرارة .

(1)
يوم متوسطي ممطر

منذ عصر أمس وحتى اقتراب ظهيرة هذا اليوم المجنون من أيام ديسمبر من عام 2010 كان المطر يهطل بلا انقطاع ، وشوارع سيدي بوزيد وأبنيتها البيضاء تستحم بالماء المدرار وسط قلة مركبات لم تعهدها هذه المدينة في مثل هذا الوقت من أيامها الجارية ، حيث الشمس تسكب نورها الدفيء وتقول للمتسوقين والباعة على السواء خذوا من حناني المتسلل إلى قلوبكم وتدفأوا في هذا الشهر البارد الذي تهرب من زمهريره بلدان ما وراء البحر المتوسط وشعوبها ، أولئك الذين يُطلق عليهم شعوب شمال أوربا .. يأتون كالطيور المهاجرة الباحثة عن دفء يهبهم رغبة البقاء في عيش رخي يخلو من المفاجآت فيجدون ما يفرد ذراعيه ترحاباً ، ويقول : هلموا ، انهلوا من خيرات الله في بلد الله .

الآن والساعة تتجاوز الحادية عشر توقف المطر ، وهيمنة قبضة الغيوم تفككت . تسللت حزم ضوئية باهرة لشمس افتقدها الجميع طوال فترة الصباح .. في هذا الوقت انطلق الباعة ممتلئين بالحبور ، ومفعمين بأمنية بيع وفير لاسيما وحركة المارة شرعت تزداد والمتسوقون يدخلون سوق الخضار . تجول عيونهم على المعروضات من الفواكه والخضار.

صباح هذا اليوم كان استيقظ على نداء أمه في ضرورة النهوض والتحرك بعربته صوب ميدان الجمهورية . نهض متململا . يدمدم كأنه يصرخ في وجه العالم والدنيا التي سحبته من رحم الأم الدافىء : (إنهم يحاربوننا في رزقنا فكيف يروق لنا العمل ؟) ، ويتمتم كما لو كان في وجبة عتاب مع الخالق : (لماذا ولدنا في وطنٍ كهذا لا مكان لنا فيه ، ولا مخرج من هذه البلوى !) . يفوه بملحمة الألم يومياً على مسمع أمه . والأم اعتادت على تلقي تلك التراجيديا المتكررة بقلب يقطر جزعاً ، وفماً يمتلىء مرارةً .. فضل البقاء في فراشه رافضاً الخروج ومواجهة المعاناة من جديد .

صوت المطر يُحدِث في رأسه طرقات هائجة آتية جراء قطراته الضاربة بقوة على زجاج نافذة غرفته التي تشكل واحدة من ثلاث غرف وصالة بمثابة بيت يضم عائلة بعديد الافراد . الصوت يستحيل نقراً يتضخم فيبدو كما لو كان دوي انفجارات ، يحاول تفاديه بتكوير رأسه ودفعه إلى بطنه متخذا شكل جنين في رحم ، مستعيناً بالبطانية التي تبث رائحة جسدٍ استعان بها ساعات طويلة . يحاول سرقة دقائق كرى فلا يقدر ، ويتضرع للسماء أن توقف حربها عليه فلم تستجب.. لكن صوت نداء الأم وطلبها منه أن ينهض دفعه إلى رمي الغطاء عنه وتمتمته بكلمات فيها تذمر فهمتها الأم وإن لم تسمعها بوضوح . توجه صوب المغسلة ، تناول قطعة صابون صغيرة ، مد كفيه تحت صنبور الماء .. وفي المرآة طالع الصفرة المتسيدة وجهه والجزع الطافح من عينيه مثلما تابع تيبس شفتيه وتقشر وجنتيه.

في طريقه وهو يدفع العربة مر من أمام مقهى (الخيام) ، لم يكن ثمة جلاس باستثناء قادري يتخذ المنضدة المحاذية للزجاجة الأمامية للمقهى ، ومنضدة يتحلَّق حولها ثلاثة عمال يعانون البطالة وينتظرون من إبراهيم صاحب المقهى تكليف احدهم بنقل صناديق المشروبات الغازية حين تأتي عربة توزيعها مقابل أجرة تعادل أجرة جلوسهم وتناول أقداح القهوة التي يبغون.

رفع يده تحية لقادري ، راسماً ابتسامة مقصودة فهمها الذي في الداخل على أنها رسالة سريعة كتلك التي يبعثها هو في تحاوره مع الآخرين عبر شبكة الانترنيت من الـ(لاب توب) الذي يصاحبه ويحمله أنّى ذهب .. صاح قادري ، يناديه : تفضل يا محمد .. لكن محمد لم يتوقف . فقط لوَّح بيده شاكراً ، واصطاد من عينيه بوحاً يقول " : سيقتلك حب عائشة قبل أن تضفر بها ، يا قادري .. (إنه ينتظرها كل صباح متجهة إلى مكان عملها في ورشة صناعة الفخار :أواني متنوعة الأحجام والمتطلبات ، ومزهريات مختلفة يحكم صناعتها الذوق والفن ، ونافورات تتشكل من بين الأنامل الرقيقة لفتيات خمس كانت عائشة المتخرجة من معهد صفاقس للفنون الجميلة أحداهن ، وثلاث نساء يرأسهن سي عزيز القادم من الأكاديمية الايطالية يحمل شهادة الماجستير في فن النحت الذي افتتح الورشة هنا قبل خمسة أعوام لتوفر المادة الخام من الطين المناسب لخلق الأشياء التي تدخل في الحياة المنزلية للناس .) صباح كل يوم تمر عائشة من أمام المقهى فيبصرها قادري . يمتصَّها بالنظرات ، ويخاطبها بالحسرات . يتأمل القوام الناهض ، ويحاور البشرة المليحة . يبعث برسالة أثيرية تترجمها ": متى يحنُّ القلب فتطاوعينه ، وترسمين ابتسامةً ، فكلاماً ، فموعداً ، فلقاء ؟. "

لم تكن عائشة تعرف بجلوس قادري من أجلها ، ولم تكن أصلا تنظر إلى قلب المقهى لتكتشف أن هناك شاباً تخرج منذ أربعة أعوام من كلية الآداب ، جامعة تونس حاملا الليسانس في الفلسفة ينتظرها كل يوم من فوق مصطبة البطالة . وحين مرت إحدى الصباحات قبل ستة أشهر من أمام المقهى لمحت شاباً يخرج مندفعاً لينتصب على الرصيف ويوجه نظراته النهمة صوبها . يومها واجهته بتقطيبة الحاجبين وزم الشفتين دلالة النفور وضرورة أنْ لا يبدر من شاب يبدو عليه متعلماً هكذا تصرفٍ حسبته أخرق.

وهو يدفع عربته رمق محمد شاشة تلفاز المقهى يحتلها شخص مهندم ، ذو صلعة لامعة فتذكر انه شاهد هذا الرجل من قناة الجزيرة ، مساء أمس ، عبر برنامج (الاتجاه المعاكس) المثير ، والمبني على الجدل . كان فيصل القاسم يبتسم للمتحاور الأصلع وهو يردد ": هذه ليست شعوب عربية ، هذه قطعان من الدجاج أو أكوام من الخراف .. ". يهز القاسم رأسه تأييداً كما لو كان يهتف في أعماقه : أحسنت ، زد مما تقول .. هكذا ينبغي إيقاظ النائمين من الأجيال أو السادرين في الصمت القاتل . كان محمد بالأمس وهو يجلس متكئاً على أريكة وحيدة في غرفته المتواضعة بأثاثها ولون جدرانها الحائل يتوافق واهتزازات رأس القاسم ، يحتقن مع احتقان رقبة المحاور فيما الذي يواجهه في الحوار رجل خمسيني ، بوجهٍ ممتلئ وجسد سمين يجلس مسترخياً .يرسم ابتسامة فسَّرها محمد على أنها رسالة سخرية تجاه محاور لا يمتلك غير حنجرة يصرخ بها وفعل لا يتعدى أمتاراً من الكلام الغائر في اللاجدوى . كان محمد امتلأ غيظاً وهو يشاهد المحاور السمين يتحدث ببرود وبلا أدنى حماسة ، مدافعاً عن أنظمة يقول عنها أنها تكافح من أجل استمرار حياة الأجيال .

دفع عربته تاركاً وراءه المقهى وماراً جوار مطعم يبيع أكلات سريعة . معظم رواد المطعم من الشباب العاطلين عن العمل ، أولئك الذين ، عاماً بعد عام ، يتكاثرون كما الفطر ، يتململون كالذين تصعد قلوبهم إلى الحناجر دون أن تتكحل عيونهم بمرأى المرتب الشهري الذي يعينهم على تمشية الحياة وتكوين أسر يراد لها أن تتواصل في مسار الإنسانية من أجل أن تبني وتعمّر ؛ لذا تراهم تجاوزوا الخامسة والثلاثين وبعضهم أدرك الأربعين ولم تمر على رؤوس رغباتهم أنامل الزواج ، فظلوا هائمين في براري الضياع . لا همسة تُنغِمَها في مسامعهم زوجة حنون ولا جلسة عاطفة مؤثرة يجلسونها مع حبيبات يكحلن عيونهم ببريق يشع بالبهاء جراء بحبوحة يعيشونها في عمل مستمر وميزانية مالية ترسم لهم مستقبلاً آمناً .. فقط ظلوا يتجهون إلى المواخير لتكون أحضان المومسات مخادع دفء لامتصاص آهاتهم ، وتبديد شيئا من ضياعهم المتناسل.

مرَّ من أمام مكتبة تبيع الكتب العربية والفرنسية مع القرطاسية . أبصر المعرض المزجج مموَّهاً برطوبة الهواء الندي ، ما جعل صورة جاك ديريدا التي تمثل كتاب عنوانه (صورة ديريدا) لمؤلفيه جايتريا سبيفاك وكريستوفر لوريس غير واضحة . العينان المتأملتان ضاعتا فيما اليد اليسرى التي تمسك فكّه بدت كلطخة صفراء تغطي ذقنه . كان قادري قد قرأ هذا الكتاب أكثر من مرة عندما استعاره من صديق كان محباً ومتأثراً بديريدا في تفكيكه لأفكار فلاسفة ومفكرين : هيجل وهوسرل وهيدجر ونيتشه وقبلهم سقراط وأفلاطون ، وكان محمد يستمع لقادري يحكي له عن هؤلاء الأفذاذ وما عملوه لخدمة البشرية . كذلك ضاعت عليه صورة رولان بارت في كتابه (إعداد الرواية) تذكر أن قادري رغب كثيراً في قراءة هذا الكتاب ، وكثيراً ما وقف وإياه

برجاء منه أمام المعرض المزجج وقرأ عنوانه باللغة الانكليزية (The Preparation of the Novel) ، لكن سعره الباهظ كان يغتال فيه رغبة الشراء . لذلك قرر محمد حالما يتوفر لديه المال أن يشتريه ويهديه لصديق طفولته.

واصل سيره ، متخيلاً عظم فرح قادري حينما يهديه إياه .. سيقول له خذ واقرأ . اقرأ واشرح لي فحواه في ما بعد عندما تمزقت صورة بارت ، وقلبه خفق برجة رعب كما عصفور تلقّى ضربة من خفقة جناح نسر انقض عليه بغتةً.

بغتةً انعطف في زنقة ضيقة عندما لمح سيارة ضبط المخالفات تتخذ الشارع الذي يسلكه . لابد أن الشرطية شادية كانت في دورية تفتيش في سوق الخضار ، ولا بد أنها حضرت لضبط بعض الباعة الذين ليست لديهم إجازة بيع ، وهو منهم.

كانت انعطافته شديدة ولّدها رعبُ احتمال اكتشاف الشرطية له فكادت معروضات عربته من طماطم وباذنجان وجزر وجرجير وكراث ومانجا وعنب وبرتقال وتين شوكي أن تتناثر في الدرب المترب للزنقة الضيقة ، وكاد هو يفقد قلبه الذي سقط في بئر الهلع . لذلك تعالت نظراته تبعث شكرها للسماء عندما مرت السيارة ولم تلمحه الدورية يستدير فراراً ، ولم يُدر واحد من رجالاتها وجهه صوب عمق الزنقة.

مرةً ، فوجىء هو واقرأنه من بائعي الخضر بمداهمة أفراد ضبط المخالفات يدخلون سوق الخضار من مداخله الثلاث بطريقة كبس منظمة كأنها أعدت مسبقاً وراح أفرادها بأمر من الشرطية يطالبون الباعة بإبراز إجازات عملهم . أدرك محمد أنه الوحيد الذي لا يحمل إجازة ترخيص بيع خضار وإن المداهمة خصصت للإطاحة به وقصد منها إحراجه ومعاقبته . توقف إزاءه " صابر" . شرطي ذو قامة متعالية وكتفين عريضين ، هو الذراع اليمنى للشرطية شادية مطالباً إياه بإبراز رخصة البيع .. حاول محمد توضيح أنَّ لديه معاملة ترخيص مُقدَّمة لدائرة البلدية وأنه بصدد إكمال الإجراءات ، وأن الأيام القليلة القادمة ستضع بيده الإجازة فيكون بمقدوره تقديمها في أية لحظة تُطلب منه .

التفت الشرطي صابر منتظراً رأياً تفوه به رئيسة الدورية مع علمه أنها لن تقبل (لن تقبل .. ! قال محمد في سره .. إنها تتقصد إذلالي .. وما مجيؤها إلى هنا إلا لتحقيري ومعاقبتي . أربعة أعوام وأنا أتقدم بطلب الحصول على إجازة فترفض البلدية منحها لي .. لكأنها الجبروت الذي لا يقدر أحد على مواجهته ، لكأنني المنبوذ الذي تنفره أصابع الرحمة).

انعطافته المفاجئة وضعته عند مقهى (جندوبي) المتَّخذ جدار معمل خياطة قمصان مكانا لرزقه . كراسي تستند إلى الجدار مع طربيزات مصنوعة من قضبان حديد مستدقة لُحمت فوقها صينية دائرية توضع فوقها أقداح القهوة والكابتشينو والمكياطا والشاي الأخضر ، يعدها جندوبي من كشك تفوح منه رائحة القهوة الفائحة والحليب الفاغم.

- متى تنتهي هذه الملحمة يا محمد ؟ .. تلقاه جندوبي بنظرة أسى ، فلطالما ابصر بائعي العربات يفرون كما لو كانوا سرّاقاً ، يبحثون عن ملاذٍ يتخفون فيه من دورية البلدية .
- عندما تمزقون ثياب الخوف وتطلقون أصوات شجاعتكم .. ! ردَّ ، شاحباً ، لاهثاً ؛ ماطراً من عينيه شيئاً ما كالاحتجاج أو العتب أو اللوم ونظراته تتجه إلى لطفي الجزيري الدافن وجهه في صحيفة (الصباح) منشغلاً بقراءة خبر فشل محاولة التقريب بين محمود عباس وإسماعيل هنية قطبا منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة حماس.

الكلام فاجأ الجزيري فجعله يسحب عينيه من الأسطر ويركن الجريدة ، ثم يروح يحدق في الوجه الشاحب والعينين المحتجتين . كان الرعب من الشرطية شادية لمّا تزل تفشيه ملامح الوجه وتعلنه مهيمناً .

أطلق جندوبي حسرةً كأنه يعلن تأييده لكلام الشاب المحتج .. لكنه تدارك الأمر خشية إحراج الجزيري ، زبونه الشاعر، الذي يفضل الانزواء في مقهى متواضع على مقاهٍ تتباهى بالصخب ، واللغط الذي ترشقه الفضائيات المتهافتة على بث الأخبار في مسامع المشاهدين ، فهتف:

- خفف من غضبك ، يا رجل . هؤلاء راضعين مع الشياطين من يقدر على تحديهم ؟!

ألجم الصمت محمد وجعله يدفع العربة إلى أمام لئلا يتسبب في غلق الزقاق . أحسن إيقافها جوار كشك إعداد طلبات الزبائن . واستدار ليجلس جوار الجزيري ، مُبدياً اعتذاراً ، وطالباً قدح كابتشينو ساخناً.

بحميمية وتعاطف طالعه الجزيري ، مُقدراً غضباً وتذمراً جاءا رذاذاً من فم جَهِد بإطلاق زفرات طويلة أحدثها تعب دفع العربة . سحنة محمد ترسي الرجل الشاعر عند يقين أنه ابن مدينة سيدي بوزيد بحق . فأبناء هذه المدينة العذراء ، الصافية ، والنقية يتباهون بقامات طويلة ووجوه دائرية وسمرة مليحة .. غربة الجزيري عن سيدي بوزيد في تونس العاصمة لخمسة عشر عاماً شوشت لديه صور الجيل الشاب الذي كبر بغيابه ، فبات يعرف بعضهم من تقريب ملامحهم لملامح آبائهم وإخوانهم الذين يكبروهم فيما تضيع عليه معرفة بعض الوجوه .. ولأن محمد من البعض الثاني غابت معرفة الجزيري له . الجزيري استدرك في سره :

- هذا الشاب شاهدته مراراً ، ولكن أين ؟!

ذاكرته سريعاً أطلعته على مكتبة بيع الصحف وقراء اعتادوا المجيء للمطالعة عندما كان يجمع ما يبغي من معلومات لكتابة رواية تحقق ذاته بجعلها تجربة يسعى لأن تصنع نجاحاً في حقل السرد مثلما صنعه في ميدان الشعر. * سريعاً قالت له الذاكرة أن هذا الشاب كان من مطالعي عناوين الصحف اليومية والمجلات الدورية حيث اعتاد ممن ليس لديه مال يشتري به متابعة العناوين ، وممن أكلت البطالة أيامه المجيء للقراءة المجانية بتقليب الصفحات سريعاً قبل ان يمتعض صاحب المكتبة ويطالبه بالشراء. (لا بد أنه يعرفني من رؤيته لي هناك ! أو أنه كان يشاهد صوري في الصحف والمجلات الوطنية ، وإلا ما كان رده بهذه الشجاعة والحدّة .. هذا كلام لا يطلقه احد في زمن بن علي . زمن الاختطاف السري والضياع الأبدي لمن يعلنون رأياً مضاداً وقولا لا يعجب السلطات) .

- كثيراً كتب لطفي الجزيري الشعر وحاز رضا المستمعين والقراء . سمع تواليات التصفيق وهو يلقيه من فوق المنابر وقطف ورود الأنظار ممن يلتقيهم في شوارع سيدي بوزيد او المدن التي يُدعى إليها شاعراً . وحتى في العاصمة سرقته أنظار لا يستهان بها ممن رأوه ، لكنه ولأكثر من لقاء يُجرى معه يكرر سواء في الصحافة أو البرامج الثقافية والمهرجانات أنه ابتدأ قاصّاً يحبذ لغة وأسلوب يوسف إدريس في القص ، وفي دُرجه قصصّاً عديدة لم يتجرأ على نشرها لئلا يقال عنه أنه شاعر ويريد أن يقفز إلى ميدان يعود لغيره .. ولقد خامرته لأكثر من مرة رغبة كتابة رواية لا يبغيها تقليدية تستحيل عدداً مضافاً لما هو منشور من روايات خاملة على رفوف متربة ؛ إنما كان يُمني النفس بُمنتَجٍ يحدث رجّة مؤثرة في قلب السرد ، تتوجه إليه عيون النقد وذائقات القراء ليكون أهم مطبوع يتأبطه القراء أنى تحركوا ، تماماً كما كان قراء ستينيات القرن العشرين يفعلون مع دواوين نزار قباني ، بل ويحفظونها عن ظهر قلب . مُنتَج يحدث انعطافة صارخة في مسار السرد التونسي والعربي مثلما فعلت رواية السوداني الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال) في الستينات ، والسبعينات كذلك ، وتفعلها الآن الجزائرية أحلام مستغانمي في ثلاثيتها التي طالعها هو لعديد المرات ، وصار يعود إليها كلما حنَّ إلى الشعر وسعى لاستعذاب السرد . حتى أنه بعد قراءته للثلاثية رأى في يوسف إدريس سارداً كلاسيكياً ، فلم تعد ذائقته تتوافق وتلك الكتابات .

حدق في وجه الشاب المُمتقِع فأنتج حناناً ، وأظهر تعاطفاً . تحاور مع ذاته مستفهما بما يشبه تأكيد رأيه : ألم تصرف خديجة بن عثمان شهراً كاملاً موقوفة على ذمة التحقيق لإعلانها - في محاضرة عن المسكوت عنه في الأدب النسوي - أن المرأة التونسية تقف في الدرجة العاشرة من نساء المجتمعات الفرنكوفونية ، وأن عليها أن تكد وتشقى من أجل نيل حقوقٍ لا يجب أن توهب لها هبة بكثير من المنّة مع أن كلامها مدعوم بشواهد وأدلة طرحتها بأسلوب أكاديمي بحثي ناضج ؟ .. ذلك التوقيف أضاع عليه احدى فرص الاقتران بها وجعلها تخرج مأزومة ، محزونة ، متوترة ؟ ما لبثت أن غادرت الوطن شمالاً باتجاه فرنسا .. هناك ... ذلك الهناك فتح أمامه باب الحوار معها برسائل الكترونية متبادلة من اجل إدامة الصلة ، فقد عاشا زملاء إبان

دراستهما الجامعية في جامعة الزيتونة . صرفا أربعة أعوام من الزمالة يلتقيان في نادي كلية الآداب مع أقران لهما من الأقسام الإنسانية ؛ كان زكي وعبد الله وصدّيق من قسم التاريخ يشكلون ثلاثياً لهم حكاياتهم وأسرارهم الخاصة ، ولا يكادون يفترقون . وكان منهم وداد وصديقتها حميدة اللتان تدرسان في قسم الجغرافية وتتندران حين السؤال عن تأخرهما او اختفائهما أنهما عَلِقا في مضيق ماجلان أو أسرهما كولمبس وساقهما عبر رحلته الاستكشافية مع بواخره إلى أمريكا . معهما أيضاً أيسر ورجاء ورغد ، الطالبات في قسم اللغة الانكليزية ، المتبجحات في مرافقة شكسبير ، ومناكفة عطيل أو مستفزات هاملت .. ذلك النادي الوسيع الذي تضج قاعته بحركة الملاعق وهي تضرب الصحون في وجبات الغداء والطلبة من الجنسين يحملون الصواني ويقفون في طابور فيختارون مأكولات متنوعة يعرضها الطهاة في قدور وصحون كبيرة : كسكسي ، ومكرونة ، ورز ، وأنواع الطبيخ ، والسَلَطات المختلفة .

ارتشف محمد سائل الكابتشينو الساخن فانسحبت المرارة من فمه .. حزن الجزيري لرؤيته يتيه في شرود طويل وهو ينزل القدح من شفتيه تاركاً البخار يتبدد في هيمنة الهواء البارد السائح في فضاء الزقاق . شاهد بعين الكاتب السارد في مشهد شرود الشاب العامل تعاقب أجيال من العاطلين . طوابير يراهم يفترشون الأرصفة أو يتكئون على الجدران ، هناك في العاصمة تونس ؛ أولئك الذين قدموا بنفوس ملأى بالأمل ومضمخة بعبير تحقيق المآل . نفوس دخلت ميدان الشباب هاتفة بشموس التطلعات أن تأتيها . فالوطن يريد طاقات البناء عامرة بالقوة والحزم والكبرياء ، لكن هذه النفوس سرعان ما تتعثر وتترنّح ثم تسقط في هوة خيبة الأمل وبطالة صقيعية لا ترحم.

- انهض .. لبّي الطلب .. ! جاءه صوت جندوبي يحثه على النهوض.

ثمة امرأة خرجت للتو من بيتها وجدت بمعروضات العربة خير ملبٍ لما تحتاج من خضروات بدلا من قطع شوارع واجتياز تقاطعات .

المرأة سمعت جارةً لها تُطل من شرفة شقتها في الطابق الثاني من بناية بثلاث طوابق تسألها عن الأسعار ، فردت أنها لا تزيد عما يباع في سوق الخضار" . هيا انزلي ووفري الوقت والجهد .. "! وأومأت لأخرى أطلت من شرفة شقتها في الطابق الثالث.

نزول ونزول .. حركة وحركة .. ومحمد منهمك بتلبية حاجات اللاتي خرجن إليه من بيوتهن وتوافدن على إيقاع رغبة حضوره إلى الزقاق في قادمات الأيام .

مرَّ الوقت وانصرف .. تناقص المعروض وخف وزن العربة .. ولم ينتبه محمد متى نهض الجزيري وغادر المكان ، ولا إلى زبائن جدد جلسوا وارتشفوا ثم غادروا .

الذي انتبه إليه هو أن النهار جاوز الانتصاف ، وعربته فرغت من البضاعة ، وارتياح كالدفء في ساعة زمهرير شرع يتسلل إلى دواخله فيمنحه السرور ؛ ويأخذه الطريق مبتهجاً عائداً صوب البيت ... إذاً في المساء سيلتقي قادري ، وسيعلمه بنهار عمل وهبه الله له دون مشقة . سيعلمه أنه يحتفظ له بهدية سيبتاعها ويقدمها له شرط أن يطلعه على فحواها . سيسحب دخان الارجيلة بتبغها المعسَّل بارتياح لأن تكلفتها مدفوعة من عرق جبينه لا من كفِ أمه المسكينة التي تحسب لخروج القرش من جيبها ألف حساب ، متسبباً في تخلخل ميزانية عليلة ، منهكة.

استقبلته الأم بوجه يعرض انشراحاً لحظة واربت الباب وأبصرت ولدها يبعث رسالة استقرار تشي بها قسماته .لم تسأله عن عودته إلا عندما تحركت إلى نافذة المطبخ وأطلت بنظراتها فتهللت بخلو العربة من البضاعة .. حدثها كيف خاف وارتعب عندما شاهد من بعيد سيارة ضبط المخالفات ، وكيف انحرف إلى زقاق فرعي فتح عليه باب الرزق .

في مقهى (الخيام) التي تتناثر كراسيها ومناضدها على الرصيف العريض لشارع الجمهورية الذي يقسم مدينة سيدي بوزيد إلى قسمين متساويين من الأحياء التقى قادري بمسحة سرور أفشى بها وجه صديقه . وقبل أن

يسأله شرح محمد ما جرى له .. أعلمه بلغة من وثق بالقدر أن الفرج فتح بابه له فلم يعد يحتاج للذهاب إلى سوق الخضار وتلقي تعنيف شادية وزمرتها . ولكي يراكم كمية السرور على قلب محمد فاهَ قادري بقرب الحصول على رواية (العطر) لزوسكند ؛ تلك الرواية التي عرض تفاصيلها فايز الجروالي ، صديق قادري عن ذلك الفتى الذي ولد في أسوأ أسواق باريس قذارة ، ونشأ عند مرضعات بعدما ماتت أمه لحظة ولادته ، ثم تلقفه صانع عطور ليخلق منه أبرع عاملٍ في استخلاص العطور . العطور التي لا تضمها الحدائق والجنائن الضاحكة للطبيعة بل عطور من أجساد فتيات جميلات يختطفهن بعدما يميز بحاسة الشم التي يمتلكها جمال عطر أجسادهن.

امتعض محمد لسماع فحوى الرواية التي تجري أحداثها في باريس وأجوائها، فهي تذكره بتفاصيل رواية (البؤساء) لفكتور هوجو - التي كانت ضمن منهاج كتاب المطالعة في المرحلة الأولى من الدراسة المتوسطة باللغة الفرنسية المبسطة - وقائد شرطة باريس الذي كان يلاحق جان فالجان أينما سار وحيثما جلس ، مقضّاً مضجعه كلما حاول الكرى التسلل إلى عينيه .

يرى محمد في شادية معادلاً موضوعياً لقائد شرطة باريس بينما يطابق شخصه مع شخص جان فالجان . كلاهما اتخذا درب الآلام ؛ وكلاهما عانيا من جثومية السلطة والهراوة القمعية التي يلوَّح بها أمام عيونهما . لذلك اعتاد أن ينهض تاركاً المقهى كلما جاء الحديث عن فيكتور هوجو ، مقدماً اعتذاراً سواء عَلِم الجالسون بالسبب أم لم يعلموا .

(2)

قادري يكتب روحه

حالما غابت عائشة عن أنظار قادري عاد إلى منضدته في المقهى . أخرج اللاب توب من حقيبته النسيجية السوداء . رفع الغطاء . ضغط على زر التشغيل . لحظات وأضيئت الشاشة التي احتلتها صورة لشاكيرا تفرد ذراعين إلى أعلى بهيئة V تعرض بطناً ضامرة وساقين مرفوعين يمسان الأرض بأصابع قدميها القائمتين . الصورة مأخوذة من أغنيتها التي افتتحت بها بطولة العالم لكرة القدم في جنوب أفريقيا محاطة بجموع بشرية تعيش الكرنفال الكوني ورقصات يؤديها جوق من الشباب : فتية وفتيات يرتدون فانيلات الفرق المشاركة في البطولة وجمهور يملأ المدرجات ينتظر بطولات سيحققها أبناء وطنهم من (البافانا بافانا)..

مسح بسبابته على المربع الفضي أسفل صفوف الأحرف ثم نقر ، فانبثق سهم راح يوجهه صوب أيقونة الملفات . نقر عليها مرتين . أظهرت أمامه عدداً منها . اختار ملفاً يحمل عنوان : ((رسائل إليها.))

كان قد انتهى من الرسالة الواحدة والعشرين . فكتب : الرسالة (22) ، عنوَنَها :

(فجر الضجر .. ضحى البهاء)

لحظة استيقظتُ على هدير الرعد ورشقات المطر على النافذة وأعلمتني ساعة الجدار بدقاتها الخمس اكتأبت . قلت سيكون نهاراً ممطراً سأخسر فيه مشاهدة مَقدَم عائشة ، وسينطفئ حلم إرسال رسالة الوله بنظرات رجاء أنْ ترد ولو برموش ترقص لا بابتسامة تُحيّي . هاجمني الضجر بأسلحة من جزع ورأيتني أتناول قهوة الصباح بلا طعم من يد أمي التي حدقت بي ، وقالت " : اشرب كي تصحو ، وجهك اصفر مثل الليمونة .. " شربت ، كأني أشرب دواء أُجبرتُ على تناوله .. كيف هي عائشة الآن ؟ لا شك أنها مكتئبة مثلي . ليس لأنها لن تراني عند مرورها من أمام المقهى بل لأن المطر سيعيق وصولها ، هي التي لا تفضل ركوب الباص للوصول إلى مكان عملها . مرورها اليومي خلق داخلي حدس أنها تحب الوصول سيراً ، تفضل المشي ترجلاً ، تبغي اغتراف نسمات من الهواء الطلق .. الهواء ينعشها ، حركة المارة تمنحها الألفة ، رؤية تلاميذ المدارس يذكرها بطفولتها ، ضحكة الشمس تسكب على أهدابها ألق الشباب .. هي شابة وأنا شاب ، ماذا لو لانَ قلبها وابتسمت ؟ ماذا لو توقفت مرة أمام المقهى وأومأت لي ، حتى إذا خرجتُ مذهولا كحالم ووقفت أمامها كتلميذ

طائع أطلقت تحية الصباح . حتماً سأترجمها رسالة حب من نوع الرسائل التي تشبه مشهداً رومانسياً من مشاهد الأفلام ؟ .. مع ذلك لن أيأس .. اليأس قاتل ومحبط للآمال بينما الحب عصفور يحيا على شجرة تمنحه العزيمة وهواء يهبه روح الزقزقة .. سأنهض ! نهوضي يجعلني أقاوم رغبة الوسادة في إبقاء رأسي صديقاً لها ، وأرفض رجاءات البطانية في تشرب حرارة جسدي .

المظلة المشرعة الطائرة فوق رأسي تقيني مدرار المطر وأنا في الطريق إلى المقهى . الرصيف يتلقف خطواتي المسرعة فلا يضجر . حقيبة اللابتوب تتكىء على كتفي الأيسر ، لا تدركها الرشقات المائية ذلك أن المظلة تتولى حمايتها . غيري يحتمون مثلي بالمظلات ، وآخرون يتخذون من صف أشجار الكالبتوس المتجاورة على امتداد رصيفي الشارع مظلات طبيعية ، والمطر مجنون .. كان الشاعر السياب يكره المطر . المطر يجلب له الكآبة ويرميها في رئتيه المتعبتين ، ويزرق له الروماتزم في مفاصل عظامه .. الكآبة تذكره بالأم التي فقدها بعمر السادسة ، وبالحنين الذي لا يُلبى من قبل النائمة في اللحد ليست بعيدة عن دموع حزنه وثورة لوعته .. المطر يحثني على الجري للوصول إلى المقهى ، يمدني بأرصدة الإصرار على ركل التقاعس ، يجعلني أشعر أن عائشة تناديني عبر قطرات المطر وهي تضرب قماش مظلتي السوداء . القطرات تكلمني : قطرة تقول صباح الخير يا أول الصباح ، وقطرة تنده على أخرى لكي ترقصا على المشمَّع المتشرب بأجساد أخواتها من القطرات ، وقطرة تكركر جذلاً من شدة تزاحم قطرات قرينات معها ، وقطرة تهمس : كيف أنت يا قادري ، يا عصفور الوله ؟ ، وقطرة تتكسر نثاراً فلا تشكو بينما قطرة أخرى تنتحب .. تنتحب يا أمي ، يا " صافية .."

أمي صافية فشلت في حشد التحذيرات الموجهة لي منذ الصغر . خسرت وعودها إزاء نساء الحي من أنني لن أخدع فاسقط في شباك فتاة تغويني ، وتذيقني لوعة الحب وعذابه .. قالت لهن سنرى ! ردّاً على تسفيههن لرأيها .. المستقبل كرَّس التسفيه ، ذلك أن عائشة خرجت من بين غيوم الحلم بعد أعوام من الصمود وملاحقة أمي لي بسيل من النصائح ... عندما ظهرت عائشة كان القلب طفلاً يلعب بدمى اللامبالاة ولم يكن صياداً ينتظر طريدةً .. مرت عديد المرات من أمام المقهى والقلب طفل يلهو . غير أنه رفع رأسه مرة فاصطدمت عيناه بدميةٍ تتحرك . تضرب على رصيف الشارع بنقرات حذاء ذي كعبين مرتفعين أحسَّهما ينقران على شغافه .. صرخ القلب : آآآآخ ، أعقبه الفم بصيحة : آآآآآه .. أما هي فأومأت له برموشها النافرة ومضت كظبية تناهض ولع صياد انتبه فجأةً لوجود طريدة.

لحظة كفَّ المطر عن نشيده ارتفع بخار القهوة من القدح الذي وضعه النادل أمامي على المنضدة فصار ضباباً على الزجاجة الرئيسة . الضباب سريعاً تكثف فاستحال قطرة كبيرة أرتني فتاةً تتألق طافيةً فيها . تمرير سبابتي على القطرة كشف أمامي عائشة تخطو على الرصيف الندي ، وشعرها يعلن هتاف الشباب ، ويطلق نداء خروجي إليها لألقي تحية النظر وأتلقى هذه المرة سماحة ملامح وهدوء يتخلى عن النفور ما يزرع في قلبي روضاً من زهور الأمل بأن الآتيات من الأيام قد تفتح مغاليق الأمور وأجد كفي بكف عائشة .. أتخيل نفسي سائحاً يرافق سائحة مع جوق من السياح الذين اعتدنا مشاهدتهم يقطعون بلادنا طولا وعرضاً طلباً للدفء ورغبة في التجوال والتقاط الصور لأماكن ومشاهد لم يألفوها في بلدانهم . نخطو هائمين . وأروح اعزف لها سيمفونية القلب وتروح تسمع اللواعج صولوات من (أبواق) تنفر آهات ، و(كمانات) تسكب شوقاً ، و(فلوت) ينثر رحيق الروح ، و(جلو) يؤكد بوح الكمانات ، و(كونترباص) يمنح رخامة رصينة للبوح .. وأجد عائشة تتهادى رحيلاً ، تميل شمالاً ويمينا بجسد تطوح به هارمونية الهيام ، ثم تفيق لتقول : سامحني يا حبيبي ، أبهذا القدر المهول من غيوم الشوق والوجد والانتظار يحمل قلبك ولم أنتبه له ؟!.. ألهذا الحد كنت تعاني ولم أقف لأمرر أنامل شفاهي على رموش لهفتك .. ها أنا لك . لن تعاني بعد اليوم . لن ألبسك ثوب الحزن الثقيل . لن أجعل من ساعاتك سوى رياض هناء أبدي . سأستدعي موزارت ليعزف لك على كمان الروح ما يبهجك ويغذيك بعذيب الشهد الروحي . سأنده على جايكوفسكي ليكتب لك تونات الرخاء الزمني ؛ فلا أسى ترى ، ولا ألم يتسلل لمملكة فرحك ، سأتضرع لبيتهوفن أن يؤلف سوناتة الأمل ليرسم مستقبل حبنا ينعم بالرفاه والجذل .

عودتي إلى منضدتي جاءت على هدي حنين نبيهة كراولي راقصاً في فضاء المقهى بهيئة صوت فيه لكنة الجنوب التونسي العذب.. ((محلاها كحلة الأنظار)) تقول نبيهة على شاشة البلازما العريضة ، فيكمل القلب ((تتباهى بسر وخطّار)) ، وتتجه الأصابع لتنقر على وجه المنضدة نقرات التوافق مع إيقاع الروح الذي يشهد للمرة الأولى تسلم شهادة النجاح في امتحان الحب .. لم أكن قبل سنةٍ أولي اهتماماً لصوت كراولي . محمد هو الذي أشار إليَّ مرة ونحن نجلس معاً في منضدة خارج المقهى نتابع المارة ونطالع حركة سير العربات في ساعة من ساعات البطالة المشتركة . قال فجأة : انهض ، لندخل .. هيا سأسمعك سحراً جنوبياً من الغناء تهيم له روحك وترحل خيالاتك ، سأريك جمالاً صحراوياً لن تنساه .. نهضنا .. وقتها وجدت نفسي أطالع أنوثة ملائكية تحتل شاشة التلفاز .. رشاقة في القوام وجمال في الصوت .. صحيح أن العينين اللتين تبثان البوح الأنثوي كانتا ضيقتين وحسيرتين ، لكنهما فاتنتان وغريبتان .. خيل إلي أنها تتوجه بالكلمات واللحن والفخامة لي أنا فأسقط في هوة ذهول عميم . تجمدت في مكاني ، تصلبت يديَّ . رحلتُ إلى قلب الصحراء ، إلى تجمعات الرحالة وهم يجوبون بإبلهم وأغنامهم ظهور البوادي وبواطنها . تخيلتها أيضاً تخاطب مدينة سيدي بوزيد ، فتأتيني المدينة بدروبها ، وحدائقها ، وغنجها ، وبراءة نسائها ، وكرم شيوخها ، سابحة في بحر من هيام وألق . ترفع رأسي وتضمه بحجرها ، تغمره بدفء العطف ممررةً كفها على رأسي . تدخل أناملها بطيّات شعري:

- **شعرك أسود ... تقول . ثم بعد صمت ، يتخلله تسلل أناملها في الطيّات ، تسألني .. أحكي لك أم تحكي لي ؟**
- **سأحكي أنا .. قلتُ ، كما لو كنت أمتلك الكثير عنها وأود البوح الوفير لها .. حدثني أبي عن أبيه انكِ تحتلين قلب تونس . أنتِ أحشاؤها . وهبك الله ثوباً أخضر تتراقص على نسيجه اليانع طيور الجنة تطلق لحنا تستفيق له أراضينا الناعسة . تندهين على البحر ، ترجينه أن يزورك . تتمنين الذهاب إليه لتشتري نسائمه . تعبئينها في صندوق صدرك . توزعينها في ما بعد على الشوارع الغافية على وسادة النقاء ، والبيوت الحالمة بطيف الله يزورها .. الأزقة تقول : أريد جرعة كبيرة من النسمات فصدري يكاد يختنق ، ورئتاي تحنان إلى البهاء ... يقول أبي : سيدي بوزيد تفخر أنَّ لها وطناً ينتظر ثماراً تجود به أشجارها السابحة في الرضا عمّا تقدم .. تغني لنبيهة كراولي ((محلاها كحلة الأنظار)) . حيازة تجمع الشعر والغناء وتنثره على الناس سواسية .. الشعر في سيدي بوزيد رغيف لا يمكن استثناءه من وجبة الحياة اليومية .. الغناء عسل الروح . تجمعه ذائقات سكان بوزيد من عذيب أصواتهم . أمي قالت أنَّ لنا حكايات لا تنتهي إن افلتناها من عقالها ؛ ولأصابع النساء قدرة نسج سجادة الفخر والصبر والقدرة على تجاوز البكاء.**

البكاء كثير في سيدي بوزيد ، لكن الأمل يتناسل أيضاً . قد يركله شرطي لا يعرف الرحمة ؛ أو يذبحه بوليس سري اعتاد على لغة السادية ، لكن إنسان سيدي بوزيد صابر ، مؤمن ، يصر على الفرج وحضوره مطراً بعد طول ضيق . ويؤكد أنَّ مَن يئس ضاق به العيش واندثر ما لم يجعل من الشمس مآلاً للوصول إلى المبتغى.

أبي كان يردد أيضاً : أحلى ما في مدينتنا عدم تخلّيها عن بساطتها وبراءتها وخجلها الريفي .. ترى في الريف وأهله أهلاً وأقراناً . ترى في مزارعه البطاح التي تحلم في حضورها . مدينة تزور ريفاً . زيارة يتجلى فيها الشوق والبهجة والكرم .. سيدي بوزيد ، يقول أبي ، تخلع نعليها وتروح تعدو على أرض معشوشبة خضراء تقول سأطعم شعب تونس جميعاً بسِفرتي . سأغذيهم بما يجعل يومهم بلا منغصات ولا كمد.

هزة كبيرة تلقّاها ساعدي الأيسر أرتني دهشة محمد وهو يطيل النظر في وجهي مثلما كشفت لي كراولي مستمرة في غنائها كما لو أنها تعيد الأغنية وتكررها لأجلي.

(3)

عائشة تقول أيامها

ما أنْ ألقت عائشة آخر نظرة على المرآة وتحركت تدفع برأسها من باب المطبخ ساعة كانت أمها منشغلة بغسل صحون طعام الإفطار وفاهت هامسة " أنا خارجة ، يا أمي " حتى ارتسمت صورة قادري أمامها .. بدأت متوالية العادة اليومية : لا تخافي ، يا أمي ابنتك ليست حمامة غرّة بمقدور الصيادين إسقاطها في شباك أحدهم " .. لا تأمني النظرات المنسكبة من عيون تتسع حين تمرين ". تحذرني أمي ، فأقول : معك حق ، لكن الشاب الذي يجمع الغناء في قلبه وينثر عطر الحنين من عينيه لا قدرة لي على مناهضته . كل صباح تسألني النسمات يا أمي عن سرِّ تحول قلبي إلى عصفور يريد أن يطير من قفصه لحظة يدنو من مقهى الخيام هناك ! ينتظرني قادري ليحط على كتفه ويزيح العصافير المحتشدة عليه . قد يخطر على بالك أن العصافير نساء ، يا أمي ، كلا بل رسائل عتاب .. قرأت احدها . كانت قصيدة تسكب آهات ، تستحيل طفلة تبكي . قلبي أيضاً طفل يبكي . يبكي ، يا أمي حين أشيح بوجهي عن توسلاته . يبعثر دموعه على أناملي ، ويطلب مني أن أرفعها وأقدمها هدية إليه . مرةً قال : أنا قادري .. لا .. لا هو لم يقل ذلك . قالت عيناه المنسكبتان لوعةً وهما تطالعاني ، ترجمها عامل المقهى عندما ناداه : قهوتك بردت ، يا قادري ، والهواء صقيع.

يومها عرفت أن اسمه قادري . وبنطلون الجينز الأزرق هو ، هو الذي المحه كل صباح يرتديه . فقط القمصان تتغير .. فقط البطالة لا تفارقه . لذلك قالوا عندما يكثر عدد المقاهي نقرأ على الرفاه السلام .. وقرأنا منذ أعوام سلاماً على الشهادات وأعداد الخريجين التي تزداد ، والطوابير التي تتضخم .. وقادري الذي يحق لي أن أطلق عليه حبيبي بعد الآن هو رقم من متهافتات الأرقام المعطلة .

المقهى هويته . يملأ جيوب الصباح بعملة الأمل في أن يراني فيبتسم .. يرتب الظهيرة على مقاس ضجره . يحصد من جلوسه الطويل على كرسي الخمول حتى المساء باقات الكمد .. وفي الليل يعد العدة لصباح قادم علّه يحمل مفاجأة ابتسامة مني ، أو تحية ... أدريك حبيبي تبحر كما سندباد بحثاً عن جزيرة رضاي ، لتعود بكنوز خبيئة تغدقها عليك خرائط عيني الراضيتين عنك ، المشغولتين ببحثك وصدق نواياك .

كل صباح أفتح نافذة غرفتي ، فيأتيني تغريد بلبل ،بجناحين رماديين وبقعتين سوداوين يحيطان عينيه الخرزيتين ، يقف على شجرة تين ثمارها تقطر عسلاً .. البلبل يغرد ، شجرة التين تقول له : خذ ، ارتشف من عسل ثماري .. البلبل لا يلبي رغبتها . ولا يلتفت إليها يخاطبها ، بل يقول : عسلي ، هذا الذي أمامي ، ويقصدني .. هو يقول : أنا قادري ، وهي عائشة . تضحك شجرة التين ، تكركر .. يا بلبل ، يا مجنون ، عائشة بنت أمها التي تحذرها دائماً من الآخرين .. أغنياتك لا تهز وتراً من أوتار عاطفتها فاستدر وكل من عسل ثماري .. قادري يقول : لا تقولي ذلك فقلبي يبكي إن ضحكتِ وسخرتِ مني . عائشة ، أسمعها تغني مع بنات اللهفة وصبايا الشوق ((وتمنيتك .. توسمت فيك الخير)) عائشة تحب غناء نبيهة كراولي أيضاً مثلما أحب غناءها أنا .. القلوب سواقي تجري .. تضحك شجرة التين . هذه المرة ضحكاتها أكبر ، وكركراتها لها صدى سخرية لاذعة تشبه طعم الليمون على شفاه طفلة لم تجرّب تذوق شيء حامضي من قبل ... أهمُّ بمقاطعتها ، وكتم كركراتها ، أريد أن ألجمها وأقول : اصمتي أيتها الشجرة العذولة .. هو ندائي إليه .. هي أغنيتي التي لا اعجز عن إرسالها مضمخة بأرائج الود .. هو قادري بلبلي الذي انتظر مجيئه مع أول نور يوقظني من غفوتي ، يطرق زجاج نافذتي لأسقيه قهوة اللهفة ساخنة ، ممزوجةً بحليب حنيني ونكهة شوقي ودفين مشاعري . قهوة روحي تطعم قلبه نكهة الوفاء .. أيتها القهوة الروحية اجعلي قادري بلبلاً يزيده الغناء شوقاً . لا تسقيه خَلاً . ولا تطعميه فلفلاً .. وأنتَ أيها الفنجان المُطعَّم بورود لمسات أصابعي البنفسجية بح له بما جرى ساعات الليل وقبلها دقائق الغروب .. قل له كيف اصطحبت فتيات الحلم ورحنا نخطو في رياض قطف ورود الإخلاص لنرمي بها وراء سياج بيته ، ذلك أن الباب مغلق والسياج عالٍ لا يسمح لنا بالنظر أو إرسال تلويحة يد كرسالة تقول الشوق وتحكي الذوبان.

توقفني شجرة التين حين اهبط من شقتنا في الطابق الثاني ، تقطع علي الطريق : عائشة ؛ لا تكوني بلهاء . بُلبُلكِ قادري لا يملك رصيداً غير الغناء ، فمن أين لك بالآتيات من الأيام رصيداً للعيش ؟ وكيف تَحيين على تغريد في هجير موحش .. الدنيا عمل ، والعمل هوية . وهويةُ قادري مقهى . عملُه بطالة . لا ملمح لأفق بائن يصرح بمنتهاها ؛ وأنتِ عائشة.

(4)

الجزيري يقول ذكرياته

صورة محمد وكلامه الماطر تذمراً ترسب في قاع رأسي . أحدث حرقة في صدري ، لبّد سماء يومي .. سحنة الشاب السمراء وشحوب الوجه بعينين تشيع في بياضهما صفرة تشبه صفرة مَن يصابون بفقر الدم .. تلك السحنة ولّدت صوراً أعادتني إلى كتاب الشباب أقلب صفحاته فأرى نفسي في الأعوام الأولى من المرحلة الثانوية ، شاحباً وممتقعاً . أترك البيت بعد دقائق معدودة من وصولي قادماً من المدرسة . تخاطبني أمي : تناول صحن المكرونة سريعاً يا لطفي ؛ وانطلق صوب فرانك لئلا يستغني عنك .

وفرانك عجوز فرنسي تخلَّف عن أقرانه الذين رحلوا إلى فرنسا بعد استقلال تونس وعودة المحتلين الفرنسيين إلى وطنهم . بقى هو وزوجته يصرفون الستين من الأعوام يملكون مكتبة لبيع الصحف اليومية ، والمجلات الدورية ، والكتب المستعملة ، غير آبهين لتحذيرات مواطنيهم من أنَّ التونسيين ربما يغدرون بهم ويقتلوهم .. لم يكن فرانك الوحيد الذي فضل البقاء في تونس ، بل أعداد متناثرة في المدن لا يستهان بها آثروا الحياة البسيطة في هذا البلد المتوسطي على غيره . ولأن كبار السن لهم تجربتهم في الحياة فقد رأوا أن دولةً كفرنسا خارجة من حرب طويلة ومدمرة كالحرب العالمية الثانية تحتاج إلى الكثير ، الكثير كي تستعيد أنفاس الاستقرار ، وإن اقتصاداً منهاراً لا ينعم بالرفاه إلا بانقضاء أعوامٍ طويلة من التقشف وتجاوز الأزمات .

اعتدتُ حثَّ الخُطى بغية الوصول إلى المكتبة لأجد فرانك ينتظرني . وكالعادة اليومية يطلعني سريعاً على الموجودات ليبرح المكان صوب البيت ، هناك حيث تنتظره سيمون . يتناولان وجبة غداء خفيفة في ظل شجرة المانغا المحاذية للفناء المبلط ببلاطات مربعة تحتلها دوائر زرقاء وبيضاء تشكل لوحة أرضية تعكس ذوقاً رفيعاً . الفناء ينفتح على حديقة واسعة تحتل ثلاثة أرباع مساحة البيت البالغة ألفا متر (جلب فرانك البلاطات حسب ذوقه من صفاقس حين لم يُعجب بأنواع البلاطات المعمولة في سيدي بو زيد ، ورسم واجهة الفناء كما اشتهى وطلب من البنّاء تنفيذها).

في المكتبة أجد نفسي وسط حياة موّارة تجسد مفرداتها صفحات الجرائد تنقل أخباراً متهافتة ، وحوادث لا تنتهي تثير القارئ في عالم لا يهدأ ، فتحفزه على معرفة ما جرى وما سينتج .. في المكتبة أروح أستل الكتب من فوق الرفوف فأقرأ العناوين ، وأقلب الصفحات مطالعاً الفحوى ولو بسرعة خاطفة .

كثيراً ما أثارتني اهداءات مؤلفي كتب دونت بأناملهم ، وحبرهم ، وجمال خطهم قدمت لأشخاص يحسبونهم سيحتفظون بها كأجمل وأثمن هدية .. وأخرى من أشخاص يعشقون القراءة فيهدون كتباً أحبوها وإن لم تكن من تأليفهم لأصدقاء لهم يودّونهم . يخطّون عليه اهداءات بكلمات تمطر وداً واحتراماً ... أقرأ إهداءً يقول : " للكلمة فعل السحر في مَن يؤمن بها ؛ وللكتاب تأثير القوة الإلهية على مَن يقدِّر قيمته ." وفي رواية تطلعني الصفحة الاولى بعد الغلاف بمن استخدم حبراً أخضرَ في الكتابة : عزيزي ليث السويسي : كان على السرد أن يرسم حياة من جاهدوا وتعذبوا فلا ينسى انهم لفظوا الانفاس على اعواد المشانق لغدٍ بهي للأجيال .. تقبل محبتي . " .. من هو السويسي ؟ وكيف استقبل هذا الاهداء الصادق ؟ ثم لماذا فرط به فتركه يُسرق من قبل قراء بينما كان اهداءً خاصاً له ؟.. لا.. لا ! لا اعتقد ان السويسي هو مَن فرَّط بذلك انما ابناءه مَن لم يقدِّروا ؛ فقد يكون الرجل مات ، فاستحال ارثه نثاراً .

يومياً صرت أبصر محمد يدفع العربة مسرعاً في الشارع العريض لينعطف يميناً في جوف الزقاق الذي يحتوي مقهى جندوبي ويتخذ مكانه الذي رأيته فيه أول مرة .. يستقبله جندوبي بتحية الحنو ويدعوه للاتكال على الله في تيسير مهمته وإيقاف عربته في المكان الذي وقف فيه لأول مرة قبل أيام وجعل ربات البيوت يتقاطرن عليه ويبتعن الخضار والفواكه ، عائداً بعدها قانعاً بما وهبته السماء .

يذكرني محمد ببطل من أبطال (تشارلز ديكنز) المُعدمين ، وجلهم صبية استلَّهُم من واقع لندن البائس في القرن التاسع عشر وهو يكتب عن حياة اللقطاء من صبية لندن ، وواقع الطبقات المسحوقة ، لا ينتشل أفراداً

منها غير الحظ يوم يبتسم لواحد منهم يرفعه إلى الطبقات الأوفر مالاً والأسعد عيشاً كما هو (أوليفر تويست) ، مثلما يذكرني بـ(كِبس) الفتى الذي دفع به (أج ، جي. ويلز) ليعيش وسط شريحة اجتماعية رأسمالية نهمة ، لا تشبع من المال. لا يمت لها هذا القادم من قرية منسية اسمها (نيو رومني) بصلة . وفي هذا يجعل الفتى يكتشف ، يدهَش ، فيعرّي فساد ذلك الوسط المبهرج من الخارج والوضيع من الداخل . وسط يوظِّف مختَلَف الوسائل البغيضة في سحق الطبقة العاملة واستغلالها اشد استغلال .. صارت مشاهدة محمد عندي تحفز ارتسام صورة كبس النائمة في مخيلتي بعد ان مر على قراءتها ما يربو على الثلاثين عاماً . رأيت أن أطلق على محمد تسمية (كبس) لولا صوت جندوبي الذي همس بأذني يوم سألته عمّن يكون هذا الغاضب الممتقع ورد : هذا محمد البوعزيزي . أبوه البوعزيزي الحدّاد ، صديق طفولتك ، الا تتذكره ؟ ما دفعني إلى أن ألغى التسمية ، فانظر اليه بحميمية واستقبله بتعاطف .

حقّاً كان البوعزيزي والد محمد صديق طفولتي وقرين أفكاري . وبداية سبعينات القرن العشرين تؤرخ لمراهقتنا البائسة وآمالنا المسحوقة . نشأنا في سيدي بوزيد يوم كانت قريةً لا يضم سوقها سوى بضعة دكاكين وبيوتها تتكتل وتتناثر بلا انتظام . ليس فيها غير شارع رئيسي واحد ، أطلق عليه (شارع الجمهورية) قبل ان تستحيل ولاية .. دخلنا المدرسة سويةً ، واجتزنا المرحلة الابتدائية مفعمين بأمل التواصل ..

ولولا نوبات التهاب المفاصل التي استحالت مرضاً مزمنا لأبيه عبد الله ورمته قعيداً في البيت لما ترك البوعزيزي المدرسة مؤثرا مهمة فتح دكان الأب والمرابطة فيه طيلة النهار مكتفياً بمهارة القراءة والكتابة فقط .. تلك الحالة القاسية أوجبت عليه صون عائلته مقابل حرمان قاهر من مراحل الدراسة الثانوية والجامعية التي سأجتازها أنا بحيازة شهادة الليسانس في علم المكتبات .

أتذكَّر علاقتي الحميمة بالبوعزيزي وعيشنا سوية مع شلة من الأصدقاء . كان الفقر يجمعنا ، وتوحدنا جغرافية مدينة منسية . لم نترك شبراً من مدينة سيدي بوزيد إلا وطبعنا أقدام مودتنا على أديمها ونثرنا في دروب فضائها أحاديث الفتوة والشباب .. وبذكر الشباب لابد من ذكر النزعات التي تتوالد في نفس كل منا . فقد غدونا البوعزيزي وانا وصالح وشقرون ومحمد كلوص واحمد بلقاسم ، مجتازين برزخ العشرين عاماً ، نهندس مطامح نبغي من خلالها تغيير أسلوب الحياة ورجرجة دواخلها . أنا أخذني الشعر ورحت أضرب في جنبات الأدب رامياً بكل تطلعاتي في بحر الثقافة الذي دهشت لاتساعه فحفَّزني على صيد لآلئه . البوعزيزي رأى في الرحيل مخلصاً للتغيير وبناء مستقبل يقفز على الرتابة ويلج صباحات تنهل من نور شمس الأمل بعد وفاة والده مخلفاً دكاناً يثقلهم بإيجاره وقلة إيراده . صالح كان متطرفاً ، ينشد دخول العمل السياسي تسريعاً للتغيير . شقرون عشق الموسيقى وقبَّل يدَ عمِّه تاجر التحفيات والانتيكات في مدينة بنزرت يوم حقق له رغبة حسبها من عِداد الأمنية عندما جلب له آلة غيتار في إحدى زياراته للقاهرة وأسر له ضاحكاً أنها آلة كان عمر خورشيد يعزف بها قبل أن يصبح عازفاً عَلماً يصاحب وردة الجزائرية في أغانيها الطويلة أمام جمهور يعشقها بجنون ، وقبل أن يختطفه الموت في لحظة اختلاس خاطفة .. محمد كلوص واحمد بلقاسم دخلا في صداقة مع شاب مصري اتفق وإياهم أن يفتتحا دكاناً في واحة قابس ، في الجنوب . هو ينقل لهما الخضار والفواكه - من سيدي بوزيد ومنزل بوزيّان وهما يتوليان البيع بشراكة وضعوا الله بينهم واقسموا أن يتصرفوا كأخوة لا يغريهم المال ولا يوقعهم الطمع في شباكه .

أتخذ البوعزيزي من ليبيا وجهة لعمله فغادر في خريف العام 1975 مُمنّياً النفس بما يدر عليه مالاً ، لاسيما وليبيا تعيش بدء انتعاش اقتصادي جراء ارتفاع أسعار النفط وعزم الحكومة هناك على تغيير حال مواطنيها ببناء مجمعات سكنية جديدة وحضارية وترك البيوت الدميمة القديمة لتكون شواهد ثابتة لأجيال قادمة بغية عمل مقارنة بين حياة كان يعيشها آباؤهم وأجدادهم ما قبل انفجار أسعار النفط وما بعده . لذلك غاب البوعزيزي . ومع غيابه انفرطت الوجوه .. الايام أخذت صالح ، بعدما تخلى عن همه السياسي ، صوب الريف بمصاحبة والده وابن عمه أُجراء في مزرعة فاروق وادي .. مزرعة عامرة تضم مائة وخمسين شجرة زيتون تتفاوت أعمارها بين العشرين سنة والمائتين . أجيال من شجر زيتون شكل المردود المالي الوافر للشيخ فاروق وجعل له اسماً شهيراً تعرفه المدن القريبة منها والبعيدة ؛ وحتى الكثير ممن يقطنون العاصمة يعرفون اسمه ومركزه ، وأرض خصبة تنتج مختلف الفواكه وأنواع الخضار .(تأتي عربات الـ" بيك أب " لنقل ما تم

قطفه واعداده عصراً إلى العاصمة تونس مباشرة ليكون في صباح اليوم التالي معروضاً في سوق الخضار ، فيتوجه إليه المتسوقون باندفاع لما يتحلى به من رونق وصفاء وامتلاء) . يخرج الثلاثة مع انتهاء صلاة الفجر باتجاه العمل فلا يعودون إلا مع تواري الشمس خلف جبل (الكبار) . يأتي صالح يحمل شوقاً يترجمه كلاماً لا يريده أن ينقطع عن عملهم في المزرعة التي تعج بالخصب والنضارة ووفرة المياه العذبة . وينقل شيوخ سيدي بوزيد أن عدد من تجار الأرض الفرنسيين حاولوا شراءها من والد الشيخ فاروق بأي ثمن فلم يفلحوا .

حدثني صالح عن الشيخ فاروق أنه متزوج من ثلاث نساء خلفن له ثمان عشرة ولدا وخمس بنات ، جنَّدهم جميعاً للمزرعة إلا أن جهوده واولاده لم تكن تسد حاجتها فاضطر إلى الاستعانة بمن يعرفهم . وكان منه والد صالح الذي اقترح أن يصطحب ابنه وابن أخيه للعمل ، فقال لهم الشيخ : على بركة الله ، سنحسبكم من العائلة .

في الأيام الأولى يأتي صالح إلى المقهى متعباً . يجلس ليحدثنا قليلاً ثم يعود إلى البيت مبكراً كي يستيقظ مبكراً .. ومع الأيام وتواليها قلت اللقاءات ، ثم تقطعت . ثم بالكاد صرنا نراه مثلما صار كل منّا يتمنى عودة الرفقة والتقاء الجمع .

وهكذا..

* الايامُ حملت شقرون إلى العاصمة فلم يعد لسيدي بوزيد الا بعد خمسة عشر سنة مقعداً على كرسي متحرك بعد ان تعرض لحادث سير على طريق القيروان عندما اصطدمت سيارته التي كان يقودها وإلى جواره مدير المكتب الذي كان يعمل فيه مع شلة من الموسيقيين بجرّار زراعي دخل من الكتف الترابي إلى وسط الطريق المعبّد بغتة دون اشارة تنبه القادم بأقصى سرعته على طريقٍ له .. عمل شقرون في العاصمة لدى فرق متخصصة في الفن الامازيغي . يشارك في أغاني أفراحهم ويغرق في تعلم لغتهم .عزف الكثير من اغان لهم تشكل ارثاً يمجدونه ويسعون للحفاظ على ثرائه مثلما لحن الكثير منها بلغتهم فصاروا يحسبونه خير معبّر عن عواطفهم . ويوم تكشفت سوءة الحظ واعاقه حادث السير وتركه مشلولاً حزنوا عليه حزناً لم يطيقوا ثقله . طفقوا يرثون فناناً ولدته سيدي بوزيد لتهبه لهم منتجاً لألحان كانت تتسلل إلى الأرواح فتذيبها في وهج الجوى وتحملها على غيوم الهيام .

* حملت محمد كلّوص واحمد بلقاسم إلى واحة قابس فلم يعرفوا سيدي بوزيد الا في مناسبات الاعياد الدينية ؛ يأتونها زائرين ثم يندفعون عائدين الى الواحة لمواصلة عملهم هناك .

أما أنا فلازمت المدرسة وانهمكت في تجاوز المرحلة المتوسطة ، فقط أتوجه إلى مكتبة فرانك لصرف ساعات الظهيرة .. وفي الليل أجلس متشوقاً لقراءة ما يأتي به أخي حسّان الذي دخل المرحلة الجامعية من كتب أدبية اغلبها روايات ومجاميع قصصية عرفت منها نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وزكريا ثامر ويوسف إدريس . ووجدت نفسي أدخل عوالم سحرتني وكنت ألح على حسّان أن يجلب المزيد فأرشدني إلى عبد الرحيم المرشدي .. أخذني إليه ؛ وكان يمتلك مكتبة عامرة في بيته فاستقبلنا الرجل هناك استقبال العالِم بمن احب العلم .. رجاه أخي أن يمنحني فرصة الاستعارة بعدما شرح له وأفاض عن حبي للقراءة والتبحر في محيط المعرفة الادبية . وافق الرجلُ مرحِّباً ، مشترطاً ألا أسيء للكتاب ؛ ألا أكتب عليه ولا أرسم ولا أتركه في أماكن تسبب تلوث غلافه أو صفحاته . وعده بتنفيذ التعليمات التي سمعتها فصرت أزوره كل ثلاثة أو أربعة أيام . أعيد كتاباً لأستعير آخر . صارت لي رغبة أن أكتب قصصاً مثل ما يكتبون. لم أخفِ تأثري بأسلوب زكريا تامر الساخر الذي يقطر مرارة وألم ولو أن يوسف إدريس كان يهمس لي بقصصه العذبة التي تتناول شخوصاً لها همومها الخاصة يعرضها بأسلوب رشيق ومحبب ... وفي يوم لمحت عند حسّان كتاباً صغير الحجم يحمل عنوان (قالت لي السمراء) لشاعر اسمه نزار قباني . سألته عنه ، فقال : لا اعرف الكثير عن هذا الشاعر الذي قيل لي سورياً لكن صديقاً أشار لي عليه لأنه يكتب شعراً يقال عنه ماجناً لكنه شعر عذب ، يرسم صوراً ساحرة وجميلة ، وبلا تعقيد . وفي ساعة عصر تسللت انامليَ إلى الكتاب الصغير .استللته من بين كتب ودفاتر حسان الجامعية المركونة على المنضدة في زاوية الغرفة ، جوار سرير نومه (لقد شاهدته

ليلة أمس ممداً في سريره يطالعه بتواصل . ولم يتركه إلا بعد أن انتهى من قراءته تماماً) . طفقت أقلب الصفحات أقرأ شعراً سحرني بغتة . رحت أعيد قراءة القصيدة حال انتهائي منها مفعماً بشعور عدم تجاوزها .. قصائد أوقعتني في دائرة السحر ؛ وجعلتني أعيش ذهولاً أو دهشة لا انعتاق منها) .. وفي لحظة شوق اندفعت إلى سحب كرّاسة من كراساتي المدرسية وشرعت أنسخ القصائد واحدة فواحدة طافياً على رغوة من العاطفة العارمة ، وراجياً أو متمنياً أن أكتب مستقبلاً بمثل ما أقرأ منه اللحظة .. صار نزار قباني ملهمي ومثير أسئلة شرعت أسكبها في مسمع حسان عن إصدارات هذا الشاعر فعدد لي مجاميعه الشعرية كما سمعها من صديقه المعجب بالشاعر .

ولأن حسّان قرأ لهفة ، تطلقها حدقتاي وتطيرها رموشي ، وعدني أن سيكلم صديقه ليعيرني ما يمتلك منها .

*****

ثمانية اشهر مرَّت لم نسمع عن البوعزيزي خبراً سوى ما جاء على لسان عامل قدم من مدينة (المزونة) يقول انه هو والبوعزيزي يعملان سوية في منطقة (الواحات) الليبية. يسكنان سوية وينهضان صباحاً فينضما إلى مجموعة العمال الذين سُخِّروا لبناء مجمعات سكنية ذات طابق واحد ستوزع على سكان الواحة . وسيستغرق العمل لأكثر من عام أو حتى عامين ، وأنهما ينعمان بحياة مستقرة يتمنيان لو تدوم . فالأجور مغرية والعمل متواصل ..

لم تمض غير أربعة اشهر حتى تناقل سكان بوزيد خبر قدوم البوعزيزي الذي فوجىء بوفاة اخيه (علي) تاركاً زوجة صارت أرملة هي (منوبية) .. هب شباب المدينة ممن سحقتهم رحى البطالة ، وأرهقهم ثقل الفقر ، مقدمين عزاءً مرّاً ومنهالين بعد ثلاثة أيام ثقيلة بالأسئلة عما شاهد وماذا وجد ؛ متأملين نصيحته في اللحاق به في مكان عمله أو أي مكان من ليبيا تتوفر فيه فرص مشابهة للفرصة التي حصل عليها .

*****

فوجئت بانشراح البوعزيزي للقاء وشوقه العارم لي ولصالح مثلما فوجئت بامتلائه امتلاءً يشي بارتياحه في العمل وتكيّفه للعيش خارج الوطن رغم الدكنة التي وشحت الوجه بفعل شمس الصحراء .

صاح صالح وسط جلستنا في مربوعة البيت مع ثلة الصحاب المتشوقين والمستفسرين :

- **كنت الشجاع وكنا المترددين .**

صاح أحد الجُلاس :

- **الشجاعة صفة لا يمتلكها كل إنسان .**

ضحك البوعزيزي واظهر أسناناً بدت بيضاء ، طأطأ برأسه خجلاً وقال :

- **ليست الشجاعة هي التي دفعتني ، إنما فقر الحال ، والنظرة الرمادية للمستقبل . اعذروني يا أصدقاء فأنتم أشجع مني ، لكنكم لم تعرفوا أنني حين أترك البيت وبي رغبة الجلوس في المقهى أمد كفي إلى جيبي فتعلمني حال استخراجها بالفراغ . لحظتها أشعر بالانسحاق والمذلة .. لا أريد أن أضغط على أبي الذي اخذ الشلل نصفه ولم يعد قادراً على صناعة فأس ؛ والبضاعة التي يعرضها في دكانه لا تفي بمعيشة عائلة .. يتوقف قليلاً يطأطئ رأسه ثم يرفعها ليقول : أتعلمون اننا ولعدة ايام كنا نتناول الخبز والشاي الأخضر للوجبات الغذائية الثلاث. .. ابعدَ هذا الحال من المأساة والعوز يحتمل الواحد منّا الخضوع إلى الفقر والاستحالة عبداً ذليلاً ؟!**

لم يكن البوعزيزي يبالغ في كلامه . وكل ما قاله يمس قلب الصدق . كان يشعر بوطء الحال . كثيراً حاول العمل . انتقل من مهنة لأخرى ، بعدما استقر به الرأي إلى أن دكان ابيه لا يدر ما يسد رمق الاسرة ، فلم يحظ بواحدة

تجعله يجيد تفاصيلها ويؤديها حد الإتقان . لذا كان يقضي الأيام التي يعمل فيها عامل بناء ليس غير . يحمل الحجارة على ظهره ، ويدفع العربة الملأى بالحصى أو الرمل بقوة ساعديه . وبانتهاء النهار يتسلم أجراً زهيداً لا يكفي ليومين أو ثلاثة من الاسترخاء . بعدها يعود من جديد إلى دوّامة الانتظار على الجدار مع مجاميع العمال علَّ أحد أرباب العمل يشير عليه ليضمه لجوقته .

كان البوعزيزي طموحاً . يجد في جسمه طاقة هائلة وفي ساعديه قوة لا حدود لها ، وهو مستعد لأن يهد جبلاً لكن واقع مدينة سيدي بوزيد التي لا تعدو كونها أقرب إلى قرية لا تفي بغرض حصوله على عمل دائم رغم إعلانها ولاية وجعلها مركزاً إدارياً لمعتمديات كان منها سيدي بوزيد الغربية وسيدي بوزيد الشرقية والرقاب وجلمة والمزونة وأخريات ؛ وهي معتمديات زراعية أكثر من كونِها مُدناً لها قدرةُ استيعاب وتوظيف الطاقات الوافرة المتمثلة بأبنائها . لذا كان أينما التفت واستدار لا يرى ما يشي بأن الحال سيتغير .

لم يقضِ البوعزيزي في المدينة زائراً سوى أسبوعين عاد بعدها إلى ليبيا ليغيب عامين كان خلالها يبعث لنا التحيات ، حتى إذا عاد محملاً بما لديه من شوق ومال أخبرنا أنه جاء ليتزوج . والزواج في مدن صغيرة وقرى متناثرة هدف كل شاب قدَر على تهيئة مصروفات الزواج . وبالتأكيد سيكون هذا الشاب محظوظاً ومثار حسد الآخرين ، ذلك أن الزواج عندنا يعتمد على موافقة الأب وقدرته المالية لصرف التكاليف . ولهذا يبقى الشاب منا أسير قناعة الأب ووفرة المال لديه .

في إحدى جلسات الود ونحن نحتسي الشاي الأخضر برغوته المحببة أعدته أمه التي تساورها الراحة ويعتريها شعور بالأمان لصحبتنا البريئة الصافية جئنا لزيارته . أسرَّ البوعزيزي في أذني أنَّه سيقترن بزوجة اخيه (منوبية) ، الارملة .. قال بعدها انه سيغيب عاماً ويعود ليدخل قفص الزواج الباهر .

غاب البوعزيزي عاماً وفوقه شهران ليعود مستعداً للزواج . ولم يمر غير أسبوعين حتى كان يوم الفرح . اختارني سلطاناً له . والسلطان صفة تطلق على من يرافق العريس منذ اللحظة التي يبدأ بارتداء بدلة العرس والدخول في دائرة المراسيم الاجتماعية .. قال لي : " لطفي ، أنت أقرب صديق لي ، بل بمثابة أخي . أريدك إلى جواري تشهد بدء حياتي الزوجية ." .. أظهرت سعادتي وأبديت شكري لمشاعره . وكان فرحاً اختار يوم الخميس . والخميس كما هو معهود في المجتمعات الإسلامية يوم بركةٍ دخولاً إلى جمعة الإسلام يوم ولادة الرسول محمد . سعدت سيدي بوزيد وابتهجت تفاعلاً مع زغاريد تطلقها النسوة من الباحة المنفتحة على السماء في بيت العريس وضربات الدفوف والصنوج التي تنبعث من السرادق الذي نصب وسط شارع المدينة الرئيس .. ذُبِح عشرون خروفاً لتكون خير وليمة لعشاء تلك الليلة ، ووزعت المشروبات الغازية والعصائر . وكان بوعزيزي في أوج سعادته ، وشباب سيدي بوزيد في أعمق أمنية أن يكون لهم زواجاً بهذه البهرجة وحميمية من قبل الأصدقاء والمعارف بهذا القدر .

(5)

منوبية تتذكَّر أيامَها

البيت الذي بثلاثِ غرفٍ وملحقاته من مطبخ وحمام كثيراً ما بان سجناً في عين منوبية وإن كان يضم زوجاً وولدين واربعة . ذلك أنها تتذكر طفولة هي من عِداد عالمٍ خاص عاشته على هدي براءة ريفية تشبه السماء المنفتحة في صفاء زرقتها وبهاء امتداداتها . كانت المزارع الممتدة على بطاح (جبل فائض) تشبه جزءً مقتطعاً من جنة ، أو رؤية فردوسية تحدث في حلم . كانت سيلاً دافقاً من مثيرات الخيال ومحفزاً لا يهدأ من رسم الصور . كثيراً ساقت الأغنام بعيداً عن هيكل البيت الذي بناه الجد من البلوك الإسمنتي والشبابيك الخشبية المشبّكة فتروح تتهادى على جمال طبيعة لها عنفوان وروعة وجاذبية تنده بها أن تغترف ما تسعه العين وما يقدر على احتوائه القلب .. عشب أخضر يانع ، وماء ساقية دافق لا ينقطع ، وهواء بحري عذب يدفع به البحر قاطعاً مئات الكيلومترات من أجل الوصول إلى مملكة فائض الزراعية ، وطيور تتبارى في إطلاق التغريد والزقزقة والهديل في حوارية تعكس مظاهر الانشراح مع مفردات طبيعة هي أشجار نخيل عالية (تهمي ظلاً رطيباً ورطباً يقطر عسلاً ، و سائل " لاقبي " يقولون عنه أن رسول الله محمد كان يفضل تناوله ، وهو الذي

ارتشفه فوجد في طعمه لذاذة وحلاوة ، فهتف " لاق بي " ، أي أنه استعذبه واستطعمه ، فسرت الكلمة على السائل المسحوب من النسغ الصاعد لرأس النخلة بعدما تُحفر بقعةٌ مستديرة بسكين خاص حتى يظهر النسيج الأبيض حيث يغرس فيه أنبوب سيسحب النسغ العذب قطرة فقطرة تنسكب في قارورة من البلاستك الصلب .. هل قال رسول الله ذلك فعلاً ؟) . أشجار الزيتون تمتد أعمارها لمائتي عام . وما عدا ذلك فأشجار مانغا وعنب وبرتقال وليمون . أما الخضار فالأرض تجود بالبطاطا والطماطم والسبانخ والكرافس والكراث ، وسرت ممارسة زرع الجرجير جاء بها فلاحون مصريون في أربعينات القرن العشرين يوم قدموا ليعملوا في المهن الخدمية إبان وجود الفرنسيين فجلبوا معهم بذوره نثروها جوار بيوتهم وسط استغراب جيرانهم من التونسيين . ويوم طُرح عليهم السؤال استفساراً عنه ، وعن الدافع الذي يجعلهم يأتون بالبذور من مصر ليزرعوه كانوا يضحكون مرددين مثلاً تصاحبه غمزة عين وابتسامة دفينة " لو عرف الواحد فائدة الجرجير لخزَّنه تحت السرير " . وحين لم يفهم معنى الكلام يروحون يفصحون عن أهميته في منح الذكورة قوة لا تتوفَّر في مصدر غذائي آخر فيما تهتاج المرأة سريعاً لمجرد لمسة من الزوج المهتاج ...

وتعيدها الذكرى إلى مريم ، صديقتها التي ابتهجت لمعرفتها بعد حوارات عن بعد تسأل إحداها الأخرى عن كيفية قضاء اليوم ، وما هي الاهتمامات المستحوذة ، ولماذا لم تدخل المدرسة ، وآهاتهن عن رفض الآباء تعليمهن في مدارس حكومية لا تأتي بغير الفجور للنساء .. وقد تتعدى إلى التساؤل إن كانت إحداهن ذهبت إلى تونس العاصمة وماذا شاهدت هناك ، وما الذي لفت انتباهها . وتتذكر كيف أن مريم عرفتها على حمّالة وعصرانه وفريدة ، فكنَّ يلتقينَ في ظل شجرة زيتون يتبادلن الأحاديث الصبيانية .. تحدثهن هي عن الواجبات اليومية التي لا تنتهي (النهوض صباحاً – وقد تعلمت ذلك من أمها يوم كانت صبية تدعوها الأم لمصاحبتها كي تتعلم وتتقن . فعجلة الزمن تدور وستجد نفسها يوماً تؤدي دور الأم - لتقديم العلف إلى النعاج الخمس والماعزات التسع يصحبهن دوماً فحل الماعز بخصيتيه المتهدلتين وهمهمته التي تسمع على بعد صف أشجار زيتون وكتلة شجيرات ليمون . تنثر حبوب الذرة البيضاء للدجاجات التي تكاثرت فتجاوز عددهن العشرين ، ذلك أن والدها " بودربالة " دأب على تناول البيض المسلوق كوجبة إفطار يفضلها على الجبن والسمن الحيواني والتونة المعلبة لذلك لم يفكر بذبح واحدة منها واقتصر على الحصول عليها حين تتوق النفس لطعم الدجاج بمقايضتها بما يحتاجه المقايضون ، وهم عادة من الجيران الأقربين .. يتبعها حلب النعاج والماعز ليكون فطورا لها ولامها وإخوانها الثلاث الذين شبوا يبذلون الجهد في الأرض سعياً لأن تخرج البطاطا كتلاً صفراء متشبعة بالماء وجاهزة لأن تتلقى أيدي المتسوقين في عديد المدن ، فالبطاطا التي تنتجها مزارع أرياف سيدي بوزيد لها سمعتها الباهرة ، المنتشرة في الأسواق وعلى ألسنة تجار الخضار مثلما يدارون أشجار الزيتون وشجيرات البرتقال .) . وتسمع من عصرانه أحاديث عن أختها التي تَدرس في مدرسةٍ في سيدي بوزيد لتصبح مدرِّسة ، وقد وعِدنَ هي وزميلاتها في المرحلة بالتعيين حال تخرجهن . إذ سيحصلن على مُرتَّب يجعلهن سعيدات بمركزهن الوظيفي والمعاشي ويمكن أن يحصلن على أزواج يسكنون المدن ، وربما يسعدهن الحظ فيحملهن بعيداً ليجدن أنفسهن في بيت زوجية في العاصمة فيحققن بذلك أقصى ما يتمنين .

تتذكر منوبية أن الأعوام لهثت فتفرق جمعهن : مريم تزوجت من زوج شقيقتها بعدما ماتت بعمر الثانية والعشرين بفعل سرطان نهش ثديها الأيمن ثم انتقل إلى الأيسر وسط إعلان الطب عجزه عن استئصاله بعدما تفشى وأعلن تسيده الفاتك بالتسلل إلى جوفها .. تزوجت لتحتضن ولداً وبنتاً ما زالا يتعلمان النطق ولم يشبعا من قول كلمة ماما .. لم تعد ترى مريم . صار جبل (الكبار) في الغرب يحجبها ، منهمكة في بيت يجمع ثلاثة أسر ، ومزرعة بعشرة هكتارات ، تتطلب جهداً لا تسعه الحدود ، ولم يلتقيا إلا قليلاً . فقد رزقت هي ببنتين وولد تراكموا ليسرقوا رغبة زيارة الأهل وجعلها تقدِّم الاعتذار لكل من يلتقيها ويرشقها بكلمات العتاب . لم يعد ثمة لقاء وتبادل أحاديث تشيع بالود والحميمية .. وإن حدث اللقاء افتراضا فسيمضي سريعاً .

عصرانة تزوجت من حارس مدرسة في صفاقس ، وعرفت أن لديها ثلاثة أولاد وبنتين . مات كبيرهم وعمره تسعة عشر عاماً غرقاً في محاولة للهرب إلى فرنسا بعد حلمٍ ظل يراوده طويلاً أملاً بحياة تنأى عن الرتابة في وطن يسود أبناءه شعور أنه يخذلهم بعدما ضربت الرياح زورقاً كان يقلّهم مع مجموعة من الأفارقة قدم اغلبهم من تشاد والنيجر ونيجيريا وبلدان أخرى ، تطلعاً لحياة أفضل .

حمّالة وفريدة ظلتا عازبتين .. حمّالة تزمَّتَ أبوها في اختيار زوج مثالي يستحق جمالها ، إذ كانت شقراء فارعة ، بعينين شهلاوين واسعتين ، يعزو الكبار همساً أن لجدتها لامّها أصولاً مالطية ، لذلك جاءت الأم بيضاء البشرة وإن كانت قصيرة .. استمر يطرد كل مَن تقدم لخطبتها حتى لهثت السنين ودنت من الأربعين فلم يعد حتى المرمَّلين أو الذين طلقتهم الزوجات يرغبون بالاقتران بها .. وفريدة تمنَّت مثلما تمنى الوالدان أن يطرق بابها طالب زواج ، إلا أن ذلك لم يحصل بسبب ملامحها القريبة من ملامح المنغوليين ولسانها الذي يريل كما السكارى الثملين فلا يدنو منها أحد خشية أن تأتي الذرية مجموعة من المعوقين أو ما يطلق عليهم هذه الأيام مصطلح (ذوي الاحتياجات الخاصة) .

أما هي فقد دأب أبوها (على زيارة قريب له يسكن في سيدي بوزيد يصنع محاريث وفؤوس ومناجل زراعة فيطرح عليه بناء على نصيحة أمها فكرة أن يعرض ابنتيه منوبية وهادية على القريب ليكونا زوجتين صالحتين لولديه(علي) و (البوعزيزي) كي تستمر صلة القربى ويستمر الدم واحداً لا تمتزج به دماء الغرباء من غير الأهل والأقرباء .

رحَّب الأب بالفكرة ، ورأى في بودربالة خير مَن يسعى لبقاء أواصر القربى وفي رأسه الفكرة المثلى ؛ لذلك حالما عاد ولداه من عملهما وتعشيا وشربا الشاي الأخضر ورفعت أختهما الكبرى صينية الأكل وعادت لهما بأقداح الشاي مرة أخرى حتى اختلى بهما في غرفته ، وقال : هذا قريبٌ لنا من قبيلتنا ، اسمه بودربالة . لديه ابنتان صالحتان يقاربانكم العمر ورأيَّ أن أجعلكما تقتران بهما ليصبحا هنا ، معنا ، من لحمنا ومن دمنا ...

أفرغ البوعزيزي الشاي في جوفه ثم تفوَّه معلناً رفضه الفكرة رفضاً لا رجعة عنها متعللا بأنه لا يصلح للزواج طالما أنه لم يستقر في عمل يجعله قادراً على إدارة أسرة فيما أبدى(علي) رأيا مناقضاً ، قائلاً : أنا معك يا أبي في ما تراه ، لي عملي الثابت في حراسة دار (الولاية) واتلقى مرتباً مستقراً ، وإن كان لا يفي بعيش يستحق المباهاة . تطلع في وجه بوعزيزي قبل أن يستدير لأبيه ويقول : لا تنسى أن بوعزيزي لم يدرك العشرين وأنا أسبقه بأربعة أعوام .

حين دخلت عليهم ألام أعلمها الأب بقراريهما فلم تعقب سوى بـ : إنهما اعرف بحاليهما ونحن لا اعتراض على قراريهما .. غداً نتوجه أنا وأنت إلى قريبك ونطرح الأمر .

لم تمض سبعة اشهر حتى أصبحت منوبية تعيش في بيت ينأى بها عن الريف والمزارع ، ولها زوج أقسمت أن تخدمه بكل ما تملك من جهد وتصون كيانه بما تقدر من أدوات لمقارعة عوادي الزمن بينما تأمل والدها أن تكون أختها " هادية " من نصيب البوعزيزي .

لكن " دوام الحال من المحال " قال لها القدر على لسان والدها كلما تناهى إلى مسمعه خبر حدث حصل لفلان فأودى به إلى إفلاس ، أو خبر إقصاء فلان من مركز كان يظنه دائماً فتبين مؤقتاً ، أو خبر تمادي فلان في إرهاب الناس وإخافتهم بما يمتلكه من دعم أولته له السلطة فكان السجن مكاناً زج فيه لانتفاء دوره من قبلها واكتشاف غباءه من قبله ... هذا اللادوام حصل لمنوبية التي بعثت لمريم خبر زواجها بما وبمن تمنَّت ، وأنها تعيش في فضاء مدينة بعيداً عن حياة الريف وإن كانت تحن إليه ... هذا اللادوام طعنها في الصميم عندما جعل الموت يختطف زوجها علي بعد عامين .

ومثلما كان أبوها يردد " إن بعد العسر يسراً" تقول منوبية أنها لم تعد إلى أهلها كسيرة خائبة بل تقدَّم البوعزيزي ليعرض على والديه رغبته في الزواج منها وشعوراً من أن منوبية كانت خير من صان العرض وحفظ كيان البيت .. ولم يبد الوالدان غير ارتياح لما سمعا ... وعندها استمر وجودها في سيدي بوزيد ولم تعد لقريتها .. تتذكر الآن كيف جهدت ومعها البوعزيزي في تكوين أسرة مصرين على مقارعة عاديات الزمن من اجل استمرار الحياة .. بيد أن هذا الإصرار لم يدم ، ولم تتوار قسمات القدر القبيحة ومخالبه المتحفزة أبداً لنهش هناء الإنسان وتمزيق طمأنينته ، فقد جاء المختلس احد وجوه القدر المرائي والغدّار ليهمس بشفاه التشفي في أذن البوعزيزي حَيان رحلة الأبدية ليخلف لها ولدان سالم وبعده محمد وأربعة بنات منهنَّ : سامية وليلى ليكونا إلى جانب أخيهم ، ودكان لم يكن يفي بعيش مستقر انما فقرٌ في فقر ... وهكذا وجدت

منوبية أن رغبة تحقيق حلمها في العيش في مدينة كانت له أثمان غالية . لكنها بإصرار مكين صممت على العيش مثل نمرة تذود عن أولادها موفرة لهم حياة لا تقربها غمامات الذل ولا هم يدنون من منابت الضياع .

(6)

محمد البوعزيزي يبتهج ثم .....

ذلك الصباح من بواكير أيام شهر اوغست/آب الأولى أنبئ محمد البوعزيزي بطقس عذب ونسمات تأتي من الشمال يبعثها البحر تحية له كما لو كانت بشارة خير تقول : هيا ، أخرج العربة من بيتك واذهب لجارك يحياوي الذي يشاطرك الخوف والخشية من المجهول عليك ويتمنى لو حصلت على اجازة بيع كما حصل هو عليها . خذ صناديق الخضار والفواكه التي اشتراها لك بالأمس . حمّلها بعربتك وانطلق إلى حيث مكان رزقك الذي قادك إليه حظك واستقبلك فيها جندوبي استقبال الأب الحنون . قف هناك . ومثلَ الأيام الماضية ستجد نساء الزقاق يتركن بيوتهن ويتحلقن حولك يقتنين ما يرغبن ، فرحات بوجود من يبيعهن على بعد أمتار من مطابخهن .. سيسألنك عن " ليم قارص " لم تأت به ، ولماذا لا يوجد عندك اليوم " تين شوكي " . قُل لهن إن مَن يبيعني لم يبيعوه هاتين المادتين ، قيلَ له أن البضاعة تأخرت من مصادرها لأسباب لا يعرفها .. لا تنس أن تحث الخطى ، واحذر من مشي الهوينى في الشارع العام ؛ فقد يباغتكَ القدر بما يكدِّر عليك يومك فترى نفسك أمام نظرات صابر الساخرة وشعوره انك صيد ثمين وقعت في شباكه .. ستسألك المرأة القصيرة الممتلئة ذات الرداء الأسود الموشوم بسلسلة من النقش المذهب على جانبي الصدر عن ثمرة (الجوّافة) ، تلك المحببة عندها ، لأن ضيفاً عزيزاً سيأتي زائراً لها . ذلك هو أخوها القادم من صقيع روسيا بعد غياب عشرة أعوام صرفها مقدماً لبرنامج سياحي باللغة العربية يقبل عليه المشاهدون العرب للقناة الروسية بشغف إذ يطلعهم على عوالم طبيعية وجغرافية وحياة مجتمعات وسلوك أفراد .. هي تراه كل أسبوع عبر شاشة التلفاز لكنه بعد أيام سيكون أمامها بهيئته الناهضة وطلعته المؤثرة . ستشم رائحة الأخوَّة تنبعث من كفيه وهما يحتضنان وجهها ، وستضمه إلى صدرها لتسقيه حنان أخت تكبره بما يزيد على العقد من السنين ، مفتخرة به إعلامياً شهيراً .. هذه المرأة هي التي نادت يوم وقفت أول مرة بعربتك جوار مقهى جندوبي على جاراتها من النسوة ودعتهن إلى جودة البضاعة ورخصها ؛ هي التي جلست في جلسة حميمية مع قرينات لها يرتشفن الشاي الأخضر ويقضمن الحلوى التي صنعتها أياديهن تحدثهن عن جهد اختزلنه بقدومك بعدما كنَّ يصرفن الوقت خروجاً إلى سوق الخضار متجشمات عناء السير ونفير السيارات ولغط المارة ؛ وهي أيضاً التي لم تكن تعرف أنَّ وجودك قريب من بيوتهن حتمته لحظة خوف مباغتة ولم يكن بإرادة منك ... لا تعتذر لها عن طلبها اعتذار مَن يوقن أنَّ ثمرة كهذه لا يأتي بها متعهد الفواكه والخضار . فبعد ثلاثة أيام ستجدها فاكهة تملأ صندوقاً من صناديق البيع في عربتك . يومها اذهب واطرق بابها وانده عليها : يا أمَّ يوسف ، هل انت في البيت ؟ - . سيكون إشهارك بوصول هذه الفاكهة بمثابة بشارة تزفها لها . ستمطرك بغيث الترحّم على والديك وأجدادك الموتى ، وستدعو لك بالرزق الحلال والوفير ... لا أريد أن أبوح لك أن أم يوسف هذه ستكون أول امرأة تشق ستار الصمت وتدوس على الخوف في يوم مهول لحادث سترتكبُه ، وتخرج رافعة اسمك ومزغردة بعرس الدم الذي تدخله وأنت محمولٌ على أكفٍّ ريشية لملائكةٍ تفتخر أنها تحملك إلى عُلييّن .. لا أريد أن أقول لك بأنها هي التي ستقود أول تظاهرة نسوية في سيدي بوزيد لاستعادة حقك الذي سلبه الجناة وتطالب بالقصاص من الذين تسببوا في انهيارك ، وعتموا نهارك ، وسرقوا أحلامك العذاب ، وزرعوا الكوابيس بدلها في دروب كراك .

سيبتهج جندوبي حالما يلمح مُقدِّمة العربة تلج فم الزقاق ، وسينشرح قلبه لرؤيتك تتوجه صوبه بملامح لا تشي برعب يلاحقك أو هلع يتفجر من عينيك . سيغدو قدومك ومزاجك اليومي يهمه فيستقبلك بترحاب صميمي .

- أهلاً محمد ، كيف الحال !

- يعيشك .

- واش جبت معاك اليوم ؟ .. ربات البيوت بانتظارك . كل لحظة تدلي واحدة برأسها تتطلع لحضورك ؟

نعم سيغدو قدومك من باب الانتظار اليومي له . ومعه نساء الزقاق كذلك .. سيدعو كل يوم لك مع كل صلاة يؤديها ان يستمر حضورك ؛ فهو يرى فيك الخلق القويم والقلب الصادق .. وجودُك قريباً منه يزرع في قلبه طمأنينة يتمناها لكل شاب دخل ميدان الحياة بشعور العيش المبني على جهد يؤديه وخدمة يقدمها للناس .. يتذكَّر اباك بمودة وطلب رحمة من الله ان يلهمه جنان الخلد فقد عاش قانعاً بما يجود به خالقه ، رافضاً لمغريات الدنيا التي تأتي على غيمة الغواية والشيطنة والمجون . يتذكَّر جندوبي كيف أنَّ قريباً لأبيك بُعث من طرابلس ليتولى رئاسة حزب ((التجمع الدستوري الديمقراطي)) حزب السلطة في ولاية سيدي بوزيد قد دعاه لينظم إلى صفوفه ويكون عضواً بين اعضائه ، هامساً في اذنه : سأرفعك إلى أعلى مراتب الغنى فلا فقراً ترى ولا جوعاً يصاحبك . سأبني مستقبلاً زاهراً لأولادك ، والحياة فرص إنْ لم تستفد منها في وقتها فرَّت ولن تعود .. يتذكَّر أنَّ أباك غيَّب وجهه عن ذلك القريب .. لم يرفع رأسه لكف الاغراء المهفهفة له من بعيد ولم يلب دعوة القريب .

- كابتشينو هذا اليوم على حسابي . اشربها وعد لعربتك .. ارى ام يوسف تومئ لجاراتها .

يقولها جندوبي ويروح ينشغل في اعداد رغبة الجلاس بينما يروح محمد البوعزيزي يلبّي طلبات النسوة ويجيب على استفهاماتهن في اسئلة لا تتعدى ما تفرمه السكاكين وتحتويه القدور والصحون . تغيب عن دواخله غربان الخوف وينهمك في عمل لا يتقن غيره ؛ ففي خضم العمل وتوالي سكب الجهد تنفض الروح ادران الهم اليومي ويغدو فضاءُ الذاكرة رحباً لاستقبال الصور البهية الناصعة للوجود ..

(7)

عائشة تقول عملها

من معهد الفنون في صفاقس تخرجتُ ، بعد دراسة استمرت ثلاثة أعوام .. أعوام كان فيها شوقي للفن من مطارحات الوله . تعلّمتُ خلالها صناعة الفخار وتزيينه . صناعة تمنيتها يوماً هواية تلبّي نزوعي الطفولي في خلق الأشياء بمخيلة هادرة متأججة يوم كنا نستحم بمياه البراءة فاستحالت بعد تلك الأعوام حرفةً ، بمعيتها شهادة إثبات تحمل درجة (امتياز) واعتراف تفشيه العيون وتهتف بفن لا يتقنه ويبدع فيه سوى الموهوبون .. فن كهذا كان يجتذب السياح القادمين إلى بلدنا بلهفة غامرة بالدهشة طلباً للمتعة واغتراف دفء الشمس .. تستقبلهم تونس العاصمة بقوامها الجميل المتمايس عند البحر . تومىء بأكف من تحيات عِذاب ، وتفرد ذراعيها احتفاءً على إيقاع غنج مثير ، واعدةً إياهم بمدن وأرياف تمنحهم هناءة السياحة والتجول في حلهم وترحالهم ... جماعات أو فرادى يلفّون الدروب ويتملّون تطلعاً في الأزقة .. يبحثون عن كل ما يبعث إليهم اشذاء المتعة لأشياء لم يروها وعادات لم يألفوها .. الزوج الشيخ يضع كفاً بكف زوجته العجوز التي شاركته عمراً من العمل والجهد والعاطفة المشتركة .. الشبان أو الشابات ينثرون الابتسامات لكل مَن تطلع إليهم أو أكثر التحديق فيهم . ابتسامات كما لو كانت رسائل تعرض مودة وحميمية واحترام يرومونه متبادلاً .. وقفوا مرةً عند معرض دائم يقيمه معهدنا لنتاجاتنا في فن النحت . بهرتهم لمسات أصابعنا وهي تقدم لهم أعمالاً تخيَّلوها تعيدهم إلى مجد أجدادهم الرومان ومهاراتهم الفريدة في بناء المدن من الحجر وتزيينها بمنحوتات تخلب الألباب ... دائماً يعزون فننا وحرفتنا المتميزة ، وإن لم يبوحوا علانية ، إلى إرث أجدادهم الممتد على ضفاف سواحل البحر المتوسط الجنوبية وتعلمُنا خلقَهم المُتقَن ، وتوارثُنا ذوقَهم المُبهِر مع أنهم لا ينكرون خبرة جاءت من الشرق العربي في القرون الأولى حيث بغداد تفخر بنتاجها المتوارث من صناعة الأجداد السومريين والبابليين والآشوريين ، بُناة الحضارة الإنسانية المُبكِّرة ، والزمن العثماني الذي امتد أربعمائة عام ينشر جناحيه على أرضنا العربية ناقلاً خبرات شعبه ومفردات حياتهم اليومية .

نعم .. تنهض تونس مع إيقاع الفجر الهادىء فتبعث برسائل الدعوة للنسيم أن يصاحبها ، والشمس تخرج إليها من بين فراشها الوثير في الأفق الشرقي ويروح الجميع ، الفجر والنسيم والشمس ، يطرقون أبواب الفلاحين الراحلين على أسرَّةٍ منحتهم نوماً عميقاً تسلل إلى أجسادهم التعبة من نهار عمل طويل في المزارع ، ورحلة واجب فرضه الله عليهم . ينقرون على نوافذ العمال كي ينهضوا فأمامهم مسار عمل وآلات صامتة تنتظر

أكفهم ليكون ثمة إنتاج يكبر ، ووطن يفخر .. يوشوشون في مسامع أطفال حلموا بصباح جديد يقول لهم هلمّوا لتشربوا غنائي بدروس جديدة يلقيها عليكم مدرِّس يرى فيكم صورة الوطن المنبثقة من سحابات الغيب المحلِّقة على أكف النور .. يأخذون بيد عجوز قدَّم للوطن العمرَ عاماً فأعواماً ، نضالا ضد فرنسيين مستعمرين ، وجهداً لنداء ربّاني يتهادى بين طيات الأثير ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون)) وأياماً كان العيش فيها كفافاً ، والزمن عسيراً ؛ لكنَّ الصبرَ جبلٌ ، والإصرارَ مكين .

تنهض تونس لتمرر أصابعها الريشية على خدودنا المسترخية على وسائد الحلم الجميل . تدعونا للنهوض فالعملُ سيّد الوقت ، والتعلم وسيلة مثلى لإدراك هناءة العيش في قادمات الأيام ، والفن موسيقى السماء تقطرها أنغام سحر في بوتقة النفوس العذاب . ومعهد صفاقس معمل لصناعة الجمال تتوزع فيه الأقسام : الفنون التشكيلية والعلوم الموسيقية ، والفنون التطبيقية ، وقسم المسرح ، وقسم التصميم والديكور ، وقسم النحت . والعاملون طلبة من الجنسين اقبلوا على الحياة العملية ليتخرجوا مؤهَّلين للعمل الجاد والقيادة المرجوّة يلقي عليهم أساتذةً بزّوا في الفنون بزاً وتحركوا ، على ارض الواقع وصفحات التاريخ ، قامات عالية سنفخر يوماً أننا تتلمذنا على أيدي مواهبهم الكبرى وطاقاتهم الهائلة .

كان المعهد حياةً مصغَّرة لجيل يسعى لأن يمثلها تمثيلاً مبهراً .. قاعات دراسية تستحيل ورش عمل فني يتبارى الجميع لإنتاج عسل الخلق .. عسل ملوكي يراد له أن يغذي مَن حضر جائعاً لتناول نتاج شباب سعياً لسمعة يحفرها أزميل التاريخ على جبهته فالوطن يستحق تفجير الطاقات وتوجيه المواهب وتكريس الوقت من اجل بناء تحترمه الإنسانية وتبجله ... كان لطلبة المعهد هدف واحد هو تكريس الجمال التونسي ليتدفق مع شلال الجمال الإنساني في هذا الكون الذي لا يحب غير العاملين المتفانين لأوطانهم مُقدِّسين العمل وموظِّفين الجهد . لذا كل مَن يدخل بناية المعهد لابد أن تجذبه الأقسام قسماً فقسما . مسحوراً يسير على هدي عالم من الموسيقى تخلقه آلات تحملها اكف وتعزف عليها أصابع أو تنفر أفواه أو تلك التي يُجلَس أمامها لتنتج خلقاً ينقل الروح الزائرة القادمة للتطلع والاستماع على سحابة من جذل ومتعة وانبهار مشوبة بحزن دفين ، فليست ثمة جمال يبهر دون أن يكون مشوباً بالحزن أو الألم أو الحنين ، هكذا كان بودلير يرى في الجمال ... هناك سيجد شوبان في قاعة دراسية يجلس على كرسيٍّ مع زمرة تلامذة سيؤدون سوناتاته بطريقة (الصولفيج) يجسدها لهم أستاذٌ متخصص فيبتهج أنَّ له محبين في قارة أفريقيا يستعذبون ألحانه الأوربية ويعزفون روحه التي سكبها يوماً على سلالم من خمسة خطوط ... وفي مكان آخر يدخل موزارت بلا استئذان فيجد نفسه في قاعة مستطيلة ينتشر على مسرحها مجموعة ممثلين بملابس الدراسة ، وفي مكان الكونشرتو يجلس العازفون يدوزنون آلاتهم ويهيئونها من اجل أداء بروفة مشتركة كـبحثٍ يوسم تخرجهم ويجعلهم على أبواب تسلم الوظائف ... يبتسم لإبداع أنجزه لبلده النمسا فاستحال بفعل الأرواح الرهيفة إرثاً تجاوز الجغرافية المحلية وغدا عالمياً... وإذ يشرع العازفون بإشارة من المايسترو يعزفون الكونشرتو ويبتدىء الممثلون يؤدون الأدوار على خشبة المسرح يروح هو يتهادى على انسيابية أنغامه عائماً على زورق البهجة والانبهار ، يتلقى مطر الرحيل تسفحه عيون العازفين الهائمين وجمال أداء الممثلين ... خروجاً من قاعة الموسيقى دخولاً إلى رواق توشّيه عتمة توصل إلى باب عريض كتب على لوح صغير ومستطيل في جانبه الأيمن (قاعة الفنون التشكيلية) . تنتصب المربعات أو المستطيلات القماشية على قواعدها ذي الأرجل المثلثة وتتحرك الفرش بمختلف الأحجام والرؤوس الريشية تمزج الألوان وتخلطها ثم ترفعها لتخلق عوالم فنية تعكس براعة الفنانين الطلبة وأذواقهم المندلقة من دوارق مواهبهم .. هناك تتجول أرواح من جسَّد للإنسانية جمالَها وقبحَها ورسموا ما بصم الله من خلقٍ على أرضهِ .. هناك يظهر غوغان بانطباعيته الجديدة التي خلف بها انطباعية مونيه ورفاقه يلتقي بجورج سورا فيعلمه الأخير بأسلوبه المنقط في انطباعيته المميزة . يتحركان صوب فان كوخ ليطَّلِعا على الألوان .. يعطي غوغان رؤيته التي تشبه رؤية كوخ باستخدام اللون لدلالته الذاتية العاطفية وليس لمدلولات زخرفية بحتة .. يتقدم لطالب يرسم منظرا طبيعيا فيوجهه : ((كيف ترى هذه الأشجار ؟ إنها صفر . حسناً ضع الأصفر . وذاك الظل يميل إلى الزرقة ، إذن فعالجه باللازوردي . وتلك الأوراق الحمر ؟ استعمل القرمزي .))*.. وفي ركن آخر من ورشة الرسم يتحرك دالي منتقلاً من محاولة رسم لطالب عشق فنه إلى آخر وجد في السريالية خير معبر عن مكنونات النفس وبوح اللاوعي . يشدُّ على يدِ ذلك ، ويطلب من الآخر أن لا يقلد فيما يقف براك أمام طالب يحسن استخدام فن الكولاج .. يدنو منه ويهمس : " أنا أول من ابتكر هذا النوع من الفن بينما يصرُّ

الكثيرون على انه بيكاسو ، مع أن بيكاسو أعلن دهشته لابتكاري يوم شاهد ذلك في مرسمي ، وراح سريعاً يقلّده .. والغريب انه لم يقر يوماً على انه هو الذي تأثر بي وقلَّدني . التزمَ الصمت كما لو انه حصد غباء أولئك الغارقين في بحيرة غوايته . "

- **كلام ألقاه غوغان على طالب فن بعد أسابيع من رسم لوحته واسمه بول سيرسيير .. الفن الأوربي الحديث ، الآن باونيس ، ت فخري خليل ، دار المأمون بغداد ، 1990 ، ص 88**

وفي رواق آخر بإمكان القادم تقبّل صوت الهدوء يدعوه إلى الدخول إلى قاعة مربعة يحمل بابها لوح مستطيل يشبه لوح قاعة الفنون التشكيلية هي(قاعة النحت) على إيقاع انهماك طلبة يرتدون الصدريات وقد راحت اكفهم تعجن الطين شبه الطري . تكتّله ثم تعجنه ، ثم تكتّله . ومن جديد تعجنه بناء على توجيه أستاذهم الذي يقف وسط القاعة يخاطب الجميع مشيراً إلى: " إن عجن الطين يعتبر مرحلة مهمة من مراحل تقبله للوضع الذي نريد تكوينه والشكل الذي نبغي إخراجه " . انتقالاً إلى مرحلة التشريح في الحصة التالية حيث يتولَى تدريسها أستاذ متخصص تدرَّبَ على أحفاد مايكل انجلوا ومريديه . أولئك الذين لم يكونوا يصرفون الوقت هباءً ، ويعدونه خسارة إنْ لم يكن الذين أمامهم طلبة موهوبون . في تلك القاعة كنت أنا واحدة من الطلبة وكان أستاذ مادة التشريح يخاطبنا بحماسة الأب وحرص المربي : الفن كالسحر ؛ يعشقُه أناس فيقبلون عليه شوقاً ولهفة وانغمار ويرفضه أناس فينأون عنه هروباً ونفوراً .. فيه من يرى وجه الخالق مجسَّداً في لمسةٍ تصنعها يدُ الإنسان ، وفيه من يحسبه تجاوزاً على ذات الإله أو ملهاة تنسينا وجوده .. وكثيراً ما أكَّد أن إتقان فعل التشريح يعني إقراراً صريحاً بتميز الفنان واعترافاً صارخاً بموهبته .. مضيفاً كلاماً نعده من باب التشجيع ومنح الثقة لنا : " وانتم بوجودكم في هذا المكان (ويعني ورشة العمل) إنما تثبتون جهدَكم الخلّاق ومهارتَكم الفاعلة جاعلين الآخرين يقرون بإبداعكم ، وحذقِكم ، وتميزِكم ." .

لم نكن نعلم أننا بتخرجنا سنعيش البطالة والكسل وضمور المواهب وشحوب الآمال .. اصرف ، ويصرف الجموع من أمثالي، أعواماً من المراجعة والبحث في العاصمة والولايات عن وظيفة تضمني إلى صفوف العمل وتشيع داخلي شعور أنني مواطنة تخدم بلداً ولدت على أديمه ومنحني هواءه وماءه ودفأه لكن دون جدوى.. مواعيد وانتظارات . ولولا قدوم سي عزيز من ايطاليا مُحمَّلاً بتصميم افتتاح ورشة عصرية لصناعة الفخار في سيدي بوزيد بناء على اقتراح خالي الذي كان يتراسل معه في أن ارض سيدي بوزيد مهيأة لهذه الصناعة وبنجاح وموافقته على الحضور وتنفيذ المشروع لما حصلت على عمل ، ولما حصلت الفتيات الأربع معها ، ولا النساء الثلاث اللاتي انضممنَ لاحقاً متحمّلات عناء المجيء من (نابل) ، مملكة الخزف بلا منازع ، والعمل في سيدي بوزيد بعدما ضعف في تلك المدينة البحرية الفخورة بتاريخها العريق في صناعة الفخار والخزف وصار المستورَد من بلدان بعيدة يزيح إنتاجنا المحلي ويعمل على تهشيم أصالتنا التي شُيِّدت بدماء القلوب وذاكرات الأجداد .

(8)

قادري يكتب محمد البوعزيزي صديقاً

كثيراً يوجّه قادري امتنانه للذين وظّفوا العقل والجهد لخدمة الانسانية وإن كان بعض من المقاصد اقتصادياً نفعياً .. وكثيراً ما تضرع لله أن يدخل (توماس أديسُن) الجنة ويضعه في أعلى تخوم الفردوس لأنه أنار الوهاد وبدد عتمة الانسانية مثلما تضرع بنفس القدر للأخوين (رايت) اللذين حلَّقا بطائرتهما نأياً عن الارض ففتحا السفر الجوي محققين الانتقال السهل بعد أن كان الكم الهائل من ذلك السفر رحلات غامضة اقرب إلى المتاهات تصاحبها المشاق والتعب وربما الممات دون ادراك الغرض .. وحين يتذكر (وليم مورتون) مخترع المخدِّر ينحني راكعاً أمام بهاء اسمه النيّر لأنه انهى آلام الجرحى في المعارك واولئك الذين تُجرى لهم عمليات تتبارى

فيها المشارط وتنز الدماء إذ كانوا يصرخون لحظات اجرائها ويئنون دونما شفيع ينهي أو يضئل آلامهم . ولا ينسى أن يُشرِك (الكسندر فليمنج) في تضرعه ، مجاهِراً أن هذا الرجل انقذ البشرية من تفشي الفايروسات والجراثيم في اجساد كانت تداهمها الجيوش اللامرئية مُنتجاً عقاراً حيوياً مضاداً اطلق عليه (البنسلين) .. وها هو يرفع رأسه إلى السماء مردداً : " جنتك يا رب لمن صنع هذا . " ويشير الى اللاتوب الذي شرع يسحبه من الحقيبة ويرفع الغطاء ، ضاغطاً على زر الاشتغال ؛ مستقبلاً ابتسامة شاكيرا ، ثم داخلاً على الملفات ، وفاتحاً ملف اليوميات . عندها يدوّن عنوان :

سِـــفر الفتـــــوة

سيدي بوزيد في ساعة ضحى . ينطلق جرس الفرصة بعد الدرس الثالث فتضحك الشمس وهي ترانا نندفع من بطون الفصول تنثر كركراتها اشعاعات ذهبية تُنبئ بانتهاء الشتاء وتترك النسمات تتماوج امام وجوهِنا .. وجوهنا صفراء وشفاهنا متيبسة بينما قاماتنا الناحلة يسترها ما جهد الاهل في شرائه من ملابس .. بنطلونات من القماش المصري الرخيص وقمصاننا من انتاج محلات خياطة لخياطين سودانيين تخصصوا في عملها اما البلوزات فتأتي مستوردة من المغرب تباع بأسعار يفضلها اهلنا على البضاعة الفرنسية الغالية الثمن . ولحسن حظ اهلنا اننا نفضل ارتداء الاحذية الرياضية " ترَين شوز " فهي التي تليق بنا كصبية نزقين عبثين نمتهن حركة دائبة لا تتوقف الا على فراش المساء عندما يهدُّنا التعب ويُنضِب رصيدَ شقاوتنا .

عند المقصف ، وحيث كنت اقضم سندويشة محشوة بالتونة والهريسة وقفَ أمامي فتى كان منهمكاً في قضم ما بيده من سندويشة في داخلها جبن ابيض . كان ابتاع علبة (سفن أب) يكرع جرعة منها بعد كل قضمة ليرطب فمه ويدفع اللقمة إلى معدته بارتياح .

كنتُ أبصره مراراً ، بملامح وديعة وسمرة ممزوجة بصفرة تقربه من ملامحنا نحن ابناء سيدي بوزيد . اعتاد ارتداء بلوزه زرقاء مخططة بالأبيض ، ظل يرتديها لعامين دراسيين ، تستر جزءه العلوي هابطة على بنطلون جينز ازرق فاتح ، ينتهي بحذاء مطاطي اسود يشدهما خيطان مقلَّمان بالأسود والابيض .. يدخل إلى المدرسة وحيداً ويخرج وحيداً . يجهد في جعل ملابسه تبقى نظيفة ومرتبة . لا يفضل اللعب كثيراً لكنه يحتفظ بحيوية تبعد الاعتقاد أنَّ مرضاً يسكن جسده النحيف .

دنوت منه أسأله :

- بأي فصلٍ انت ؟

رسم ابتسامه عريضة ؛ وبروح النكتة رد :

- بفصل الصيف .

تلك كانت بداية التعرف عليه .. عرفت ان اسمه في المدرسة (طارق) ، لكنه في البيت ومع الاقران ينادونه (محمد) . اسبقه بمرحلة دراسية ويسبقني بروح الدعابة في مواجهة المواقف .

تلك كانت ايامنا الاولى لذلك العام الدراسي .. أيام تواصلت فجعلت صحبتي له لا تنقطع .

صباحاً نلتقي في المدرسة .. وفي فرص ما بين الدروس ننشغل بالتحدث عما جرى لنا وما شاهدناه بالأمس وما حصل لغيرنا .. ومع انتهاء الدوام نخرج سوية ، متخذين شارع الجمهورية لمسافة تزيد على ثلاثمائة متر ؛ هي اجمل لحظات لقائنا . بعدها أنا اواصل طريقي عند تقاطع شارع بورقيبة ، وهو يستدير عائداً إلى بيته .

حدثني مرةً عن هوايته في جمع الحمام(حمام استبدله حين غدا شاباً بزوج كناري يودعانه بسيل من الزغاريد حين يخرج للبيع ويستقبلانه بمثلها حين يعود ، وعرفت انه يملك سرباً بعشرة اجسام مغزلية تزدهي بالوان لميعة فاتنة .. دعاني لزيارة بيتهم ومشاهدتها ، ووعدني أن سيهدي لي زوجاً منها فلديه حمامتان تحتهما بيض اقترب من موعد تفقيسهما .).

عطلة نصف السنة من ذلك العام استحالت ايامها الخمسة عشرة حقبة وصال دائم وصحبة ستستمر وتتوثق مع توالي الاعوام ؛ حتى بعد افتراقنا في الدراسة حيث انقطع هو بين ملازمته لدكان ابيه في فترات مختلفة وعمله اجيراً عند الشيخ وادي يبيع الخضار والفواكه .. منه تعلم طريقة عرض البضاعة والتعامل مع الزبائن ، ومنه كرّس سنوات شبابه ، لاحقاً ، للبيع في عربة تجوب الطرقات . يتجول بها على هدي مهنة لا تغني ولا تسمن ؛ فقط تواصل عمل ماكنة العيش بكرامة وكبرياء يصاحبها طحن اعوام العمر وضياع الآمال .. استعيد ملامح جدي لأمي تتشح بالاسى يوم حدثنا عن ابن عمٍ له التهمت حياته سنوات الجهد الشاق والعمل المضني : كان فرحاً ، يا اولادي يقول ، عندما حمل على ظهره اكياس التمر المجفف من مخزن غلال يديره التاجر عبد الله المسدي الذي جاء قبل عشرين عاماً من العاصمة ليسكن المدينة ويجني ارباحاً في تجارة بيع التمور وتصدير اصواف الاغنام . مبتهجاً ينقل كيساً بعد كيس إلى حضن سيارة الشحن الكبيرة ليتلقى نصف دينار على جهده . عاد به فرحاً إلى أمه يعطيها ربع دينار ويخرج ذلك اليوم بربع دينار يملأ جيبه من عرق جبينه .. ذلك شجعه ان يتخذ من باب المخزن مكاناً للجلوس يومياً علَّ التاجر عبد الله يشير عليه لحمل بضاعة من هنا ونقلها إلى هناك .. وفي خضم العمل والفرح بتلقي الاجور على زهدها وقلتها مر العمر واستمر حمالاً اجيراً ، . تخطى الفتوة وهو اجير ، وتجاوز الشباب وهو أجير ، وخلف الكهولة وهو أجير . ولم يصحو من تهافت الاعوام الا على اعتاب شيخوخة حملت معها التهاب مفاصل حاد وعجز في السير ، ثم قعيداً لما تبقى من العمر .

لبوعزيزي محل حدادة ورثها عن ابيه . وكان على محمد ان يتعلم من ابيه ويواصل العمل بعد وفاة الاب* لكنه لم يرغب ؛ مُنطلقاً من رؤية أمه منوبية وهو يسمعها مراراً تردد : ان لا فائدة ترجى من محل لا يسد كلفة ايجاره . لذلك اختار محمد العمل كبائع خضار ، ودخل معترك الحياة بعربةٍ ترافقه في الشوارع ، وبين الازقة والدروب .

- **في ليبيا صرف البوعزيزي عشرة اعوام .يأتي لزيارة عائلته مرتين في السنة . وكانت آخر زيارة له أفصحت عن جسم ناحل ومعلول ، وصفرة صارت تتفاقم حتى آل به الحال ممدداً في الفراش لشهر واحد فقط ، لفظ بعده الانفاس جراء لوكيميا حادة لم ترحمه كي يعيش ويرى الابناء يكبرون فيسعد بينهم .**

أذكر مرةً في تلك الفتوة والبراءة باح : أتدري يا قادري ان اسعد وقتٍ اعيشه هو ذلك الذي ينصرف مع حماماتي .. ما ان يحلقن بعد ان يشبعن من البذور التي انثرها حتى اتمنى لو امتلكت معهن جناحين لأطير معهن واغريهن للذهاب ابعد من حلقتهن المعتادة !

كان محمد البوعزيزي حالماً بامتياز . يتحدث آن نجلس على دكة باب المدرسة حيث نأتي مبكرين قبل قدوم الطلبة صباحاً عن رغبته في ان يطير . يحسد اولئك الطيارين الذين يحلقون بطائراتهم في السماء ، ويتساءل كيف يشعرون وهم يتطلعون الى الارض من فوق ، وماذا يساورهم وهم يحدقون الى الاعلى ؟ .. ماذا يشاهدون هناك ؟ وهل بإمكانهم الوصول الى اول السماوات السبع ؟

كانت احلامه كثيرة ووفيرة ؛ كُبحت عندما اقتضى الحال ترك المدرسة ... صرت اشاهده عاملاً اجيراً عند هذا وذاك لأيام معدودات حتى شاهدته يوماً وهو يدفع عربة خضار يجوب بها الشوارع ...

نلتقي لقاءات سريعة .. يسعد لرؤيتي وابتهج للقائه ..

وهكذا ! ..

خطفنا الزمن ؛ وتهافتت الاعوام ..

(9)

محمد لا يخشى الاقدار .. محمد يخاف البشر

لا يخاف محمد البوعزيزي من الاقدار تأتي بها كفُّ السماء ، ولا يتهجس عواصفَ الغيب تنثر في عينيه غبارَ العلل . خوفه وتهجسه وخشيته وعذاباته تأتي من أخيه الانسان ؛ من العيون الذئبية الملاحقة له أنى سار وأين توقَّف ؛ من الضمائر التي بيعت للشيطان وظل اصحابها يعيشون بسادية غارقة في اللذة على صرخات المتألمين وأنين المحرومين ؛ من فخاخ تُنصب لإهدار عزِّ الفقراء سعياً لديمومة الاستحواذ عليهم وجعلهم لا يرفعون النظر لأعلى من تناول رغيف مغموس بعرق الجهد ودم الكرامة . لذلك كان يحسب أنَّ أعذبَ كلام تلقاه رداً من رجل تقي القى عليه السلام مرةً ((الله يكفيك شر ابن ادم ، يا ولدي)) . ظل هذا الكلام يتردد في مسمعه ويستعيده كلما أقبلت عليه الخشية ودنا منه الخوف . فليس ثمة فعلٌ أشد عنفاً وأقسى من عنف ابن آدم وقسوته على أخيه . وليست ثمة ذكرى تبقى متوهجة بجمرها ولظاها في صميم الذاكرة كذكرى غدر الانسان بأخيه الانسان .. كل جرح عضوي سيندمل إلا جرح الذات الذي يتسبب فيه الانسان طعناً في أعماق أخيه ... دعاء الرجل له بكف شر ابن آدم عنه لم يأت اعتباطاً . لابد أنه طعن يوماً من قبل أحد ابناء آدم المقربين منه أو الملتصقين به فصار يردد هذا الكلمات كلما رد التحية على انسان يكن له المودة ويتمنى له الخير . لقد سمع من قادري كثيراً عبارة ((حتى انت يا بروتس ؟)) ، وهي مقولة اوضحها قادري له على انها من كاتب مسرحي انكليزي اسمه شكسبير ، رددًها على لسان الامبراطور يوليوس قيصر لصديقه المقرب بروتس .. يقولها دعماً لحادثة تجسد الغدر البشري رغم الثقة المطلقة التي وضعها المغدور بأخيه الغادر . يتمتم محمد البوعزيزي : كيف يغدر الانسان بأخ له في الانسانية ، تربطهما مشاعر وعواطف مشتركة ، وقد تتعدى إلى القرابة أو الجيرة ؟!."

لقد توجَّس محمد البوعزيزي خشيةً من شخص غريب جلس يشرب قهوةً وعيناه تتابعانه بريبة .. توجَّس من نهوضه السريع واندفاعه خارج الزقاق كما لو انه رأى لُقيا مفقودة سينال عن اعلان اكتشافه لها مكافأة .. هجس شيئاً سلبياً سيحصل . لذلك كل ما فعله هو ان أدار العربة صوب مخرج الزقاق واندفع . يتمنى لو امتلك جناحين ليحمل عربته ويطيران صوب بيته قبل ان يحصل له مكروه .

اندهش جندوبي لمشهد محمد البوعزيزي يبتعد دون ان ينهي بيع بضاعته ودون ان يودعه كما اعتاد حين يغادر . صاح ينادي عليه ليسأله ، لكنه انحرف خارجاً إلى الشارع العام من غير انْ يعرف انَّ الشخص الغريب عاد بعد وقت قصير ومعه احد مراقبي البلدية . لحظتها ادرك جندوبي سرَّ فرار المسكين مستدعياً غيوم التأسي لتمطر حزناً على شاب يُحارَب في رزقه وانسانية تُمحق بلا أدنى رحمة.

*****

ظني لم يخطئ ؛ وما ابصرته زرع في قلبي يقين ان ذلك المتلصص لم يمسحني والعربة بنظرات بريئة . هو من اعوان الامن . وكان حدسي يصر على اني سأكون هدفاً يوم غد إن تأبطت البلادة وجئت بالعربة .. سأغيب ليومين او ثلاثة قطعاً لدابر الشك في نفوسهم .

وكان ان توقفت عن البيع لخمسة ايام .. عصر اليوم الثالث من التوقّف طرقت الباب .. مواربتها اعلمتني بجندوبي يبتسم وهو يلقي التحية ، مفضياً أنني احسنت صنعاً بعدم مجيئي، فقد حضر مراقب البلدية في اليومين الماضيين . جلس في المقهى ، وبعدما كرع كوب القهوة سألني :

- لقد جاء من يخبرنا أنَّ ابن البوعزيزي يأتي للزقاق يومياً بعربته . فعلتُه لا يجب ان تمرَّ دون عقاب .. لقد اتعبنا هذا الشاب .

لقد كذِبتُ عليه من بابِ الكذب الابيض لصالحك ، يا محمد . واجبتُه أنَّ الصدفة جاءت بك قبل يومين ، وتوقَّفت هنا ليوم واحد فقط ولم تكرّر المجيء.. لم أقل له انك هنا منذ اسبوعين . قلت : امنحوه اجازة بيع ؛ اريحوا انفسكم وأريحوه .. سيأتيكم الى مبنى الولاية*، فساعدوه .

---

* يرى محمد البوعزيزي بناية الولاية بواجهتها ألبيضاء فيتمنى باطنها كذلك . يبصر الناس داخلين خارجين ، يحملون على كواهلهم شقاء الأعوام وفي النفوس مشاعر التذمر . يراجع في ذاكرته أقسامها والموظفين بمكاتب لا تشي بغير تعالي يواجهون به ممن لهم مراجعة يراد منها انجاز طلب وردودهم الموشاة بالجفاء . يلمح حاج خليفة يرتقي درجات المدخل بقامته القصيرة ، وسرواله الترابي ، وقميصه الصحراوي ، وطاقيته التي حاكتها زوجته لتخفي صلعاً أبعده عن زمن الشباب واعلمه بالكهولة القاهرة ممسكاً بملف ازرق يهم بالدخول فيعرف أن ذلك الملف يحوي أوراقاً تجمعت وتراكمت حتى غدت ملفّاً سميكاً كان ابتدأ به قبل اشهر للحصول على موافقة بفتح (كوشة) بعدما جمع مبلغاً يكفي لبنائها وفق المواصفات المطلوبة وراسل شركة تزوده بكل متعلقات الفرن وعجن الدقيق وتخمير العجين مثلما حصل على كلمة من مجموعة عمال جزائريين تعهدوا له في العمل عنده كخبازين وعجانين وبائعين ، مُحمَلين بخبرة عشرة أعوام في هذا المضمار ... وفي اللحظة التي غاب فيها حاج خليفة خرج المهدي بن عيسى يخطو بقدمين يتعثران وقامة طويلة كان قادري كثيراً ما علَّق : " لو كان العم المهدي في شبابه في امريكا لكان لاعب كرة سلة لا يضاهى ولكان اغلى لاعب يتقاضى في عقد يبرم معه ونادي ينتمي إليه . لن يتركه المدرب فِل جاكسون مكتشف المواهب العتيد ، لكن يا لحظِّهِ العاثر يعيش في هذه البلاد ." . لم يكن تعليق قادري من باب التحسر . فالحق يقال ، أن الكثيرين يأتون إلى الحياة بمواصفات متميزة وزمن مهيأ لتألقهم لكنهم يولدون في المكان الخطأ . حيث تؤَد المواهب وتُمحَق الطاقات . ومن يطالع المهدي بن عيسى لابد سيساوره شعور أن هذا الرجل فعلا كان يمكن ان يكون رياضياً مبهراً سواء في لعبة كرة السلة كما تمنّاه قادري او في لعبة كرة الطائرة التي تقتضي لاعبين بقامات طويلة تتعامل مع الشبكة بسيطرة واستحواذ . طويل يطوح في الهواء ويضرب باستمكان الكرة في قلب ساحة الخصم .

تمنّى محمد البوعزيزي من الله ان لا يدفعه لدخول هذا المبنى مثلما تمنّى ان لا يدخل مُجبراً مبنى البلدية . ففي المبنى الاول ما زال يتذكر كيف كان يمسك بخنصر ابيه طفلاً فيبصر أباه يدخل على رئيس شعبة الاسكان مرتجفاً خائفاً ، متوسلاً من اجل الحصول على قطعة ارض يبني عليها بيتا للعائلة . يندلق التذلل من عيني الاب ويتهاوى الكبرياء من الجبهة .. تنزلق كفه من خنصر ابيه المتعرق فلا يرجو للأب ان يبدو هكذا حتى لو وعد بأرض ليست لها حدود بينما الموظف ينهره مدعياً ان النقاط التي يجمعها لا تبرر له الحصول على الارض.. (أنه يشاهد ذلك الموظفِ القميء هذه الايام ينوء بخطوه متقاعداً دميماً) . وفي المبنى الثاني ، مبنى البلدية لطالما طُردَ (هو) ونهر من قبل شادية ورفضت كل تضرعاته واسترحاماته للحصول على اجازة بيع الخضار بعربته .

في اليوم الخامس لم يحضر المراقب ما دفع جندوبي إلى معاودة طرق الباب طالباً ان أجيء بعربتي فنساء الزقاق صرن يلححن عليه بالسؤال عن عدم حضوري ، وانهن بتن لا يرغبن بالخروج إلى سوق الخضار ، مفضلات الاقرب على القريب .

الخمسة ايام الماضية ؛ ايام البطالة الاجبارية صرفتها مع قادري يضمنا المقهى :

صباحاً ؛ أذهب اليه في وقت يكون قد مرَّت من امامه عائشة والتقط قوامها يضرب بقدمين واثقتين على رصيف الشارع ، وتملَّى الملابس التي ترتديها ذلك اليوم كي يشبع فضوله ويدون رؤاه .. أبصره ينقر بأصابعه على ازرار الكيبورد فلا يكلّمني ، فأعرف انه يسكب عصارة الروح على الصفحات البيض المضاءة امامه . يقول لي حال الانتهاء خذ اقرأ ما كتبت عنها . فأقول : لا اريد اقتحام قلعة اسرارك، وليس من باب اللياقة ان اطّلع على تفاصيل فتاة تريدها قرينة لك واماً لأولادك .

في المساء نصرف الساعات الاولى بأحاديث شتى تفرضها البطالة ويستدعيها قتل الوقت . يقول قادري انه سيسافر إلى تونس العاصمة لتقديم اوراقه علَّ الصدفة تمنحه صك العمل فيخدم في مكان يليق بشهادته الجامعية واهتماماته العلمية في استخدام الحاسوب وبرامجه الدقيقة .. اتمنى له الحصول على وظيفة واحثّه على عدم التقاعس والبقاء اسير المقهى . أدسُّ كفّي في جيبي واقسّم الثلاثين ديناراً بيني وبينه ..

احدى المساءات نهض قادري ليستقبل الجزيري الذي قدِم بطلَّته المهيبة نحونا فتبعتُ قادري في النهوض استقبالاً .. لحظتها كنّا نرتشف الشاي الاخضر في المقهى ونتابع نشرة الاخبار وقد ظهر فيها الرئيس بن علي يستقبل موفداً من العقيد القذافي وغضون الاعوام السبعين تفترس وجهه رغم التأنق والظهور بمظهر الشباب

كانت للجزيري هيبة كبيرة في نفس قادري .. يتحدث معه قادري كتلميذ يتكلم مع استاذه . وينصت باهتمام كبير حين يتفوه أمامه .. أكان السبب فارق العمر ؛ على اعتبار انه بمثابة أب له أم هو الادب والشعر تحديداً يفرض هيبة ويخلق سطوةً على متلقيه ؟

جرى الحديث بين الاثنين مطولاً عن الأدب والحركة الادبية في البلاد وأنا أستمع منصتاً . سأل قادري الجزيري عن المسيرة الادبية في تونس العاصمة وحركة الشعر والانشطة التي تقام هناك في المحافل الادبية .

سأله عن اصداراته الأخيرة في الشعر وجهوده في تعميم ثقافة شاملة واستيعاب روح التجديد التي تسود العالم الثقافي وتأثير شبكة الانترنيت على انتشار الأدب خارج حدود الوطن . سأله عن القراءات التي تناولت أعماله وكيف هي نظرته لها .. سأله وسأله . وفي كل مرة كان الجزيري يرد ويشرح بروح ممتلئة بثقافة ومعرفة تمنيت لو كنتُ ذا شهادة دراسية تؤهلني للتداخل معهما ... تحدثا وتحدثا . وكان مرورهما في الحديث عن الرواية واهميتها . إذ اعلن الجزيري أنه بصدد كتابة رواية لكنه ينتظر فكرة الموضوع الذي سيتناوله وابجديات استمرارية الكتابة فيها والنجاح في تقديمها .

كلام الجزيري عن الرواية ذكَّر قادري بكتاب بارت (إعداد الرواية) معلناً انه معروض في المكتبة ، وانه بصدد شرائه بعد توفر ثمنه لديه . هذا الكلام جعل دواخلي تنتفض ، فأمدُّ يدي إلى جيبي لأخرج عشرة دنانير قلت لقادري انني احتفظت بها لشراء هذا الكتاب لأهديه له . ابتهج قادري لموقفي . لكن الجزيري : قال ان الكتاب بحوزته وانه سيعيره ، ثم اقترح ضاحكاً :

- أضف العشرة دنانير الى بدل اشتراكك مع شبكة الانترنيت .

بدعابة مغموسة بعطر لقاء لطيف فاهَ قادري :

- وفاءً لموقفك يا محمد سأفتح لك صفحة في الفيس بوك .. سأضع صورتك وأجعل العربة أيقونة لها .

ضحك الجزيري وابتهجت أنا :

- إذاً سأشاهد صورتي ! قلت بشيء من المرح .

في صباح اليوم التالي سماء سيدي بوزيد تتناثر على أديمها كتل غيوم بيضاء تكبر كأنها تفور فتولد رغاوي ترسم صوراً يشكل خداعاً بصرياً . يمكن رؤية وجه طفل مندهش ما يلبث أن يستحيل إلى سرير يتبعثر فوقه الغطاء ؛ ثم مرة أخرى يتشكل خرطوماً لفيل بجسم هزيل .. كانت الغيوم تزداد وتتكاثر آتية من الشمال والشرق ، من البحر حيث المحافظات هناك لابد شبعت مطراً واعلنت مللها فتركتها الغيوم الدكناء لتشرب لون الثلج .

على موعد اتفقنا عليه تركتُ البيت متخذاً الطريق المحاذي لصف دكاكين تعرض عبر زجاج معارضها الكبيرة والناصعة بوتيكات وملابس نسائية بمختلف الطرز والالوان أغذي العين بمشهد الصور الكبيرة لممثلات هوليود المعروضة بجوار بنطلونات تتفاوت في موديلاتها وتنوع الوانها وطبيعة اقمشتها . فانجلينا جولي تأخذ وقفة اغراء ببنطلون جينز رمادي وفانيلا بنية داكنة أقرب للحاء شجرة جوز بينما كاميرون دياز ذائبة كقطعة حلوى بين يدي (جيم كاري) في فيلم (القناع) الذي شاهدته مراراً من قنوات الـ(MBC) الفضائية .. وعند صف احذية نسائية بكعوب عالية جداً انتصبت شارون ستون انتصابة اغراء تسعى لإسقاط فريستها (روبرت دوكلاص) سرقت من فيلمها الشهير(غريزة اساسية) .. شاهدت ذلك الفلم في سينما بالعاصمة قبل عشرة اعوام يوم كنت صحبة خالي الذي اراد له رفيقاً في سفرةٍ لأداء بعض الواجبات هناك فاختارني رغم صغر سني بعد ان أخذ موافقة أمي .. لم يكن خالي وقتها يعير اهتماماً للفيلم لكن حشد الشباب الذين تجمعوا امام مدخل السينما وصور الاغراء التي راحوا يتزاحمون على رؤيتها معروضة وسط صندوق مستطيل ، مزجج وسط تعليقات فكاهية تتناثر منها مفردات الشبق والشهوة دفع خالي إلى التوقف والنظر ؛ ثم فاه باقتراحٍ سكبه في أذني : ما رايك ندخل لربع ساعة فقط نشاهد البداية ونخرج لأداء غرضنا ؟! .. لم يتلقَّ ردي انما اندفع لقطع التذاكر وسحبني من يدي خشية افتراقنا بين الحشد ووجدتني بعد لحظات اقف معه في طابور الدخول و سط فرحتي بمشاهدة فيلم وسينما لأول مرة في حياتي . وبدل البقاء لربع ساعة بناء على اقتراحه استمر بمشاهدة الفيلم حتى نهايته لما حوى من مشاهد كانت تثير الشباب من الجالسين فيطلقون الصفير مع كل مشهد تشرع فيه ستون بالتعري امام دوكلاص .

لحظة خلفت صف الدكاكين لمحت قادري في الرصيف الذي اخطو فيه يرفع كفاً ليلقي تحية . كانت التحية موجهة للجزيري الذي خرج توّاً من المكتبة يتأبط كتابين ابتاعهما كما يبدو .

التقينا نحن الثلاثة وكان اقتراح قادري أن نذهب إلى مكتب شبكة الانترنيت .

هناك دفعنا أجر الاشتراك ووجدت قادري يدخل على موقع الفيس بوك فيفتح لي صفحة يضع فيها صورة التقطها لي مرةً عبر جهاز الموبايل ولم يزل يحتفظ بها ... الصورة تُظهر العربة ممتلئة بصناديق الفواكه والخضار ، وتظهرني أقف خلفها مبتسماً والطاقية على رأسي كما لو كنت بحاراً يبتسم لجمهرة سياح .

ابتهج الجزيري عندما انتهى قادري من اكمال الصفحة وملأها بالمعلومات المطلوبة . رجاه قادري أن يشاهدها ويعطي رأياً ، ثم يدوّن بضع كلمات ترحيباً بي .. نهض قادري متحمساً فاتخذ الجزيري مكانه .. قرأ ، فأبدى سروراً ؛ قليلاً وراح يضرب على ازرار الكيبورد ما تريد دواخله أن تفضي به ، فانتج :

((هذا اليوم اعلن ترحيبي بعامل ابن عامل سفحا عرقهما على صخرة بناء تونس الحبيبة . حمل الاب رحمه الله كبرياء سيدي بوزيد ، وها هو ولده يواصل ملحمة تاريخ المدينة .. العربة التي أراها هي ايقونة الكد بشرف . أما الابتسامة فتعكس السير على أديم القهر وتجاوز البرازخ وصولاً إلى العيش الكريم لتسهيل حياة من هموم وفيرة تكتنفها ... محمد البوعزيزي مبتسماً أشعل شرارة بدء الكتابة لروايتي التي انتظرت لحظة انطلاقها في ماراثون الإفضاء .. غداً سأكتب محمد البوعزيزي عاملاً يدفع عربة لضمان استمرار حياة أسرة ونقاء ماضي صُرف بالكد والجهد تعالياً على الأسى والشقاء .))

توقف قليلاً ليكمل :

((اعوام واعوام مرت .. عقود وعقود توالت منذ أن خرج المستعمر الفرنسي وكنا نمنّي النفس بأبناء الوطن يعيشون البهجة وسط بهاء اثيري حميم فلا حزناً يرون ولا عذاباً يُسامون . يقلّبون صفحات التاريخ المعتمة ليشرعوا بكتابة صفحات ناصعة تعرض شكراً وعرفاناً للأجيال التي ناضلت ودفعت الدماء والارواح قربانا لتونس الحبيبة وصكوكاً لحياة حرة كريمة للأبناء والاحفاد ؛ لكنَّ المستعمِر خلَّف لنا القساة وتركهم يذيقوننا مرارة العلقم كأساً فكأسا ، يوماً بعد يوم ، فبتنا لا ندري هل نشتمه لفعلته تلك أم نترحَّم على أيامٍ كان يحتلنا فيها ؟))

حين انتهى من كتابة هذه الفقرة عاد لقراءتها ، فاكتشف أنه كان منفعلا لحظة الكتابة ، ووصول مثل هكذا بوح لعيون السلطات المتابعة لكلِّ كلمة تُكتب وتعليق يدوَّن سيضر به كثيراً ؛ هو الذي ترك العاصمة ليعود لسيدي بوزيد بعيداً عن سيل منغصات زرعته في طريق ابداعه هناك ... ظللَّ الفقرةَ ثم ضغط زر (امسح) مكتفياً بالترحيبية منها .

نهض من مكانه ليتلقّى شكري ، واطراء قادري على جزالة العبارات وصدق المشاعر .

منذ ذلك اليوم عرفت الجزيري عن قرب ، وزادني قادري بمعرفته اكثر وهو يحدثني عن اعوام كفاحه في العيش ومعرفته الكاملة بأبي ، وحياة الرفقة التفصيلية التي يحفظها . حدثني انه عاد الى سيدي بوزيد بعيداً عن الاضواء فالعيش في العاصمة لم يعد يطاق .. الوضع الاقتصادي يتدهور . والتدهور بديهياً يقود السلطة ، في انظمتنا الشمولية في منطقتنا العربية هذه ، الى استخدام العنف سعياً لإظهار قوتها واعلان انها قادرة على محق من يقف بوجه سطوتها ومكانتها التي لا تريد أن تُمس .. هناك كان يرى الشباب يتخذون الارصفة جلوساً والجدران متكأً : " لو شاهدتهم – يقول بمرارة – خيرةُ الشباب وجلُّهم من ذوي الشهادات العليا يملأ جيوبَهم الفراغ ، وصدورَهم الضجر ، وآمالَهم المواعيد الكاذبة من مؤسسات ليس بيدها ما يغيّر حياة عاطلين جوعى .. لو اقبلتم على مبنى المسرح الوطني نهاراً لامتلأ قلبكم أسى وانتم ترونهم يتخذون من سلالمه الواسعة مكاناً يصرفون عنده الوقت – يتوقف قليلاً قبل ان يطلق حسرة ويقول – ان تونس بحاجة الى ثورة طلاب كما حدث في فرنسا عام 1968 . تلك التي هزت باريس العاصمة وتواصلت ليل نهار حتى اسقطت الجنرال ديغول ، مطلقة شعار (هيّا يا ابناء الوطن .. يوم النصر قادم) . هدر ذلك الشعار من جامعة السوربون لتتلقَّفه شوارع باريس ، ورددته حناجر الشباب العاطل المتسكِّع في الحدائق والساحات ، مُجبرة الجنرال على اجراء استفتاء ادرك ان نتيجته ستطيح به رغم تضحيات قدمها لفرنسا وقيادة شجاعة تحلّى بها في حرب التحرير من الاحتلال النازي .

إذاً عاد الجزيري ليعيش في سيدي بوزيد عيش مَن حَمل في قلبه شيئين : الاول نأياً عن كل ما كان يلاقيه في العاصمة من منغِّصات السلطة ، والثاني شوق الاعوام والحنين لأعشاش الطفولة التي تحتفظ بدفئها لاحتضانه .

(10)

فصل العربة

هو تحول تاريخي في مسيرة الإنسان الأزلية تلك التي نقلته من فعلِ السير على الاقدام إلى الحركة على هيكل شيئ خشبي ومن ثم حديدي بعد أنْ استعان طويلاً على ركوب المخلوقات الاليفة ذات الاربع .. جاءت العربة لتشكِّل اختراعاً هائلاً وظِّفَ لنقل الافراد والطرائد الساقطة بفعل نبال الصيادين ورماحهم ما لبثت أن استُخدِمَت في المعارك والحرب لتصبح نقلة نوعية في استراتيجيات القتال وتكتيكات الحروب .

قيل أنَّ السومريين في بلاد وادي الرافدين أولُ من فكَّر بضرورة الانتقال من مكان لآخر دون الاعتماد على ظهر يحمِل وجسد يتحمَّل ؛ دون الاستعانة بحمار ينقل وحصان يعدو ، فاستفزتهم الحاجة إلى اختراع ما يعينهم على التحرك بمنظر يختلف عن السائد ..أبصر احدهم بطريق المصادفة يوم كان جالساً على تل ورمى بمجموعة من الأحجار المتفاوتة الأشكال حجراً دائرياً كان يتدحرج أسرع من بقية الأحجار فانبثقت في رأسه فكرة أن يصنع من جذع شجرة قرصين دائريين يثقبهما من الوسط ويجعلهما يتصلان بعمود من خشب ويدحرجهما من أعلى التل . انهمك ذلك المُستَفَز ، المُستنفَر في تحويل تلك الفكرة إلى فعل ، فأعلمته التجربة ببهجة لا توصف جعلته يستيقظ في اليوم التالي ليصنع قرصين آخرين فتصبح لديه أربعة أقراص مربوطة بعمودين . قال بعدهما وهو يتأملهما لماذا لا أضع عمودين يقاطعان عمودي الأقراص . فعل ذلك .. ومن أعلى التل جرَّب أن يصعد على العمودين ويسمح للأقراص أن تتحرك . فاذا به يرى نفسه ينحدر بجذل هائل كما لو أنه يطير . أعاد الكرَّة مرةً ومرّة ؛ ومرة بعد مرة . المرّة الأخيرة ولَّدت لديه فكرة أن يستعين بحصان او بقرة لسحبه فربطهما بحبال وانطلق . وقتها استحال استخدامُ تلك العربة اختراعاً خرافياً .

التقط الأشوريون في شمال العراق ذلك الاختراع الساحر فاندفع الفنانون في صناعة العربات الخاصة . فصار آشور بانيبال يركب عربة لا يجرها حصان واحد بل خيول متعددة . وصارت صورتها مَعلماً من معالم تزيين قصور الاشوريين جميعاً .

وإذا كان عباس بن فرناس فكَّر في العام 880م وهو بعمر الستين في صناعة اجنحة ليطير بها كما الطير فان ليوناردو دافنشي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وابتداءات القرن السادس عشر صمم طائرة هليكوبتر ليطير بها الانسان سائحاً في الفضاء ومعها صمم دبابة يوم كان القتال يجري مبارزة بالسيوف ورمي الرماح ، مثلما صمم غواصة قال عنها يمكنها اختراق البحار والوصول إلى الجزر دون ان تحصل حادثة غرق او تعرض إلى هياج بحر أو تلقي تبعات جنون محيط ؛ بيد أن تصاميمه ظلت مشاريع نائمة على الورق لأن العقل البشري آنذاك لم يكن يطيق تخيلات ذلك العبقري وانبثاق ذكائه .

ملكة بريطانيا ركبت عربة صنعت في العام 1902 ، مُطعَّمة بنقوش التاج ومرصعة بالذهب ، وحصانين نافرين متجاورين . اعتلتها في احتفالية عيد ميلادها الخمسين و هي الآن بعمر الثمانين (ستكون هي نفسها العربة التي يعتليها حفيدها ولي العهد وليم في زواجه على كَيت سيتابع مشاهدتها ملياري مشاهد من شاشات التلفاز عبر فضائيات لا عد لها) . العربة مستطلية بأربعة عجلات تجرها اربعة خيول . اثنان يتقدمان وخلفهما اثنان . وللبهرجة والجمال والهيبة يتقدم العربة فارسان على حصانين مطهَّمين ، وخلف العربة فارسان ايضاً ؛ ثم إلى الخلف يخبُّ ما يقرب من عشرين فارساً والجميع يرتدون الزي الرسمي بالبنطلون الابيض والسترة الحمراء المذهبة مع الطاقية السوداء . وعلى طول الطريق الذي يحتشد بالمواطنين المحتفين بملكتِهم رمز مملكتهم وكبرياء الوطن ترفع الملكة ذراعها الايمن وتلوح بكفِّها ذي القفاز الابيض دلالة نصاعة القلب ونقاء الحب لمواطنيها .

صدام حسين طلب صنع عربة من ذهب في زمن حصار كان الشعب العراقي يموت جوعاً والاطفال يرحلون عن الدنيا جراء حرمانهم من دواء قيمته حفنة فلسات ، والنساء كنَّ يدخلن من بوابة الرذيلة ، تضحيةً بأنفسهن ، لإنقاذ ما تبقى من افراد عائلاتهن . لا يردن لهم أن يتحطموا جميعاً . كان يريدها عجلة تفوق في مظهرها وبهرجتها عربة ملكة بريطانيا . ولأجل أن يغيظ نساء العراق المسحوقات برحى الحصار دعا كبرى بناته لتدشن الركوب فيها وهي ترتدي أفخر الفساتين المطعَّمة بالياقوت والزمرّد في الوقت التي تسرق نساء العراق الاعلام العراقية ولافتات المناسبات الوطنية المعلّقة في الشوارع وعلى الاعمدة ليصنعن منها ملابس داخلية تستر عوراتهن . فلم يكن يملكن ثمن شراء لباس داخلي واحد .

أما عربة محمد البوعزيزي فتنأى عن هذه العربات في شكلها ودورها .. هي بلا بهرجة ولا تزويق ، بلا حفاوة ولا استنثار ، بلا مَعلم يجعلها متميزة سوى انها صُنعت لدى حداد مغمور من حدادي سيدي بوزيد بثلاث عجلات (كاوتشك) مأخوذة من سيارات قديمة ، ولها هيكل مستطيل سطحه رصف بألواح خشبية توضع فوقها صناديق الخضر والفواكه ، لتكون من مُلكية عامل شاب يمسك مقودها الحديدي العمودي باليد اليسرى بينما اليد اليمنى تتولى الدفع . (هل كان صانعها يعلم أنَّ هذه العربة هي التي ستحمل نعش نظام بن علي ليفرَّ هارباً في ليلة هادرة فترفض استقبال طائرته مطارات اخلص الاصدقاء اليه بعدما رفضوا اعطاءه حتى تأشيرة دخول وتفويض اقامة على اراضي بلدانهم ؟!) .. عربة محمد البوعزيزي اثيرة لدى نفسه . لا يشعر بالطمأنينة والأمان الا عندما يمسك مقبضها بيده . تماماً مثلما يشعر ربان سفينة بالزهو وهو يمخر بسفينته عُباب المطامح وصولاً لتحقيق المآلات .

عربة محمد البوعزيزي تحتل حيز صورة واسعة بصفحته في الفيس بوك .. يتفوه قادري مُلاطفاً صديقه :

- المُشاهد ، يا محمد سيهتم بالتحديق في عربتك اكثر من تطلّعه لشخصك .

فيرد محمد بكلماتٍ ولهٍ مغموسة بعسل الفكاهة :

- عربتي معشوقتي ، وعربتك عائشة .. عربتي تمنحني القروش وعائشتك تطحن قلبك .

يضحك قادري ، ويوغل في الملاطفة :

- معشوقتك لا يصل سعرها ثلاثين ديناراً ، وعائشتي ذهبُ الدنيا ... يقهقه كما لو أفحمه بردٍّ قاطع .. لا يدري أنَّ رجل اعمالٍ كويتي سيدفع مقابلها عشرة آلف دولاراً يوماً من الأيام السابحة في بحر الغيب ، وأنَّ أسرته سترفض بيعها رغم المبلغ الذي يسيل له لعاب أي بائع خضار آخر .

(11)

محمد البوعزيزي يطعم الكناري جوّافةً

ذلك المساء الغاطس في لئلاء نجوم تسفح ضوءً يشد المتطلّع اليها وهفهفة انسام تغدقها الطبيعة على سيدي بوزيد خرج محمد البوعزيزي اثر إخبار جندوبي له بإمكانية المجيء بعربته في اليوم التالي ومواصلة البيع . اتخذ الدرب الذي لا يبعد غير قطع شارع ودخول في ثاني زقاق ليكون عند بيت يحياوي .. هناك ضغط زر الجرس . ولم ينتظر طويلاً إذ ظهر له يحياوي مبتسماً :

- هجست حضورك .. غداً سأشتري لك ما تحتاج من خضر وفواكه . احضر عربتك الى هنا سأكون مع السادسة صباحاً بانتظارك .

وكما لو انه تذكر شيئاً :

- الجوافة التي اوصيتني لشراء صندوق منها وجدتها بالأمس .. هل ما زلت على رأيك ؛ أي هل اجلب لك صندوقاً ؟

- ابهجتني بذكرها . سألتني ام يوسف عنها ثلاث مرات .

رسم يحياوي ابتسامة اوسع من ابتسامة الاستقبال قبل ان يقول :

- أتدري ، يا محمد ، جندوبي يعتز بك وقبل حضورك بقليل طرق الباب وفوجئت به .. اتعرف سبب مجيئه ؟
- .....
- جاء ليرجوني ان اقف الى جانبك واحثك على مواصلة عملك .
- وهل تراني اتقاعس ؟ أيحب شاب مثلي بطالة قاهرة قاتلة ؟ .. ماذا افعل وانت تراهم كيف يحاربوننا في ارزاقنا .
- وهذا هو الذي يدعوه للوقوف معك وحثك على العمل .

إذاً غداً سيخرج بعربته .. وغداً يتمنى ان يمر نهاره على خير فلا مراقب بلدية يأتي ولا عين رجل أمن ترصد .. غداً سيطرق باب ام يوسف حال رَكن عربته في الزقاق .. سيقول لها كان طلبك للجوافة يدق في مسمعي كدقّات ساعة قصدها التنبيه .. هاكِ اذاً ، خذي واتركي لي حصاد حسن الصنيع وانجاز المهمة ، فالطلبات تعيش معي ولا أهنأ الا بعد تلبيتها .. وغداً مساءً سيلتقي قادري ويطلب منه فتحَ صفحته في الفيس بوك ليشاهد تعليقات المتصفحين كما اخبره ، وربما سينظم اليهما الجزيري ويشاركهما التصفّح ، فقد انتج لقاء الامس حباً واحتراماً للرجل الشاعر إذ وجد فيه مثقفاً واسع المعرفة والادب .. لا يدري أنَّ الجزيري ومنذ الأمس قرر أنْ لا يتركه فقد أصبح بطل روايته , وهذا يعني أنه سيتابع تحركاته وسلوكه وانفعالاته ، وسيضفي عليها بهارات من حقل خياله وألوان ينتجها من مزيج رؤيته كيف يكون البطل وكيف يتصرف على الورق .. لا يدري أنه سيكون شاباً آخر سيندهش ان رأى كيف يراه الآخر بعينه وكيف يقرأه . ويوم يقول إنَّ الكثير مما كتبته عني ليس فيَّ ، وأني لم اتصرف هكذا ؛ ولم أكن يوماً بهذا الانفعال ؛ لا ولا ألبس ملابس مثل التي تذكرها في روايتك سيرد عليه أنك كنت لي مثل قدحة حجر أو احتكاك عود ثقاب ، وما بعده أتولى أنا بمخيلتي وتحليلي ورؤيتي في رسم شخصية تقال عنك انها لك لكنها في الواقع تنأى عنك .. هكذا هو فعل الكتابة السردية..

*****

في البيت وامام شاشة الكومبيوتر جلس الجزيري يهندّس في ذاكرته كيف يستهل الفصل الاول من روايته وبأي عبارة يبدأ .. من هم الشخوص الذين سيشاركون محمد في رحيله السردي ، وما هي حدود المكان الذي سيتحرك بطله والشخصيات الاخرى داخلها ، وكيف يوظف الزمن ليكون محفز اقناع يتوازى وتفاصيل الأحداث ، إذ لا وجود لحدث بلا زمن ومن الصعب اقناع المتلقي في سلوكيات افراد دون ان يضفي عليهم الزمن مصداقية الحدوث . لا زال يتذكر كيف أنَّ قاصاً مبتدئاً أراد أن يقتحم عالم القص فقدم قصة رومانسية جميلة عن حدث وشخصية في القرن التاسع عشر جاعلاً البطل في واحدة من مهامه يتجه إلى المطار ليتخذ مقعداً في طائرة الجمبو من أجل لقاء حبيبته التي بعثت له برقية تعلن ميقات انتحارها بعد طول انتظار وحيان وقت ان لم يحضر للقائها في موعد حددته . ولقد فات القاص المبتدىء ان القرن ذاك لم يكن شهد محاولة طيران ولا ارتقت عيون الناس تتابع هيكلاً صنعه الانسان يطير . فسقط في فخ استهجان النقاد وسخرية القراء .. إنها تجربته الاولى وعليه ان لا يظهر كاتباً مبتدئاً في اعين القراء والنقاد حين تكون بين يديهم مسكوبة على الورق وبين دفتي كتاب .

******

مع اولى خيوط الفجر استيقظ محمد البوعزيزي على رنين الجرس ففهم ان يحياوي جاء ليوقظه كي يعد العربة وينتظر عودته من جمعية بيع الخضار والفواكه مُحمَّلا بالصناديق ليتسلم منه حصته وينطلق في درب الله .

لم يوارب الباب الرئيس بل صاح :" مَن ؟ " .. وحين سمع صوت يحياوي في الشارع يقول: " أنا يحياوي " رد : " مرحباً بك ، يا خوي .. خذ راحتك وتوكل على الله أنا صحيت ." .

صوت محمد البوعزيزي وفضّة الفجر اطلقت حنجرة الكناري في قفصه فراح ينثر الزغاريد المتواصلة احتفاءً بالصباح الجديد ونداءً للذي اعتاد تقديم طعام الفطور مع عيون تبعث له حنان انساني لم يبخل عليه بأنواع الفواكه . اقترب محمد من القفص وطالع سعادة الطير الرقيق ثم عاد داخلا . غسل وجهه ومشط شعره . خلع ملابس النوم وامتدت يده ترفع بنطلون العمل والقميص من مسمار تعليق الملابس فارتداهما ، ثم ارسى الطاقية الزرقاء على رأسه . انشغل بوقت ذهاب وحضور يحياوي بعمل شاي اخضر ارتشفه ارتشافاً ، ممنياً النفس بساعات عمل رائقة لا تحبطها المفاجآت . سمع وقع خطى وئيدة . عرف انها امه نهضت لتسبقه في عمل الشاي فصاح : صباح الخير يا أمي .. لم يسمع الرد لان الأم دخلت المطبخ وعادت تلومه على عدم ايقاظها لتعمل له الشاي بيدها .

كانت سعادة جندوبي لا توصف ، وفرحة نساء الزقاق ليس لها حدود . أما محمد البوعزيزي فقد ساوره شعور ان الله يقف معه وان البيع يجري بمثل ما يشتهي فابتهج . وزاد من ابتهاجه قدوم الجزيري متأبطاً صحيفة الصباح يطالع بعين السرور وقوفه وراء العربة يلبي طلبات النسوة وبعض من شيوخ حضروا من الزقاق الخلفي الملاصق لصف بيوت الزقاق الذي يتواجد فيه بعدما وصلهم خبر وجود بائع خضروات . طالعهم الجزيري بعين التفحص فادرك انه يعرفهم . فهذه مدينته ، وهؤلاء اغلبهم من مثل عمره او يكبرونه بقليل ، متقاعدون يشغلون انفسهم بالتسوق وقطع الطريق بالمشي الوئيد ليتدفق الدم في اعضائهم التي يهددها الخواء وتلوح له الشيخوخة بالفناء .

تلقى محمد البوعزيزي التحية في خضم انشغاله وتلبية طلبة الرواد . وجلس الجزيري . عينٌ على الصحيفة وأخرى تتابع حركة البائع الشاب (يريد التقاط الصغائر والجزئيات .. يريد قياس مستوى نبرات الصوت واسلوب التعامل .. يريد معرفة كيفية استقبال الطلبات ومدى لطافة الرد .. يريد متابعة تقاسيم الوجه وملاحظة بريق العينين .) فله فيها محاولة تصوير يطبعه الصدق ويؤكده الشد والاقناع حين يكتب .. وجندوبي ، بوجهه المستدير الممتلىء وعينيه الوسيعتين اللتين توحيان النظر اليهما مليًا انهما يحتفظان بسحر فارس روماني كان يترجل على ساحل قرطاج بدرعٍ جلدي مرصع بزرد ذهبية ويمتشق سيفاً يعلن فروسيته المطلقة ، أكثر متابعة وأشد انشغال مما يبحر فيه الجزيري . واذا كان الاول يبغي الخروج بنتاج ملموس يُقرأ فإن الثاني تحدوه امنية سعادة عامل يسعى لحيازة الرزق بعرق الجبين وإن تكرس الشقاء ونصبت العوائق (أليس هو مثله عامل وإن كان حائز على اجازة ممارسة مهنة يفتقد الشاب المسكين حيازتها ؟) . لذلك كانت عيناه تتابعان كل من يدخل الزقاق او حتى يتوقف هنيهة لينظر .

في السابق لم يكن جندوبي يهتم لمن يقف في الزقاق ويبعث بنظراته ثم يتوارى ، ولم يعر اهتماماً لمن يدخل مواصلاً طريقه باتجاه الازقة الاخرى . اهتمامه فقط توالد مع مجيء محمد البوعزيزي بعربته فاراً من ملاحقة مراقبي البلدية .. صار عنده وجود هذا الشاب هاجساً ، يؤلمه إنْ لم يحضر ، ويستثار قلقه إنْ وِجد .. ومع الاثنين كانت رغبة حيازة الرزق له رجاءً يطلبه من الله . لذلك مرَّ ما يقرب من اسبوع كان فيها سعيداً لسعادته .. يرسم سروره من رؤيته يبيع بضاعته ثم يعود مسروراً لأسرة ترى فيه خير معين (لقد عانى في شبابه ما يراه يتجسد في معاناة محمد البوعزيزي اليوم . كانت البطالة قاتلة ، والحياة لم تمنحه فرصة مواصلة تعليمه ولم توجده في عائلة متعلمة ترى في الحياة كفاحاً معرفياً . فالأب كان عاملاً منظفاً في ميناء قابس على البحر ، وما كانوا يشاهدونه سوى يومين او ثلاثة ايامٍ كل شهرين . يأتي بإجازة يصرفها في احتساء الخمرة والغياب عن البيت يتنقل من مقهى لأخرى ويخرج من شارع ليدخل شارعاً ، ضائعاً كأن لا هدف له في الحياة ، وسط أسى أمه التي كانت تندب حظها وضياع سني شبابها مع زوج لا يعرف للدين اصولاً ولا للأسرة مراعاة . لذلك نشأ هو واخوته الثلاثة في كنف أم دفعتهم للعمل منذ صباهم ، هامسة في مسامعهم : ابوكم لا رجاء منه يا أولاد ، لذا الاعتماد على الله وسواعدكم هو ما يجعل اسرتنا تنال احترام الناس .. وهكذا صار العمل لدى جندوبي سنّة ، وهدي لبناء حياة كريمة . وصار على امتداد اعوامه الخمسة والاربعين يتعاطف مع كل عامل يبذل الجهد وينضح العرق من أجل مواصلة الحياة بلا انهيار ولا سقوط) .

(12)

محمد البوعزيزي لا يعرف زوربا ورقصته مع الرئيس

لطالما تجاوز محمد البوعزيزي القلق بسرور تبعثه في اعماقه نغمةُ غناء ، وتنده عليه ترنيمةُ عودٍ تمرُّ على اوتاره ريشة عازف يقول الموسيقى غذاء الروح ، وبحة مغني منحه الله موهبةً لإسعاد الناس وانتشالهم من الغرق في بحر الهموم .. لا يبغي محمد البوعزيزي الهمَّ يتكرس وجوداً مهيمناً في طرقات روحه .. دوماً يساوره اعتقاد أن الهموم تجلب النكد ، وأن الحظ يتوارى أمام بواعث الحزن . لذلك حين اطلت نبيهة كراولي من شاشة البلازما وشرعت تغني أمام جمهورٍ يحتشد على مدرجات قرطاج (ايجه نقلك) قفز من مكانه في المقهى وسط دهشة قادري واستداراة رؤوس الجلاس إليه . الدهشة تفجرت أكثر عند قادري عندما طلب منه محمد البوعزيزي أن ينهض ويوافق ذراعه التي مدها مع ذراعه .. وبإيقاع هارموني ساهم فيه الجمهور الغارق في محيط النغم الساحر والصوت العذب ، هازاً الأكتاف والرؤوس توافقاً مع صوت كراولي الرخيم راح الاثنان يتمايلان ويتمايسان وكراولي تضحك في الشاشة .. وقادري يقول من بين تموّجات صوت كراولي انت تذكّرُني بزوربا ورقصته مع الاستاذ ، رب عمله .. هل تعرف زوربا ؟.. لم يجب محمد البوعزيزي .. محمد البوعزيزي لا يعرف من يكون زوربا ولا علاقة له بالرئيس ، الذي يعرفه انه كان تائها مع كراولي تردد :

ايجه .. ايجه نقولك ما نعرفش فين لاقيتك

محلاك محلى سرّك من اول مرة حبيـــــتك

وانت علاش تتخبّه عليَّ انا اللي تعنيت وجيتك

****

ايجه ! شبيك تخزرني تتعقّــل فيَّ وتتفـكَّر

كان تتذكَّر قُتلك ليلتها زيد اســـهر

اهديتك ورده قرنفل احمر تتصورني انا انسيتك ؟

وهما يرتميان على كرسيهما ليسحبا هواء يملأ رئتيهما ابصر محمد البوعزيزي بهجة الجلاس يعلنون سرورهم للرقصة المشتركة فتفاعل في قلبه السرور وأبتسم لقادري كما لو كان يريد ان يقول شكراً لأنك شاركتني مشاعري .

نظر إلى قادري يسحب الانفاس ويمسح بمنديل ورقي العرق من جبهته وخديه فازداد تثمينا لعلاقتهما الحميمية الطويلة .. ادرك ان رقصتهما ودبكتهما أخذت ما يزيد على سبع دقائق كانت فيها كراولي تمطر روحها نغماً وصوتاً على مسامع الجمهور المحتشد هنالك على المدرجات ، وهنا وهما في المقهى كانت تحدّق فيهما عبر شاشة البلازما ضاحكة ، ومنتعشة ..

نعم تمنى محمد البوعزيزي مشاهدة قادري يتسلم العمل وينطلق لبناء الاجيال .(حتى لو لم يحصل على عمل ، وحتى لو بقي أسير المقهى وابجدية البطالة فإنه سيتقاسم وإياه ما تأتي به العربة يومياً .. هكذا فكَّر ، وهكذا عزم ..)

أشار على عامل المقهى أن يأتي لهما بقارورتي بيبسي ؛ شرباهما بلذة تساوي لذة حاجتهما لقتل العطش الذي ولّدته رقصتهما المشتركة :

- **أموت في كراولي ، يا قادري .. انها تفجّر فيَّ طاقتي للقفز والرقص والتغني ..**
- **وجعلْتني أنتَ أحبها مع أني كنت أشاهدها واسمعها فلا اكترث .. أنت زرعتَ فيَّ مشاعر حب الغناء الجنوبي ولكنة نساء الصحراء .**

تنهَّد محمد البوعزيزي :

- **آه لو كان لي مدخول وافر لتتبعت أين تكون هذه الكراولي ، ولحضرت حفلاتها حتى لو كانت في جزر الواق واق .**

يضحكان .. يضحكان سويةً .. ويعودان لإكمال تناول المشروب .

(13)

محمد البوعزيزي يقص قادري

لطاما تمنى محمد البوعزيزي أن يدوم كرنفال الصداقة مع قادري قريناً لاستمرارية عمله جوالاً بعربةٍ هي اقصى مطامحه مثلما تمنّى أن يرى قادري مدرِّساً يُعلِّم الفلسفة في ثانوية سيدي بوزيد فينهل طلابه من خزين معرفته وكنز علومه ابجديات الفلسفة وتوظيف الحكمة في تفسير المواقف وتحليل الاشياء .. كان قادري يسحبه سحباً في سني فتوتهما ليعرفه على أمّه صافية .. صافيه رحّبت به من اول يوم وقف امامها . قالت له بعد أن عرفت مَن يكون : انت ابن منوبية بو دربالة .. أبوها وأبي خدما في الجيش الفرنسي ، في قاعدة القيروان. لم يكونا يقبلا او يصبرا على تصرفات خرقاء كان يرتكبها المستعمر بحق الناس الابرياء والثوار على السواء . لذلك كانا يبعثان بخبر ما سيخطط له افراد الحامية في القاء القبض على الثوار ، وعادة ما ينفذونه بقوة خاصة تتحرك في منتصف الليل فتُمنى تلك القوة بالفشل ويصاب رؤساؤهم بالخيبة عندما لا يجدون الهدف ولا يحظون بمن منّوا النفس في مداهماتهم .. ذلك أثار لديهم شك أنَّ هناك مَن يوصل للثوار الخطط ويطلعونهم على ساعات صفر التنفيذ ما جعلهم يدفعون بعيون لهم . فحققوا ما ارادوا ؛ إذ القي القبض على جدك بودربالة فعذب وسجن ستة اشهر ثم طرد من وحدة البوليس الذي ينتمي اليها .. أما أبي ففر إلى الجزائر مع رحالة من بدو يسوحون بجمالهم . عبروا به الحدود واوصلوه إلى واحة (بئر العاثر) مخلفين وراءهم الحدود بمسافة 30كم ، حاملاً معه رسالة شفهية إلى تاجر تونسي كان يموّن الثوار بما يحتاجون من اسلحة فضمه ذلك التاجر الى مجموعة التموين . واستمر في مهمته ما يزيد على ثمانية اعوام قبل ان يمرض ويموت فيدفن هناك ، عند مشارف الواحة .. تطلق صافية حسرةً وتتأوه ، ثم تردد : عاش نزيها ومات غريباً . ذاق هو ووجدك ، والكثير ممن أحبوا الوطن وقدسوا الارض مُرَّ العذاب وحلمهم ان يتسلم البلاد قائدٌ يقدر التضحيات فيعوضهم واسرهم بعيش حر كريم ولم يظنوا ان البطالة ستكون شهادة ذوي الطاقات والافكار التي تبني الحياة الخالية من العسر والشدائد .. انقل تحياتي إلى امك منوبية وقل لها صافية تهديك السلام .

تلك الحكاية وذلك الشعور المرهف والحنين الى العلاقات الصادقة عمَّقت رفقته بقادري ، وجعلته ينظر لها بمثابة خالة له لاسيما وأن امّه اخبرته حين عاد أنَّ صافية صديقة لها : اتذكر يا ولدي ، يا محمد أتذكَّر انني كنت مع الممرضة اساعدها في أمر ولادتها بقادري ، هذا الذي يكبرك بعام ونصف ، وعندما قالت الممرضة ولَد اطلقتُ الزغاريد لانَّ صافية كانت تتمناه ولداً . كثيراً كانت تسرّني جهراً بمرادِها من الله ان يأتي ذكراً وما بعده لن يضيرني ان جاءت حتى سبع بنات .. نعم كانت صداقتنا وثيقة ، تشكَّلت من رفقةٍ حميميةٍ بين ابوينا ، وكثيراً ما التقينا في مناسبات الافراح وعادات شراء ملابس الأعياد في السوق؛ أما الآن فمشاغل الحياة أوجدت مسببات البعد وعدم اللقاء باستمرار .. ماذا نفعل يا ولدي ، الله غالب ..

****

بانصراف ذلك النهار وعودة العربة خالية من البضاعة عمت البهجة كل مَن له صله بمحمد البوعزيوي . فبعد انشراح صدر ام يوسف ونساء الزقاق صباحاً لمرأى العربة تتوقف جوار معمل القمصان تمتم جندوبي وهو يحصد السرور ينسكب من عيني محمد البوعزيزي : الحمد لله ، رادّاً على تحية الوداع بقلب مفعم بالانشراح ، وفي البيت استقبلته الام بدعاءات أطلقها القلب بعميم الصدق ، وابتسم الجزيري ، من كرسيه جوار جندوبي المنتصب عند اقداحه وصحونه وملاعقه ، ابتسامةَ مَن صمم أن يسكب الكلمات

ملونةً على الورق لترسم غيمةً من فرح تهطل مدرار مائها العذب على خميلة روح عطشى للاستقرار وجائعة للطمأنينة .. أما قادري فهتف في ذلك المساء من بعيد وهو يرى صاحبه مهندماً يسقط في شلال الأضواء ، يضع خطاه على بلاط المقهى ليشاركه جلسته : قبل قليل أرسلت رسالة من صفحتك إلى نبيهة كراولي اعلن فيها ذوبانك في صوتها وولهك في طريقة ادائها .. ولا ادري هل سترد أم لا .. وفي اذنه همس : اليوم مثلما اشاركك فرحتك أبغيك تشاركني فرحتي ..

وارب كل ابواب شوقه :

- بُح ، يا قادري ، بما أفرحك .. وسأرقص لك الآن بلا نبيهة كراولي .

ضحك قادري ، ضحكة فيها اعلان بشارة وقال هامساً :

- هذا الصباح تلقيت ابتسامة عريضة من عائشة وايماءة بأصابع من عاج .

تلك الليلة وضع الجميع الرؤوس على وسائد الارتياح : جندوبي والجزيري ومنوبية ومحمد وقادري وعائشة ومعهم ام يوسف وباقي نساء الزقاق اللائي كن سيواصلنَ كتنابهن لعدم مشاهدتهن العربة تقدم لهن حاجاتهن على طبق من ارتياح .

الفصل الثاني

الغرب ليسوا عباقرة ونحن اغبياء .. هم فقط يدعمون الفاشل حتى ينجح !

ونحن نحارب الناجح حتى يفشل !

د. احمد زويل

الحائز على جائزة نوبل للفيزياء

الانظمةُ المجرمة لم يُشكلّها مجرمون ، انّما شكَّلها متحمسون

مقتنعون بأنهم اكتشفوا الطريقَ الاوحد الى الجنّة .

ميلان كونديرا

" خفة الكائن التي لا تحتمل "

... وهكذا هي الأيام ، نتداولها .. تُمطرُ رسائلَ للوجد ، رسائل للذكرى . تقول الأسى فتخلف وجعاً .. تمرُّ متعثرةً فتترك مرارات .

نتداولها ؛ فليس لنا إلا أن نطأ ساعاتها ، ونكتب حماقاتها لنرثي .

فالرثاء ابجدية وجودنا على ارض قيض لها ان تكون مهجعاً للمعذبين .

وها هنَّ الامهات منابت ألم ، وربوع احلام مقموعة ... وسيدي بوزيد ، الرجل الأبي التقي ، ينام على بعد امتار من المُنى الميتة التي ارادها بتقواه ان تينع لتحيل جموع الاتباع مخلوقات تنسى انَّ مصيرها سيكون العسف والسحق والمحق . قبر سيدي بو زيد ينتصب على رابية يستقبل مَن لم يتلقَّ من دنياه سوى المذلة والقهر والحرمان .

اليوم يستقبل سيدي بوزيد بعمامته البيضاء ووجهه النوراني وجبته الرمادية البهية مَن لم ينهل من حلاوة الدنيا سوى العسل المر والنار التي احالته كتلة جمر .. ترى سيتألم فيسكب دموع الفجيعة أم سيسعد فيفرد ذراعيه ترحاباً بالشاب محمد البوعزيزي ، هاتفاً بلسان الايمان : قدرُك ان تكون احد اثمان الحرية التي حين تثور تشهق السماء ، وتنهد الجبال .. تتكسر القيود ويتفكك الحجر .. يتنامى الغضب في النفوس فيتقهقر الظالم الجائر .. يتهاوى رعباً ، .. ليس له إلا أن يفر منهزماً ، كسيراً ، حسيرا ؟!

كانت طقوس الدفن مهيبة ؛ والجزع يتنامى كغيوم كدرة في الصدور .. كانت القلوب دفاقة بدماء الثورة ؛ فهي على موعدٍ مع الانفجار تحدثه هادراً ، عاصفاً ، كاسحا..

الطقوس هذه المرة ليست بصمت الجزع والتأسي على مخلوق غادر الدنيا بيومه الموعود بل بهتاف الاحتجاج والتحدي والدعوة الى لجم القساة العتاة ومواجهة مَن اخرسوا الافواه ، واذلوا الشرفاء ، واطاحوا بهيبة الكرامات .

اخوات محمد البوعزيزي يتكدرنَ ، ويندبن ، ويمطرن الهواء بالنحيب ، ويشممن قميصاً يستنطقن فيه رائحةَ اخٍ كان الانسان المرهف ، والعامل الابي والاصيل . عشن واياه العمر بكل تفاصيل الطفولة والفتوة مثلما كانَ لهن العون في توفير مستلزمات دراستهن وشراء ملابسهن وتقديم مصرف جيب يجعلهن دوماً قادرات على مواجهةِ مواقفَ يستدعي وجودَ المال باليد .

اخوات محمد ينتحبنَ وسط فراغ غيابه . يدخلن غرفته فلا يبصرن غير انفاسه تقطر لوعةً .. انفاسٌ تنام على وسادته وفراشه حيث البطانية تُركت متكومة غب نهوضه فجراً . انفاس تضمخ ملابسه المعلقة بمسمارٍ في الجدار واخرى المُرَتّبة داخل الخزانة . تلتصق بصورته المزججة وهو يضرب الكفين تصفيقاً في حفلة عقد قران قادري على عانشة . تحاور المرآة المستطيلة لصق الجدار جوار الباب .. كثيراً وقف امامها يتأمل مظهره ، فامتصت ملامحه وحركات تعديل هندامه ... ينتحبن ، فلن يحظين بعودته مبتسماً . يخاطب ليلى :" بإمكانك شراء المعطف الجلدي مهما غلا ثمنه " . ويلتفت لسامية : " سجلي اسمك في السفرة المدرسية ، وسددي غداً جميع النفقات .. تمتعي في سفرتك والبسي ابهى الملابس ." ... يبكين لطيبته وسماحته وايمانه . يرفعن الرؤوس الى السماء لتتولى الانتقام ممن آذاه ودفعه الى اليأس القاتل . وحين تهبط تتصالب العيون على بقايا ملصق للرئيس بن علي كان فتىً من اقربائهن جاء به في غمرة حملة انتخابات رئيس الجمهورية الذي لم يكن غيره مرشحاً فعلياً ، وإن ظهرت على الملأ بعض الصور

كافتراض منافس .. الفتى الصقه على الحائط قريباً من الباب الرئيسي فخافت الام منوبية ، ومعها مَن في العائلة المساس به خشية ان يراه احد من المتربصين ممزقاً – مثلاً – فيواجَهون بالويل ، ويعاقبون بالثبور..

(1)

الجزيري في سيدي بوزيد

عودة الجزيري لسيدي بوزيد ، مدينته التي ولد فيها واشبع ذاكرته بكل تفاصيلها جاءت بناء على نصيحة صديق له أيقن ان ما يكتبه الجزيري لم يعد يروق لرجالات بن علي القائمين على الثقافة ، وما استشفه بنفسه من انحسار نشر اشعاره وآرائه في الصحف وتهرب مسؤولي الصفحات الثقافية من ايصال ما يكتبه للقراء بذريعة كثرة ما يرد القسم الثقافي من مواد ثقافية سرداً وشعراً ونقداً .. شارك الصديق في رأيه ؛ وأيقن فعلاً ان ما جرى حصل بتوجيه من الاعلى لأن فحوى نصوصه ناقدة للوضع السائد ، وتحريضية .

لقد شهد منذ عامين واكثر تغير سحنة وجوه مَن كان يشاهدهم يستقبلونه استقبال الاديب الكبير ويثنون على شعر يكتبه ناتج – كما يصرحون - عن موهبة كبيرة وعاطفة لها قدرة رسم فائق التأثير .. واخيراً وصله همس مخابراتي يقول أن لا صوت يتقدم صوت الرئيس بن علي ، وأن هؤلاء ، وهو واحد منهم ، الذين يتشدقون بالثقافة والادب والمعرفة- على حد تصورهم - يجب ان لا ينظروا إلى أعلى من خط افق اتصال الارض بالسماء .. وعندما كان القراء يشيدون ويعلن النقاد ان نصوصاً جديدة له تنقد الواقع وتطالب برجرجة الساكن كي تتحرك عجلة الحياة مع مسار تحركها في بلدان شمالية يمكن ان تشكل انموذج يحتذى به كانت وجوه السلطة تعبس حين يواجهها او يلتقيها .

وأخيراً جاءه من يهمس في اذنه بلسان الوعيد انه سيعاد الى اجواء بدء التسعينات . ذلك التهديد ذكَّرهُ بلحظات القاء القبض عليه ورميه في الزنزانة الانفرادية في سجن (الكاف) .. اعاد اليه هول القسوة اللامعقولة التي تلقاها ، والتي انتهت باستئصال خصيتيه .

إزاء ذلك فضل التواري والركون الى الهدوء .

قدم طلباً للتقاعد من عمله ، معلناً رغبة العودة إلى سيدي بوزيد الى الابد ؛ فأنجزت له المعاملة سريعاً ...

أسرَّ لأصدقائه أن في مدينته هناك تتوفر ما في العاصمة من وسائل اتصال ؛ وبمقدوره الاطلاع على الصحف والمجلات ومتابعة المشهد الثقافي التونسي والعربي من خلال شبكة الانترنيت بسهولة ويسر في حال عدم الاتيان بها .

وكانت عودته تشبه عودة مغترب جاب البلدان مجبراً ورحل عبر الفيافي والوهاد هارباً . ثم اذا سنحت له فرصة التحدث عن امنية وهو في قطار كهولته فإن خير حضن دافئ يلتجئ اليه او زاوية هادئة هانئة يموت فيها ميتة مقبولة هي مسقط رأسه ؛ ففيها الصفحات الاولى من مسيرة حياته ، والاسطر المتهافتة على امتدادها عواطفه واحلامه ، نزوعه واكتشافاته , طموحاته والرغبات ..

هو الآن يقف عند واجهة المكتبة الوحيدة في سيدي بوزيد يسأل البائع عن الجديد في عالم الكتب فيلفت انتباهه السي صالح ، الذي كان يعمل امين مكتبة عامة تديرها الدولة في بنزرت وهو يخطو على الرصيف ، واضعاً جوالاً على اذنه ، ومنهمكاً في اتصال . يمر جواره فلا ينتبه له .. والسي صالح من الطلبة الذين زاملهم في تخصصهم في قسم المكتبات وقضيا اربعة اعوام في الجامعة سوية في فصلٍ واحد.. هو فضَّل التعيين في العاصمة تواصلاً مع الشعر والادب والثقافة بينما حصل السي صالح على وظيفة مساعد امين مكتبة في ولاية بنزرت .. تعود به الذكرى الى عشرة اعوامٍ مضت عندما قضى السي صالح في السجن عاماً على خلفية اخفاء كتب ممنوعة لم يتلفها بناء على توجيهات حكومية عليا وابقاها

على الرفوف يعيرها للراغبين في الاعارة . يومها أتهم بعدم تنفيذ التوجيهات والاصرار على تداولها مع سبق الاصرار . تلك الذكرى اعادت الجزيري الى صباح السابع من تشرين ثاني / نوفمبر 1987 ساعة صحا على ايقاع الصحو اليومي وتونس العاصمة تشهد بواكير برد شتائي ونسيم يغدقه البحر المتوسط على جغرافية تطل عليه خضراء وابنية فضلت ارتداء جلباباً ابيض تمنياً للثلج واظهاراً لنقاء السريرة .

ينهض من سريره في شقته الكائنة في الطابق الثالث من بناية أغلب شققها مستأجرة من قبل عزاب من ولايات متفاوتة يشغلون وظائف في العاصمة . يتجه نحو المطبخ . يضع ابريقاً يملأه ماءً على نار هادئة سيجده ساخنا بعدما يستحم في الحمام الملاصق للمطبخ . يعمل له قدح قهوة عربية مُرّة (هكذا يفضلها) ثم يرتدي ملابسه على أن يتخذ درجات السلم نزولاً إلى شارع " منصف باي" حيث يندفع في جوف عربة باص صغيرة وصولاً للمكتبة العامة ، مكان عملهِ .. مكتبة كان كلما التقى احداً وجرى الحديث اعلمه انها كانت في الاصل ثكنة عسكرية شيدت في العام 1810 في سوق العطارين ، يمكن للقراءِ والعاملين فيها سماع أذان الظهر جهيراً من سمّاعات تتخذ من منارة جامع الزيتونة الذي لا يبعد كثيراً عن المكان ..

كانت ساعات النهار الاولى تجري كعهدها مليئة بالحركة في عاصمة تشكل عصب حياة المدن وادارة البلد مركزياً . كان قد اطلع على صحف الصباح قبل ان يدعو احد الموظفين ليضعها على منضدة القراء (معظم القراء من خريجي الكليات والمعاهد ممن لا وظيفة لهم ولا عمل ، فقط البطالة يجترونها . ولكي يصرفوا الوقت ويواصلوا مسيرة الحياة فانهم يلتجئون إلى المكتبة ليطالعوا الصحف والمجلات مجاناً، وقد يسحبون كتباً يطالعون بعض صفحاتها في قاعة القراءة ثم يعيدونها وقت الخروج او حين الملل .)

مع لحظات الضحى سارحاً كان يطالع قصيدة له نشرت في الجزء العلوي من صفحة ثقافة في جريدة (الصباح) عندما دخل عليه سالم ، موظف الاعارة ، يهمس في اذنه ان حدثاً قد يكون صحيحاً او هو اشاعة : الحبيب غدا من عداد الماضي ، والمستقبل صار بيد رئيس الوزراء ..

لحظتها انتفض في كرسيه :

- اتعني بن علي صار الرئيس وعزل الحبيب بورقيبة ؟*

- هذا ما يدور الآن بين اصحاب الدكاكين القريبة .. الا تفتح المذياع ؟

انتفض سعياً لإدراك مرفأ الحقيقة . طلب من سالم ضغط نابض فتح جهاز الراديو المنتصب امامه جوار الباب (لم يكن يفضل فتحه ساعات العمل وإن كان من تأثيثات المكتب منطلقاً ان لا شيء يستدعي المتابعة ؛ فقط روتين البرامج التقليدية وظهور الشيوخ من السياسيين يثرثرون بما لا قدرة لهم على خلق واقع مغاير يتيح لشبيبة البلاد فرص تذويب طاقاتهم الكامنة في بوتقة البناء لخلق غد مشرقٍ ، جديد ،) . أدركَ أنَّ كلَّ شيء غدا واقعاً بعدما انتهى المذيع من قراءة تنصيب بن علي خلفاً للحبيب . ثم عادت الاذاعة الى برامجها الاعتيادية المقررة ..

فقط كانت فقرات من البيان تُعاد وتكرر ، تلك التي تشي بوعود ركوب سفينة التقدم ، وتجاهر ببرامج تحقيق العيش الرغيد .

- منذ عزله وحتى حيان وفاته كان بورقيبة يردد بفرنسية متقنة عبارة حفظها كل من كان على مقربة منه في مكان عزله :

Je n'est jamais donner confiance au militaire, Le seule fois que J'ai

donner confiance a un militaire, il m'a eu

((انا لم اعط ثقة ابداً لعسكري، والمرة الوحيدة التي اعطيت ثقة لعسكري.. خوزقني)) ، بالإشارة لزين العابدين بن علي .

تلك الايام كانت خديجة بن عثمان تتردد على المكتبة باستمرار منهمكة في اعداد رسالة ماجستير اختارت لها عنوان (مقدمة بن خلدون بين الاقتباس والتأثر) ما جعل ايام الجزيري رائقة تجري كنهر عذب ، كل ما حوله طبيعة غنّاء وسماء تهمي مطراً ينعش خميلة ايامه ، فقد تخرجا من جامعة (الزيتونة) سويةً . هو في قسم (المكتبات) وهي في قسم (اللغة العربية) .. هي كان ترتيبها الثاني على دفعتها وهو كان ترتيبه الخامس .. هو اختار التعيين في المكتبة الوطنية مجال تخصصه وكحب دفين متجذر منذ فتوته وهي عينت مدرِّسة في ثانوية للبنات وسط العاصمة (لقد فضلت الحصول على وظيفة قبل ان تتقدم لاستحصال الشهادة العليا . لم تأخذ بمن نصحها بالتواصل العلمي مباشرة بعد التخرج . قالت له في ساعة تبادل رأي ورسو عند فكرة مثلى او نصيحة مؤثرة : لأمسكَ بالوظيفة اولاً ، وبعدها اواصل مشواري العلمي ، فنحن في بلدان ننسحق ونُذَل ونموت ان لم نحصل على عمل يؤمن لنا عيشنا .. وبثقة عالية وشجاعة واصلت : العلوم والمعارف عند الحكام والسياسيين لدينا لا تعني شيئاً بقدر ما يحسبونها لافتة يتباهون برفعها أمام الآخرين من خارج الوطن ؛ نعم مجرد مباهاة لا غير ." تتوقف قليلاً تطالع وجه الجزيري قبل ان تبتسم ابتسامة تقطر سخرية من كلام شرعت تتفوه به ؛ ثم تكمل : ومن يدري ! قد لا نحصل على عمل في الزمن الجديد . وبذلك نعض اصابعنا ندماً . ") .

ولكن لا ! .. مجيء بن علي واستمراره وغياب بورقيبة وتواريه غيّر الكثير من الاشياء . كان منها ان عُينت مع حشود من خريجي الجامعات ، وتم اعطاء هامش واسع للدراسات العليا ، حصلت هي على مقعد دراسي . تحسَّن الاقتصاد وانتعشت حياةُ الناس .. لقد جاء شاب يسعى لمسح فكرةِ تطيّر ساورت الناس من انه رجلُ بوليس كونه كان وزيراً للداخلية . وصِفةٌ كهذه كافية لتخلق الرعب وتدفع البلاد الى العيش تحت خيمة قرارات بوليسية لا وسائل مدنية .. .. فرحت جموع التونسيين ممن شهدوا الاصلاحات . اعتبروها تعبيراً عن صدق نوايا . ذلك جعل الكثير يعلنون عن امتعاض كبير لحقبة بورقيبة ، وخصوصاً العشرة اعوام الاخيرة من حكمه حيث بات عاجزاً عن ادارة شؤون الدولة .. ولكن هل يدوم ذلك ؟!

كان السياسيون ممن خبر التاريخ ودرس التجارب يهمسون في مسامع الفرحين أن انتظروا : انه العسل الذي ينتهي إلى مرارة ستمزق احشاءكم ...

وكان إنْ انتشرت في المدن عيونٌ لم يألفها مواطنوها . وصار مَن يُعتقل لا يُرى بعد ذلك .. فزنازين (الكاف) و(القصرين) التي كانت تمتلئ بالمعارضين ممَّن ينطلقون في تظاهرات احتجاج على نظام بورقيبة تدين تعسفَه وظلمَه عادت تكتظ من جديد .. زِيدَ على ذلك سريَّة مُطبقة عن وجود السجين . فلا أحد من اهله يعرف اين يكون ؛ ولا كيف يصرف الايام .

عجلة المعاناة عادت تدور من جديد . وثقل الايام على كاهل المواطن شرعت تزداد .. ومع كل يوم يمر كان الرجلُ القادم من اقبية المخابرات يؤكِّد سطوته ويبث ابتسامةً لا احد يدري إن كانت تحيةَ قائدٍ لأبناء وطنه أم شفرةَ سخريةٍ تقود الى مدلول السيطرة والتعالي ؟

المهم ان خديجة بن عثمان كانت تتخذ مكاناً لها عند ابعد منضدة تطالع كتاباً او عدة كتب تسحبها وتبقى على مرمى مشاهدة الجزيري من مكتبه ، حتى اذا حانت لحظات انتهاء ساعات العمل الرسمي نهضت وسلمت ما استعارت ثم توجهت اليه ليخرجا سوية .

يجدا نفسيهما في قلب سوق العطارين تحفّهما عطور الورد والياسمين والحناء والقرنفل والقرفة واليانسون والحبة السوداء وبذرة الكتان والزنجبيل والسحلب والكزبر والكمون معروضة في حاويات مغرية ، تهطل عليها شلالات نور من مصابيح بيض وصفر ، يقف عندها السواح القادمون على هدي الاصطياف والسياحة والاستجمام ومعرفة عادات الشعوب ، مشفوعين بابتسامات باعةٍ يُطلقون فراشات الاغراء ليجعلوهم يدخلون محلاتهم لشراء بضاعة يحملونها معهم للاستخدام او لذكرى تقول يوماً انهم كانوا هنا في زيارة من عداد البهجة المتوالدة من تغيّر الامكنة .

يعجُّ قلبها بالسرور وهي تخطو معه .. كلاهما يرتديان بنطلون جينز ويحتذيان حذاءً خفيفاً لكن قميصيهما يختلفان .. قميصها يحتشد بزهور تتنوع الوانها وتتحاور بنصاعة تعكس كرنفال ورد بينما قميصه بلون السماء ، مرَّ عليه حديدُ المكواة الساخن فأظهره مترفاً .

كانت تُمنّي النفس بشهادة ترتفع على اقرانها ، وكان يأمل حيان الفرصة ليطرح رغبته في الاقتران بها .

يتركان خلفهما خثرة السوق المسقَّف وزحمة المعروضات وتهافت عيون البحث والتطلع فيدخلان (سوق الكتبية) بناء على رجاء منها بغية البحث عن عدد من كتب لم تجدها في المكتبة العامة تحتاجها كثيراً في بحثها القادم . تقتبس منها وتنهل من فحواها ما يمكن ان تدوِّنه في احد ابواب فصول رسالتها .. يخفى غيمة ضجر تمر في سماء مزاجه لرجائها الذي يجده في غير وقته . يساوره اعتقاد أن ساعات يصرفَّها بين عوالم كتب ؛ رائحتها كافية لأن تجعله يتحرر من أسارها ليجلسا في مقهى يرتشفان العصائر الباردة او القهوة الداكنة ويروحان يتحدثان في أمور تنأى عن اجواء الكتب .

ما أن يتوقفا عند مكتبة او مكتبتين ويدلفا الى الداخل حتى تكتشف وهي تسأله الرأي في كتاب هنا وكتاب هناك ان الملل ينسكب من عينيه ، فتقترح الخروج مؤجلة هدفها ليوم آخر .

في الفضاء المنفتح يندفعا متحررين من دكنة الاسواق ، فيتخذا شارع بورقيبة مساراً ينهلان من الهواء الطلق رغبة للطيران .

تقترح عليه الجلوس في مقهى .

كان مبعث ارتياح ان يتخذا منضدة بيضاء مربعة ينبثق من وسطها عمود ابيض ينتهي ارتفاعاً بمظلة محززة بالوان حمراء وصفراء وزرقاء فاقعة تهمي ظلاً تشاكسه نسمات باردة تلاطف وجهيهما ثم تخلفانهما باتجاه مناضد يتحلَّق حولها سياحٌ اجانب وعرب خليجيون بثياب وكوفيات بيض تستقر فوقها عِقل دائرية سوداء استلطفوا المكان فجعلوه محطة استراحة ومثابة للانطلاق صوب هدف مكاني كان من محفزات مخيلتهم لإدراكه . يتحرك بينهم نُدل يرتدون بدلات خضر(ذكرته بـ " بساط الريح " ، اوبريت فريد الاطرش الذي غناه سويةً مع المطربة الاسكندرانية عصمت عبد العليم بحفاوة مبهرة يوم كان المدُّ القومي ، الاعوام الاولى من ستينات القرن العشرين ، على اشده فينشد لتونس بزهوٍ وجذل " تونس أيا خضرا // يا حارقة الاكباد .. غزلانك البيضا // تصعب على الصيّاد " ، ويعقبها بموال يصدح شوقاً تهتز له خصور الراقصات وتتلقف اقدام الراقصين ارض المسرح الذي يطفو على هدير تصفيق يغمر القاعة ويجعل من الجمهور مشاركين فعالين بسفينة الاوبريت المبحرة في محيط عربي يشتاق للوحدة ويتمنى كسر الحدود) .

مع انتهاء ما يزيد على الساعتين من الاحاديث والكلام المتبادل وشطيرة بيتزا اشتركا بصحن واحد في تناولها كغداء وقدحين من عصير المانجا اوشكا على الوداع قالت له : قد لا أجيء الى المكتبة غدا او بعد غد ، وقد لا نلتقي هذا الاسبوع .. سعِدَ بما اعلمته كي لا يبقى على انتظار.. وافترقا .

هي ارتقت الترومواي يأخذها الى القسم الداخلي حيث طالبات الدراسات العليا وطلبة الجامعة من غير سكان العاصمة يتخذنه مأوى ، وهو تحرك يخطو راجلاً صوب محطة الباصات ؛ هناك سيأخذ الباص باتجاه شقته في شارع " منصف باي " .

سنتان كان اللقاء متواصلاً .. تتأصل بينهما مودة لا تعكرها سوى اوقات الفراق الإجبارية .

سنتان انهمكت في الدراسة والبحوث من أجل ان تنال درجة الماجستير بتميز بينما هو يعيش عالم الكتب : استعارة واعادة ، تصفح ومطالعة ، استقبال وجوه وتوديع أُخر .. وللشعرِ فضاء .

****

إنه يتذكّر ...

رائحة الكتب تشيع في نفسه عشقاً لا يطاق للمعرفة ، ووله لا ينضب للشعر : قراءةً وكتابة .. يبعث ما تنتجه الدواخل فيجدها غب ايام قلائل تحتل المساحات العليا من الصفحات الثقافية لصحف (الصباح) و (الصحافة) و(الحرية) ومجلة (الحياة الثقافية) كمَعلم ثقافي ادبي مهم ، وبموازاة ذلك كانت القراءات النقدية لنصوصه تشيد أو تنتقد . تحتفي بما ينشره من نصوص لها خصوصية تنأى عن المألوف فيشار إليها على انها تحمل مسحة حداثة او صفة مسار جديد . دام ذلك ما زيد عن اربعة اعوام ، قبل أن يكتشف أن مضايقات شرعت تجري لم يدرك في الاول سرها ، إلى أن طرق الباب ليلاً مرةً وهو يغط في نوم عميق .. تلك الليلة استدعي ليواجَه بتحذير مبطن من قبل ضابط مخابرات كلَّمه من خلف مكتب فخم عن ضرورة التحوّط والتحول عن كتابة لا تجلب له سوى صداعٍ سيصاحبه طوال حياته . تلك الليلة ادرك أن بن علي حنَّ الى حرفةٍ صرف الاعوام يعيش تفاصيلها ، ويحذق في مسارها مثلما ادرك أن تونس ستدفع دفعاً الى ركوب قطار الخوف ، وأن الايام القادمات ستشي برعب لا يتقنه الا المترعرعون في كنف الجريمة ، المنغمسون في نجيع الدم .

تلك الليلة كانت حداً فاصلاً بين ان يرضخ أو يواصل الكتابة بتحدٍ لا تعيقه عوائق ، ولا تمنعه برازخ .

(2)

ثمرة الجوافـــــــــــــــــة

وهو يبرح الدار لم ينس محمد البوعزيزي ان يلتقط من جوف الثلاجة ثمرةِ جوّافة بقيت بعض حباتها لم تُشترى في اليوم الفائت ففضل ان تكون من نصيب العائلة .

ما ان شاهده طير الكناري يخرج الى الفناء حتى انطلق بسلسلة تغريد متواصل ، تعبيراً عن حبور ، وسعادة في استقبال ..

دنا من القفص .. قطَّع الثمرة الى قطعٍ فاحت منها رائحة فاغمة دفعت الطير الرهيف الى رفرفة الجناحين الذهبيين .. ضغط قطعتين أو ثلاثة منها على قضبان القفص الفضية حسبها كافية لإطعامه طعام الفطور باشتهاء ، ثم وضع الباقي في فمه .

(كُل يا كناريَ الجميل .. سيكون تغريدُك بعد تناول ثمرة الجنّة هذه متميزاً .. ستدنو منك البلابلُ والعصافير ترجوك انْ تعلّمها طرقَ الغناء خلقاً للسرور .. كُل من ثمرةٍ يهيم بها ويستطعمها كل تونسي مغترب . هل تعرف ان اطيب اكلة لديه بعد الكسكسي هو حبّة من ثمرةِ الجوافة ؟ هل احكي لك ما طلبته مني ام يوسف لأخيها المغترب ؟ .. كُل.. كُل ، هيّا .. وادعوني لأسمعك . فبعد ان تستعذب طعمها ستشكرني. شكرك يأتي تغريداً ، وقفزات في فضاء القفص ... آه يا كناري الجميل ! بودي ان افتح لك الباب واخرجك لتطير امامي . تهفهف بجناحيك الطريين لتقف عند شجرة الزيتون ، ثم تطير وتحط على سياج الدار ، ثم تطير وتحط على كتفي .. تهمس ما احلى الحرية ! .. واتخيلك توشوش في اذني : وداعاً ! سامحني . كتب لنا الله الحرية وانتم ايها البشر تعتقلوننا في اقفاصكم .. اقفاصكم سجون ! ... ثم تندفع منطلقاً كالسهم .. تطير ، تبتعد . تغيبك الابنية فلا أرى لك عودة .. يبقى قفصك خالياً الا من هواء . وأبقى كلما شاهدته وانا خارج من البيت او داخل اليه يذكرني بك .. يذكرني بالفقد والخسارة : فقدُ من أحبه أن يدوم فيختطفه القدر منك عنوة .. وخسارة من تأنس حضوره عن قرب فيرحل مُجبراً ! .. لا يترك في رحيله غير الذكرى المؤلمة وخنجرٍ ينغل في لحم الروح كلما عنَّ عليكَ الجوى...

آه يا كناري الجميل . لن افتح لك الباب . سأطعمك اطيب المأكولات . سأجلب لك ما تستعذب ، وما تشتهي . فقط لا تقل لي : مللتك .. ضاق صدري فمهِّد لي طريق الرحاب .)

خفق الطائر الرقيق بجناحين تجلّيا تلك اللحظة ذهباً يبرق بينما استحال رأسه المدور زمردة صفراء ، وجسمه المغزلي يتأرجح .. يندفع في فضاء القفص . يحط في مكان ، ثم ما يلبث ان يقفز لمكان آخر .. ومن آخر لآخر ، حتى يعود يتأرجح على القضيب الخشبي المربوط بخيطين يتدليان من السقف ؛ خالقاً كرنفالا للسرور .

ما اجمل ما تتبادله المخلوقات من رسائل حين يضمخها الصدق ويكون فحواها السلام . ذلك يجعل الوجود يهنأ ، ويتحقق العيش الرغيد ؟! غير أنَّ سكان هذي الارض رأوا في وجودهم مع المخلوقات الاخرى رغبة هيمنة وتكريس استحواذ .. بذرة شر كامنة في نفوسهم . خلقت معهم ونمت ، ثم استحالت شجرة ضغينة تتكدس بثمار الحقد ، والمكائد ، والانتقام .

حدث هذا منذ قتل قابيل اخاه هابيل متجاوزاً نهر الاخوة وراكلاً جبل الحنين .. حدث منذ رماه في العراء وتركه للوحوش الضواري لولا الغراب الذي دفن منافسه في الحياة وابلغه الموقف حكمةَ أن تمنح الغريم حقاً على الاقل بعد موته .. حدث هذا منذ استلطف القتل والتشفي فصار عُرفاً يتخذه المزروعون في رحم الهيمنة سلوكاً يومياً أنتج طغاة وسفاحين تركوا في كتاب التاريخ المفتوح صفحات سود من سوءات افعالهم ، وصفحات حمر تنز بدماء ابرياء قذفت بهم بطون امهات لم يدرين ان ستلاقي فلذات اكبادهن مصائر السحق ، والمحق ، والتنكيل .

انتقل الجسم المغزلي البهي من قضيب لآخر ومن ارجوحة لأخرى ، ولم يُبدِ عتباً . استقبل ابتسامة ملاطفهُ بسيل من التغريد دلالة الحبور وتعبيراً عن السعادة .. الموقف جعل محمد البوعزيزي يبرح البيت منشرحاً ، دافعاً عربته صوب بيت يحياوي ليستلم بضاعته ويدخل من باب طلب الرزق الحلال ... ومن ورائه كانت منوبية تودِّعه بدعاء الامهات اللاتي يتمنين السلامة الدائمة بعيداً عن شرور الدنيا وخبايا القدر .

*****

كان استقبال يحياوي له مليئاً بالتفاؤل . داعياً إيّاه الى طرد التشاؤم من رأسه :

- هل تعلم انك في مكانك هذا تصرف بضاعتك اسرع من بائعي الخضار في السوق ..فقط ادعوا الله أن يبقيك بعيداً عن اعين مراقبي البلدية .

ذلك الصباح كانت العربة تلتهم الدرب .. الخضار تهتف بطراوتها ، والفواكه تنثر عطر اجسادها ليفوح في فضاء الطريق .. صورة جندوبي بابتسامة ترحيبية ووجه يتهلل سعادة كلما ابصره بعربته عند فم الزقاق تخلق لديه حالة من الطمأنينة .. تحية أم يوسف ونساء الزقاق وبوحها الذي لا تكل من الافضاء به عن رحمة اغدقها الله عندما جعله ببضاعته الطازجة يلبي احتياجاتها دون عناء الذهاب الى سوق المدينة المزدحم على الدوام تنمي داخله شعور انه يؤدي خدمة للناس لا يغفلها الله فيعينه في مسعاه .. ساعات ضحى يعيشها بانهماك تغدق عليه جوّاً من الثقة في تصريف بضاعة وفق المرام .. اقداح الشاي الاخضر او اكواب الكابتشينو او المكياطا يقدمها جندوبي على ايقاع حاجته لما يرطب جوف الفم وازالة مرارة العمل ترفد شراييه بدماء الجِد .

كانت نسمات الصباح باردة ، ورطبة ، وضاحكة . وكان قلبه منتشياً ، ومبتهجاً ، ومنفتحاً بينما العربة تعدو وتعدو ؛ تكاد تنفلت من قبضة يديه . ثملاً بالزهوِ طفق يمشي . ومتفائلاً ببيع يسير راح يحث الخطى .. مرَّ من امام عمّال بناء وأجراء في مزارع يتَّخذون من مدخل السوق الرئيسي ميداناً للتجمع فألقى تحية على صديق كان مثله يبيع خضاراً وبعربة ايضاً لكنه ترك العمل بعد حرب لا هوادة فيها مارسه معه مراقبو البلدية فملَّ فعلهم ، موثِراً الوقوف مع طابور العمال ينتظر مَن يشير اليه ليكسب ذلك النهار بضعة دنانير خير له من خوف يلاحقه أنى ذهب ومصادرة العربة بحمولتها أينما توقف .

- كان عليك ان تتحمَّل فلربما تلين القلوب ويتركوك لحالك .. تمتم محمد البوعزيزي في سره كما لوكان يخاطب الصديق .. خير لك من رزق لا تعرف متى يأتيك .. وقد لا يأتي في انتظارك هذا .

وكما لو أنه سمع تمتمته ابتسم له الصديق ولوّح بيده ، صحبة رد جميل ، سمعه منغماً :

- يعيشك يا خوي ، يا محمد .

مع تلقف النغمة ، وجميل القول .. في غمرة النشوة ورغوة الابتهاج ، وتفاؤل عميم انبثق بعد سماع الدعاء الحميم شبه لمحمد البوعزيزي أنَّ العربة تستحيل كائنا له قدرة الطيران ... وكما لو انه في حلم بهيج وجدها

ترتفع عن اسفلت الشارع .. ينبثق لها جناحان فتطير فعلاً . مندهشاً يصير فيطير معها ؛ يطير .. فوق ، فوق . يحتويهما فضاء الشارع ، وتحتضنهما أكف النسمات .. تنقلهما صوب مدٍ بشري يستقبلهما بشوق مَن ينتظر بشغف .. يبتاعون بضاعته بلمحة بصر ثم تأخذه مجموعة من الشباب مكللا بالود والترحاب . يُدخِلونه قصراً ، ويفتحون له ابواب غرف ملآى بما تطيب له النفس ، وما يفخر به الجسد .. قليلاً ويخرج خليفةً عباسياً او سلطاناً عثمانيا بجلبابٍ تطعمه خيوط حرير لامعة اتخذت الواناً متفاوتة يؤالفها ذوق خيّاط ماهر ، وعمامة تلتصق في مقدمتها ماسة بيضاء تتلألأ فتنثر بلوراتها سيلاً من الالوان الراقصة المبهرة . وفي الاصابع خواتم بفصوص من الزمرد الاخضر والعقيق الاحمر .. وهناك في الحديقة الغنّاء يلمح عربته وقد حوّرَت وحوّلَت الى عربة ملوكية . تناديه وتقهقه لما جرى لها ، وما حصل له .. يتقدم اليها محفوفاً برجال من جذل ونساء من سرور . تفتح بابها وتدعوه للصعود .. صعود مَن ايقن انه خارج سياق الزمن وفي اقصى حالات ابتسام الحظ .. تنطلق به في درب معبد تحيطه اشجار جنائنية .. العربة الملوكية تسرع ، وتزيد في سرعتها شيئاً فشيئاً ، فيشبَّه له انها تطير به . فتطير فعلاً .. يطير بها ؛ فوق ، فوق ..... ثمَّ مكبوحاً بسربٍ من الغربان ترتعد العربة فتتهشم دواخله . ويتنبّه على صورة مركبة البلدية البيك أب آتية من رأس الشارع . فيستعين ببقايا انسان مخذول يحاول تدارك امره ، فينحرف في درب فرعي . ويوقف العربة جنب سيارات متوقفة شكلت ستاراً يخفيها عن الاعين .. تمر المركبة هذه المرة فيشكر السماء ؛ ويعود الى الطريق مندفعاً بما قدر من طاقة بغية الوصول الى الزقاق المراد والدخول فيه ، ليكون أمام ابتسامة جندوبي العريضة وتحيته الجهورية .

وكان حضور الجزيري ذلك الضحى وجلوسه في مقهى جندوبي اشاع في نفسه الارتياح .. لكنه لحظ الرجل الخمسيني يطالعه وهو يرتب حبات الفاكهة وباقات الخضار ، وهو يرحب بالنساء القادمات كالعادة لشراء الناضج من الفاكهة والطري من الخضار ، وهو يزن البضاعة ، ويتسلم المال . ويعود من جديد لتنظيم العرض .. لا يدري ان في نفس الجزيري شيئاً يستدعي كل هذا التملي والتطلّع . لا يدري انه على موعد مع مشروع روائي سيجعله بطلاً . وان أداءً كهذا يتطلب اشباع ذاكرة الرجل ومخيلته بصورته وبمجمل حركات يؤديها في تعامله مع الزبائن .

ابتسم له الجزيري حين رآه يلبّي الطلبات ويتفرغ . دعاه ليجلس جواره ، فرحَّب . اوصى على قدح شاي اخضر ، فابتهج :

- فقط لو تدوم يا استاذ .. لو لم يلاحقونا في ارزاقنا !.

ضحك الرجل الخمسيني .. وفي داخله دمدم صوت الألم :" ولِمَ لا تدوم ؟! ألستم في اوطانكم ، ولكم مثل ما لهم من حقوق ؟.. أليسوا هم في الحقيقة خدامكم طالما اختاروا لأنفسهم قيادتكم ؟.. لماذا إذاً لا تدوم ؟ !".

بين الشعور بالارتياح لوجود الجزيري على مقربة منه وانهماكه بتلبية الطلبات مرَّ الوقت .. وكان على الجزيري غب انقضاء فترة الضحى وقرب قدوم الظهيرة الانصراف ، فقد انتهى من مطالعة ما احتوته صحيفة (الصباح) التي ابتاعها كما العادة يومياً لتكون اداة عرض لمجريات الساعة ، وشارك بعض الجلاس احاديثهم في امور حياتية منها: طلب نصيحة وجّهها اليه بعضهم ، وتقديم رأي في شأن يخص بعضاً آخر .

شاهد الجزيري يخطو مبتعداً .. خمَّن انه نسي القاء تحية الوداع كعادته كل يوم حين يهمّ فيها بالانصراف .

- ادعوا لي بالبركة وابعاد مخالب السوء ؛ يا سيدي .. هتف محمد البوعزيزي وهو يراكم حبات الطماطم في الصندوق ويجمع المتضرر منها جانباً ليرميه لاحقاً في حاوية الازبال .

- قلبي معك ، يا محمد .. " التفت الجزيري مبتسماً " .. مكانك هذا لا يضر احد . بل بالعكس فانت هنا تساعد مَن يعجز عن الذهاب الى سوق الخضار .

- هذا ما يقوله سي جندوبي كل مرّة ... حاول اسماعها للرجل الذي واصل السير مبتعداً .

كلمات الجزيري هذه افعمت قلبه بالطمأنينة وشعر ان ثمة من يتعاطف معه ويجزي له حق العمل حراً لا مقيداً ، عزيزاً لا ذليلاً ، مستقِرّاً لا قلقاً ... لذلك قضى ذلك النهار يشعر بإنسانيته ، بأهميته ، بكبريائه ، بمقدرته العيش معتمداً ذراعه لا متكئاً على كتف غيره .

ظلت كلمات الجزيري ورأيه المفعم بإنسانية رحيمة تتناغم في مسمعه حتى وهو يلتقي قادري مساءً ، مُكبِراً في الرجل نبله ، وشموخه ، وجاذبيته ، ورهافة احساسه ، وفيض بهائه .. ولم يُفاجأ قادري بما سمعه من محمد البوعزيزي وما افاض به .

- هناك رجال تتمنى لو كنت ملتصقاً بهم في تحركهم وجلوسهم ، في يقظتهم ومنامهم كي تستلهم من سلوكهم سيرةً ، ومن حديثهم عظة .. والجزيري من اولئك الرجال .

- هكذا شعرت .. قالها محمد بين التمتمة والصوت المسموع ؛ واكمل : لكن هذا الشعور الحيي ، يا قادري سرعان ما طعنه خنجر الضغينة . فبانتهاء فترة الظهيرة واقتراب اكتمال بيع البضاعة قدم من فم الزقاق احد اعوان الامن .. تكدَّر وجه جندوبي لحضوره .. وبحركة جهدتُ أن تكون متوازنة دفعتُ عربتي ، متظاهراً انني أمرَّ في الزقاق مروراً ولم أكن متوقفاً منذ الصباح .... تحركت تاركاً المكان لكني أدركتُ ان فعلتي هذه لن تمر على عنصرٍ حرفتُه التقصي والرصد ، ووسيلتُه معلومة تأتيه ، وأمر يطلب منه تنفيذه .

أطلق حسرة . وبوجه متكدِّر واصل :

- كان رصده لي بعين ذئبية وأنا أمرَّ بمحاذاته .. وحين هممتُ بالانعطاف بالعربة والخروج من فم الزقاق لأدخل الشارع التفتُّ مرتبكاً بحركة أبغي من ورائها مشاهدة العين ان كانت تتابعني ام منشغلة بأمر ما .. لكن لسوء الحظ كانت الحصيلة ليست لصالحي ؛ فقد بعثت العين شررها ما جعلتني اوقن انها التقطتني وسحبتني أنا والعربة الى دائرة البغض ؛ ومن ثم إلى حلبة العقاب .

(3)

وســـــــاطة

اربعة ايام انفصل فيها محمد البوعزيزي عن عربته . تركها مركونة عند الباب الخارجي لبيته . بطالة اضطرارية أخرى يجب ان يعيشها قبل ان يتحرك الجزيري ليكون واسطة فك الاشتباك . فجندوبي ابلغه ان رجل الامن واضب على الحضور الى المقهى منذ الصباح ولا يبرحه الا حيان الظهيرة .

اعتمد الجزيري على ابن خال له ينتمي إلى (التجمع الدستوري) ويمسك مركز نائب للولاية . سيؤثر حتماً على دائرة البلدية . لهذا نهض صباحاً . حلق لحيته واستحم ، لبس معطفه الاسود ليبدو كما لو كان شخصية سياسية لها مقام كبير امام من ينظر اليه ووجاهة يجسدها المظهر حين يكون معتناً به .

في المكتب استقبله ابن الخال بالترحاب . طفقَ يسأله عن برامج حياته في سيدي بوزيد الضيقة نوعا ما قياسا بالعاصمة التي صرف فيها الاعوام الطوال :

- المدن تختلف بسعتها ومعمارها ، لكن الناس متشابهون .. الناس في العاصمة لا يختلفون في السلوك والعلائق الاجتماعية .. وما ترى هناك من بشر فجذور أغلبهم إمّا قروية او هم منحدرون من مدن صغيرة .

لم يختلف معه ابن الخال ، ايده في رؤيته ... قليلاً والقى بسؤال عن زيارة بدت له غير معتادة :

- زيارة شوق ام طلب حاجة ؟

- الشوق لا ينقطع ، لكن واجباتكم تبعدكم عنا .. ما جئت لأجله موضوع منع الباعة المتجولين ومنهم محمد البوعزيزي .. هذا شاب بعهدته اسرة ، وهو يموت إنْ لم يعمل .

راح ابن الخال يفصل فقرات القانون التي تمنع التخبط في البيع وعدم الانتظام في العمل ؛ مشيراً الى ان ثمة سوقاً للخضار والفواكه حُدِّد ليكون مكاناً حضارياً . ولم يفت الرجل الحديث عن احتساب تونس بلداً سياحياً يحتاج الى النظام وضرورة تقيّد الجميع بمضمونه .

ومع كل هذا لبّى الرجل نداء الجزيري فرفع سماعة الهاتف ليتصل برئيس البلدية الذي دعا بدوره شادية ومَن يتناوب معها في واجب المراقبة ان لا يعترضوا البائع محمد البوعزيزي ومن مثله من اصحاب العربات الجوالة لحين ايجاد حل لهذه المشكلة .

أيَّد الرجل ابن عمته في ان هذه اشكالية تتسبب في تضييق عيش عُمّال وجدوا انْ لا وسيلة في كسب قوتهم غير العربات الجوالة .

شعور بالغبطة اعترى الجزيري وهو يصافح ابن خاله ويودعه على امل زيارته بغير ما حاجة ولا واسطة ... هذا الشعور انتقل الى محمد البوعزيزي حين اخبره ان الواسطة ادَّت فعلها وستتركه حراً طليقاً :

- من غدوة أنت حر .. تبيع كما تشاء ، وتذهب الى أي مكان تريد .

تلك اللحظة انطلق محمد البوعزيزي من باب مبنى الولاية مثل طير اطلق من قفصٍ فقيل له لك الفضاء بكل انفتاحه وثرائه . شعر انَّ لا شيء اثمن من الحرية ، وأنَّ القوانين وإن وجدت لتنظيم الحياة كما سمع أنّى سار وأنّى جلس إلا انها في كثير من الاحيان تُقيّد حرية الانسان وتكبّله في حركته .

((انت حر يا محمد .. تبيع كما تشاء ، وتذهب إلى أي مكان تريد)) بيان الحرية هذا شرع يتردد على ايقاع منغم . تتراقص كلماته فتيات نزقات ، ولهات في طرقات روحه .

اندفع في الشوارع ؛ ومرَّ في الدروب .... حيّا بائع الكماليات الذي يشتري منه بنطلوناته وقمصانه ، حيّا الحلاق الذي يقص شعره وشاهده في لمحةٍ منشغلاً في قصِّ شعر زبون يحتويه الكرسي الدوّار .. حيّا بائع الاحذية الجالس في مقدمة معرضه وعادته المستديمة في النظر إلى احذية المارة .. حيّا بائع الهواتف النقالة واجهزة الكومبيوتر واسطوانات السي دي ، ورفع صوته يُسمعه : سأشتري نقالاً منك وليس من غيرك ؛ وضحك .. حيّا بائع العملة اللاصق نموذج المائة دولار بحجم يفوق خمس مرات حجمه الطبيعي في الزجاجة الامامية لدكانه ، وردد كأنه يخاطب بنيامين فرانكلين المبتسم ابتسامة خفية ماكرة : لن اغتر بك ، ولن ابرح تونس حبيبتي .. حيّا مصور الفوتوغراف العجوز المهووس بالصور القديمة لتونس بالأسود والابيض : صور تعود الى الزمن العثماني والمستعمر الفرنسي ، واخرى الى منتصف الخمسينات بدء الجمهورية واعلان الاستقلال .. حيّا بائع اسماك زينة تعوم وتغوص في احواض اكوريوم زجاجية ممنّي النفس يوماً بحوضٍ تسبح في مياهه الصافية اسماك (الكوبي) و(السورد تيل) و(البلاك مولي) . ولم يرد بغير ابتسامة عريضة على صديق يجلس في كافتيريا دعاه ليشاركه في تناول قطعة بسبوسة محلاة بالعسل .

لقد بدا وقتُ الضحى عسلاً يقطر من مياسم زهور تحيطه وتحفه ... سحب زردة سحّاب كنزته الجلدية الى أسفل وفتحها ، فاندفع من صدره حَمام الشوق ، أفواجاً ، أفواجاً ... حطَّ بعضه على أسيجة الدور وبعض تعلّق باسلاك الكهرباء ، وبعض تدلى من اغصان الاشجار الرخوة ، وبعض هبط على كتفيه بحميمية ينقر خديه ، وبعض راح يرفرف فوق رأسه باحتفالية جنائنية ، وبعض اندفع نحو السماء يدور ويدور ما جعل كل من كان في الشارع ينظر اليه باندهاش .. السيارات ، والحافلات ، والدراجات البخارية ، والدراجات

الهوائية المارة توقفت تلك اللحظة ؛ هبط سائقوها وركابها ليجدوا انفسهم محاطين بكرنفال طيور تخفق في كل مكان .. عائلات تفرق افرادها يتطلعون بمرح .. عجائز خلَّفن وراءهن ضغطَ الدم ، وآلام المفاصل ، وحرقة المعدة ، وضمور الاعضاء وتحركن بعنفوان الشباب يتهايفن ، ويتمايسن ، ويتمايلن ، ويتغامزن . يطوحنَّ الرؤوس، ويرمشن بالعيون ، ويزمزمن بالشفاه ، ويدندنّ بأغنيات ايامهن الخوالي ، ويومئن للطيور العاشقة تخطف من فوق رؤوسهن وامام وجوههن أن تحملهن ليحلقن معها في فضاء الحبور .. شيوخ خلعوا الشاشية والجبّة الخبري والجبة السكرودة والجبة القطرايا واندفعوا طيوراً يهفهفون بأذرعهم كما لو كانوا ينتظرون لحظة التحليق مقلدين جدّهم عباس ابن فرناس يوم اراد تحقيق حلمه بطيران حر ، يصاحب الطيور ويرحل كما ترحل فكسا جسده بالريش ورمى بنفسه في الهواء من رابية الحلم .. حافلة تقل تلميذات مدرسة ابتدائية انعطفت من السوق لتفاجأ بمشهد لم يحصل لها من قبل .. التلميذات اندلقن من بابي الحافلة ، زرافاتٍ ، زرافات . وانتشرن على الرصيف .. خلعن الحقائب من ظهورهن وانزلنها أرضاً بينما طفقت اشرطة شدِّ شعورهن تتفكك وتنحل من عِقدِها ثم تتهادى طائرةً تنده على الطيور ان ينتظرنها لتحلق معهن او تحط مثلهن .. نوافذ الدوائر الحكومية في الطوابق العليا للأبنية المتعالية توازبت ، وصار بالإمكان مشاهدة الرؤوس تطل ، والوجوه ترسم علامات الغرابة . تتملّى غموض المشهد ؛ تتساءل أي حبورٍ هذا الماثل ؟! وأيُّ بهاء ؟! .. من أين جاء كلُّ هذا الفيض من السرور ؛ وكيف ؟!.. ياااااااااااه ! أفي حلم نحن أم في يقظة ؟..... قليلاً وعاد التطيّر لديه عندما ألفى نفسه يركض على الرصيف ، وذراعيه تخفقان كما لو كانا جناحي طير في لحظة ابتداء طيرانه .. اعترته رعشة خجل وهو يلاحظ عدد من المارة ينظرون اليه بارتياب او باستغراب ، وبدهشة ... عاب على حلم يقظة اخذه بعيداً فتذكَّر أنَّ التونسي مهما فكَّر في ما ينتشله او حلمَ بما يريد فلن يكون غير الخذلان نهاية له .. تذكَّر كلام قادري وهو يردد بجزع : " نحن اجيال ضائعة ، تتوارث الخيبة جيلاً بعد جيل .. " يطأطئ رأسه موشكاً على البكاء قبل ان يكمل : " انظر الى الجزيري الذي يمثل جيل ابائنا ! ما الذي نال من الوطن غير هدر الاعوام والعودة الى مدينته كمحارب كسير تركته الحروب المتعاقبة معوقاً ."... لا يريد ان يزيد اكثر في قص المرارات التي قهرت الجزيري ، ولا العذاب الذي تعرض له في السجن ، والتجهيل المقصود – في ما بعد -لإبداعه الثر وموهبته المتفجرة .. لا يريد ان يقص كيف عاقبه نظام بن علي فجعله عقيماً خشية أن يخلف مَن سيقفون بوجه ابنائه واحفاده حين يسلمهم السلطة ويورثهم نهب خيرات البلد .

واصل سيره صوب البيت ليُعلِم الام ، المطعونة باحتمالية بطالة الابن ، بانفراج الازمة وحصول ما لا يعيقه في المُقبلِات من الايام .

(4)

الكومبيوتر وسيطاً

منذ ان قدم من العاصمة يحاول الجزيري برمجة حياته وفق جغرافية مدينة صغيرة كسيدي بوزيد .

ينهض صباحاً مبكراً فيستقبله لوركا بابتسامة الشِّعر ، ببدلته البيضاء وربطة عنقه البنية الداكنة من وراء الزجاجة الشفافة . يترجل هابطاً ليشاركه المنضدة ، ويرتشفا القهوة سوية .. يتحدث كل منهما عن همومه السياسية ومشاريعه الادبية . يطلعه هو عن ظروف عيشه في مدينته الجنوبية وآخر ما كتب بحق الشعر فيما يخبره لوركا عن تشاؤمه في ما يجري في بلده اسبانيا وتنبؤه في قتامة الآتي وشعوره أنْ سيُغتال يوماً بطريقةٍ غادرة ، خرقاء .

- الدكتاتورية عدوة الثقافة والمثقفين . فهل تنطلق من خشيتك على حياتك من هذه الرؤية ؟

- نعم بالضبط ..

يردد الشاعر الاسباني بجزع قبل ان يستفسر :

- أليس ما حصل لك يثبت ذلك ؟

بمرارة يمد الجزيري اصابعه تتحسس فراغاً أسفل قضيبه ، ويقول :

- نعم بالضبط .

بعدها يعود لوركا ليتحنط خلف الزجاج ، وينهض هو ليرتدي ملابسه ويخرج في جولة تفقدية (تكررت هذه الجولات لأكثر من عشرة ايام) لمشاهدة التوسع الحاصل للمدينة التي تركها قرية , واستحالت في ما بعد ولاية توسعت ادارياً ، واشتهرت بلدةً تحتل الترتيب الثاني في انتاج الزيتون لعموم تونس .

بانتهاء تجواله اليومي يتخذ الطريق صوب مقهى جندوبي ليجلس هناك يقرأ صحيفةً يبتاعها في طريقه .. يرى في المقهى مكاناً للراحة ومتابعة مجريات الحياة اليومية للناس . فيها يطالع ما تأتي به الصحافة من اخبار لا تنتهي .. تلك هي مفردات تقليدية لكل مَن ارتقى عربة قطار التقاعد ، وانظم الى جيش المتقاعدين .

في الليل يشعر الجزيري بارتياح .

الليل يريحه حقّاً ..

في السنوات الماضية وقبل ان تقتحم الشبكة العنكبوتية حياته اعتاد الرحيل مع الكتاب الورقي .. يقرأ النصوص الشعرية من المجاميع التي تدفع بها المطابع العربية من شتى الاقطار ، ويرحل مع الدراسات والبحوث التي تتناول الشعر والشعراء . وكان يجهد بمحاولات كثيرة من أجل الحصول على كتاب هنا وآخر هناك لأجل قراءته والاطلاع على التجارب الحداثية يعرضها هذا الشاعر او ذاك .. ولقد اختير في السنوات الاولى من عمله في المكتبة عضو لجنة مشتريات الاصدارات الجديدة لضم الكتب المشترات واضافتها الى المكتبة خضوعاً للتابوات المعهودة لدى الانظمة العربية والاسلامية : الجنس والدين والسياسة .. أما الآن فبمقدور هذه الشبكة أن تزوّدَه بأغلب ما يحتاج . إذ لم يعُد الحصول على ما يريد من اصدار من عِداد الامنية *... إنه اليوم يقف مع تلك الآراء المتنبئة بموت الكتاب الورقي ، وتغير الذائقة القرائية إلى الكتاب الالكتروني .. هو اليوم يجاهر أن القلم والورقة سيغدوان مواداً مُتحفية ستدهش لها الاجيال القادمة حين تزور المتاحف فتشاهدها ، ويقال لهم عنها انها كانت الوسائل المثلى للكتابة والقراءة .

- لم يجلب معه لسيدي بوزيد غير ملابس يرتديها وكتب حملها حوض سيارة (بيك أب) في عشرين صندوقاً كارتونياً ضحك لها السائق الذي استأجره وهو يعقب : " ما اثقلها هذه الصناديق ، يا استاذ ؟! أفيها ذهب أم فضة ؟". . وكان حاملها العامل الذي نقلها من السيارة وأدخلها الى الشقّة ينوء بثقلها . ويهمس للسائق : " لقد حملت الجندل والحديد فلم أر اثقل من هذه الصناديق ." .. ولقد تطلب من الجزيري بعد ذلك وقت طويل لإخراج الكتب وتصفيفها في الغرفة على أمل الاتفاق مع نجار يعمل له رفوفاً تحتويها .

تجرفه اللهفة للجلوس امام اللاب توب ليدخل فضاء المعلومات .. سابحاً يروح في عوم مطلق من المعرفة مفرداتياً ، وصورياً ، وسمعياً ... وفوق ذاك تحاورياً مع خديجة بن عثمان ... يحدث هذا بعد العشاء يومياً (صار عرفاً لديه هذا الدخول الساحر ، صار سروراً دخولهما في شؤون تخصهما يتبادلان من خلالها هموماً مهنية وادبية واجتماعية فيتعرف احدهما على الآخر عما يجري في فضاء وجودهما الجغرافي والمجتمعي والسياسي) .

هذه الليلة ، منتهياً من مشاهدة عدد من الفضائيات الاخبارية نهض من كرسيه المتوسط الشرفة المطلة على الشارع بعدما صرف وقتاً يتابع حركة الناس ومرور العربات ويحاول افتضاض العتمة ليصل نظره الى جبل " السودة" الذي يشاهده في النهار شامخاً بقمته . دخل الصالة متخذاً مجلسه امام اللابتوب .. يضغط زر التشغيل فتومض الشاشة ، ثم تضاء على صورة لوحة لفان كوخ تملأها .. صورة جعلها خلفية تذكره بنهارات العمل في المزارع في ربيع الريف التونسي الخلاب .. اللوحة تعرض رجلاً ساعة قيلولة يرقد مسترخياً على ظهرة وقد غطى وجهه بقبعة القش التي يستظل بها من الشمس فيما جلست زوجته بثوبها الريفي ممددة الساقين في حالة من التأمل أو هي في انتظار استيقاظه لتطعمه من القِدر المحكم الاغلاق الذي لا ندري ان كان يحوي

لحماً مقدداً أم حساءً أم حبّات بطاطاً مسلوقة .. يغطس القِدر في كتلة من الحشيش الاخضر قريباً من جذع شجرة تظلل المكان ؛ لا يرينا فان كوخ نوعها ولا كثافة اغصانها .

فتح صفحته في الفيس بوك فعاجله الفرح بما تمنى .

وجد في عمود الاسماء الضوء الاخضر مُشعَّاً عند اسم خديجة ، فادركَ انها تنتظرُه فقد مرّ اسبوعان ولم يبشّره الضوء بوجودها ؛ مُعزياً السبب الى انهماكها في بحث او استضافة في جامعة لإلقاء محاضرة أو لربما هجم عليها برد باريس فأقعدها او أمور أخرى يجهلها .

كان وجهها الذي جعلته اشهاراً صورياً لصفحتها يشي بابتسامة تعيده الى خمسة اعوام . صورة التقطها هو لها يوم التقيا في باريس عندما زارها للمرة الثالثة .. كانا وقتها قد خرجا من سينما (K2Beaubourg) وتركاها بصالاتها الستة تعرض افلاماً على امتداد النهار بعدما شاهدا فيلم (المخطوفات TAKEN) حيث الممثل الايرلندي القدير (ليام نيسون) ، رجل تقاعد من عمله في البوليس السري بعد ان كان في قسم (افشال الجريمة قبل حدوثها) حسب ما اخبر ابنته وهو يقلّها بسيارته الى المطار . والفيلم يحكي كيف انه عمل بكل ما يمتلك من خبرة بوليسية ومقدرة مواجهة الاحداث بقواه العضلية وفكره المتوهج المتحسب للمفاجآت من اجل انقاذ ابنته وصديقتها يوم ذهبتا الى باريس لسفرة سياحية فسقطتا بحبائل عصابة من المهاجرين الالبان والعرب المغاربة تتاجر بالفتيات الجميلات :

- أنت تعيشين في باريس منذ خمسة عشر عاماً هل يحدث هذا هنا فعلاً ؟ .. سألها وانتظر عرض انطباعها لحظة كانا يخطوان على ارض رصفت بحجر البازلت الاسود ومرّا من أمام محل يبيع الملابس الداخلية النسائية من التي فات زمن لبسها فصار يطلق عليها كلمة (STOCK) اشارةً لموادٍ مكدَّسة في المخازن ولم تعرض للبيع مسبقاً .

- حَكي افلام ! قالت ضاحكة .. هل تعتقد أنَّ الدنيا فوضى والحكومة غائبة عمّا يفعله شخص واحد يدمِّر ويقتل ويُحدِث كل الفوضى التي شاهدناها ؟.. المهم انَّ المخرج يشدُّك بتوالي الاحداث والممثل البطل يجعلك تتعاطف معه ، وفي النهاية لا يخلو الفيلم من حكمة أو نصيحة . هذا هو عمل السينما منذ ان وجدت والروايات منذ ان كتبت ؛ أليس كذلك ؟

- مساء الخير ، كيف هو نورسي الجميل ؟ ..... كتبها بانتظار الرد .

شاهد بخط باهت كلمتي (khadeeja is typing) فانتظر الجواب ، ليسألها كيف قضت الايام الفائتة ، وليحكي لها عن جزئيات حياته في سيدي بوزيد كمدينة هادئة تسحبها الحضارة بيد ، والحنين للحياة القروية بيد اخرى .

- أشتاق لحضوركَ الى باريس لنروح في جولة نصرف النهار بأكمله في متحف اللوفر .

- " ها ...." ، كتبَ ؛ واراد ان يُكمل ، فانهالت الاسطر :

- قبل خمسة ايام وزَّعت الجامعة وفق برنامجها السنوي طلبةَ القسم الذي أُدرِّسُ فيه الى مجاميع لزيارة المتحف ، وانيطت بي مرافقة عشرين طالباً وطالبة . انتقلنا من رواق لرواق ، وتحركت انظارنا من لوحة للوحة ..

- " جميل ! .... " ، كتبَ .

- توقفتُ عند قاعة (الفن الرومانسي) اتابع فعل (ديلاكروا) واتخيَّل أصابعَه تقبض على فرشاة الرسم وقد حمل رأسها الشَّعري عجينة اللون او خليط الالوان ليمررها على القماشة المتشوِّقة لسكب روحه وتمرير موهبته فتريني كيف جسَّد الحريةَ بشكل امرأة جميلة ناهد ، فرعاء وناضجة . ترفع العلم الفرنسي الى اعلى بيد ، وباليد الاخرى تمسك ببندقية دلالة حتمية الكفاح المسلح لانتزاع الحقوق . تلتفت

محفِّزةً اتباعها ممَّن يرومون الخلاص من الجور والعسف والاذلال ان يواصلوا السير في دربها رغم التضحيات .. التضحيات جسَّدها الفنان بعدد من الشهداء تتناثر اجسادهم مُضرَّجة بدماء تسقي الارض ، وترويها بالحب السرمدي .

وقبل أن يشرع بسؤال جاء سؤالها هي :

- هل تعرف غافروش ؟

- أليس هو الفتى الذي وظَّفه فيكتور هوجو في رواية البؤساء ليكون وسيطاً ينقل التعليمات للثوار خلف المتاريس في شوارع باريس ؟

- نعم ، ذاك هو .. لقد جسده ديلاكروا في اللوحة يحمل مسدسين ويتقدَّم أمام امرأة الحرية في حركة تحريضية تحث الثوار على استمرار هجومهم لاختراق معاقل مضطِهديهم .

ينتظر مواصلة الحديث لحظة تذكر تفاصيل اللوحة .. اذ سحبها مرة الى حقل الصور في جهازه من موقع قدمَّها لوحة اسبوع ، كتقليد اختص به .. قليلاً وجاءته كلماتُها ، فقرأ :

- وأنا في خضم التفرّس بجزئيات اللوحة ومتابعة التفاصيل انتبهت الى أنَّ العدد الاكبر من الطلبة قد تجمعوا حولي ، يشاركونني التطلع ؛ فانتهزتها فرصة لمخاطبتهم .. قلت :

- انظروا الى هذه اللوحة ؛ هي صفحةٌ مهمّة من تاريخكم ، وتأملوا الاجساد المتناثرة فداءً لفرنسا ببيرقها الذي تخفق به المرأةُ الحرية بالأمس ؛ ثم انظروا الى انفسكم وواقعكم اليوم .. الذي انتم فيه من حرية ، وسعادة ، وسرور ؛ الذي انتم فيه من حياة يسيّرها النظام وزمن يَحسَب له بعلميّة ما كان ليتحقق لولا تضحيات جسام قدمها اجدادُكم هؤلاء ، وجسَّدها هذا الفنان الملهم الكبير ... انظروا الى هذا الشهيد الممزق الزيق ، الشاحب الوجه ، الفاغر الفاه قد يكون جدَّكَ أنت (وأشرت الى طالب) ، وقد يكون جدَّكِ أنتِ (قلت لطالبة)... وهذا الفتى الصريع ، الذي كما ترونه لم يدرك مرحلة الشباب ولم يشبع من ثمار الحياة ربما هو شقيقُ جدّكم (توجهت بكلامي للجميع) ، تقدَّم ليعوض عن جدكم الذي قد يكون آنذاك عليلاً ، جائعاً ، عاجزاً عن مقارعة الظلم فحلَّ محلَّه .. أما هذا الباريسي حامل البندقية ذو القبعة الاسطوانية والسترة الطويلة السوداء فقد تخلّى عن الترف وحمل السلاح شعوراً منه بالعسف الذي يلاقيه الفقراء والمحرومون وسط زمر النبلاء ميتي الضمائر ، ومترفي الكنائس نماذج المراءات والتستر وراء الدين .

قليلاً وأكملت :

- رأيتُ كبرياءً شعَّ من عيونهم ممزوجاً بأسى على تضحيات قدَّمها اسلافُهم في واقع حرمان مرير وفقر مدقع .. حصدتُ امتناناً تتمتم به شفاههم على تأريخ اعرفه بالتفاصيل واعرضه عليهم كي تتعزز في ذواتهم روح المواطنة .... لا اخفي عليك أنني تأسيت .. وددت لو كنت القي كلاماً يتناول صفحات جهاد آبائنا واجدادنا على طلبتنا في تونس وسط نظام عدالة ، وحرية ، ومساواة ينبغي ان ينعمون به كالذي في فرنسا .

(5)

عائشة تتذكّر .. عائشة تقترح

اجلس عند حافة النافذة بعدما أنتهي من ارواء اصص ورود الزنبق في سنديانـاتها الثلاث .. غيوم في السماء تتجمع .. تتداخل وتنفرط .. تداخلها وانفراطها يكينن اشكالاً هلامية . ارتسمت في بعضها ناقات تمد اعناقاً تبغي الارتواء من فيض مائي .. شُبّه لي انني امام مشهد ما من الجزيرة العربية ... قفز الى الذاكرة مِنَخّل اليشكري :

" وأُحبُّها وتُحبُّني // ويحبُّ ناقتَها بعيري " .. يردد ابياتَه مدرسُ اللغة العربية وهو يتحدّث عن الاطلال وذكرها عند الشعراء فيقول : إنَّ هذا الشاعر الغارق ثَملاً حدَّ الوله في بحيرة العشق يبدأ قصيدته خطاباً مباشراً يحاور فيها الحبيبة المتوارية خلف وبر الخيمة ، متجاوزاً ذكر الاطلال ووصف المكان كاستهلال مُتبَّع لدى مجايليه ، ومَن سبقه من الشعراء :

إنْ كنتِ عاذلتي فسيري // نحو العراق ولا تحوري

أضحك وانا اتخيله بروح دعابة يمتلكها في الشعر .. يقول مدرِّس العربية : " انه يشذ عن الكثير من الشعراء الجاعلين الصرامة خطى لها اثرها الواضح والجلي في قصائدهم ." .. أضحك ، واتفق في الرأي مع من يقول ان الشعراء مجانين . فليس بغير الجنون يمكن ان يصرح بهذا البوح محبٌ في مجتمع بدوي جزيري تقيّده الاعراف وتلجم لسانَه المحرّمات .

ضحكتي كانت مسموعة ، واصابعي تمر على وجه قادري .. وجه قادري يبزغ في ذاكرتي مثل قمر محاطٍ بهالةٍ من نور .. ابتسم له واريد ان اقول شيئاً .. يمر جارنا فيقتنص ابتسامة ظنها له . تضحك شجرة التين من بلاهته .. كاد يسمع سخريتها باصطفاق اوراقها حين مرت نسمة نزقة . تمنيت لو يحضر قادري بكل انفعالاته ليضحك عليه ؛ ليسخر منه .. أشكر شجرة التين لأنها انابت عنه بالسخرية .

قلت له : يا قادري ، ويا قدري . ايمكن ان تبقى اسير مقهى والعمر يحاربك بعدوِه ولهاثه ؟ .. أيعقل ان تجتر هموماً وتبتئس ولا تفعل شيئاً ؟ .. اذهب الى العاصمة وابحث في المؤسسات علَّك تعثر على درجة وظيفية حتى وان لم تكن ضمن تخصصك .. سعادتنا لا تكتمل بالبطالة ، ولا تعيش في جو الركود .

تلقيت رداً منه ..

الرد كان ورقةً رماها حين توقَّف الباص وارتقى هو .. كان ينتظرني حتى انتهاء عملي في الساعة الثالثة بعد الظهر .. تفاجأت بصعوده . فهو لم يقم مرة بانتظاري في مثل هذا الوقت .. لحظة صعوده كان الكرسي المجاور فارغاً . تمنّيته يكون من نصيبه ، لكن راكباً يتَّخذ كرسياً لِصق النافذة امتعض من حرارة الشمس نهض ليستبدل مكانه فاتخذ الكرسي الفارغ جنبي قبل قادري . اشاهد قادري يمسك ورقة بيضاء مطوية فهمتها رسالة . حين هم بالنزول فعل حركة وجدت بفعلها الورقة بيدي .. فرحت ! . قلت لابد انها كلمات قلبه ، صبها على الاسطر ليقول : انني منخل يشكري القرن الواحد والعشرين ، فيكتب شعراً او يسكب نثراً ؛ لكنني قرأت كلمة واحدة هي ((سأفعل)) ويقصد انه سيسعى للحصول على عمل وانه سيسافر الى العاصمة بناء على اقتراحي .

صباح اليوم التالي لم يتكرر سيناريو خروجه من المقهى ليلقي تحية الصباح طائرة من عينيه او منطلقة من بين شفتيه .. عرفت انه في طريقه الى العاصمة . ساعات عملي تتراقص على هدي الامل .. أنيسة ، وحمّالة ، وماجدة يلحظن مطر الحب يهطل من عيني . يتضاحكن ويهمسن كالوشيش في أذني : لستِ طبيعية هذا اليوم ؟! عصفورٌ نقرَ على باب انتظارك ام بلبلٌ غنّى لكِ غناءَ الوعد ؟ .. اسكُتنَ .. لا هذا ولا ذاك . حبيبي فقط ! راح يقرع جرس الحظ علّ الباب يُفتح ، .. انتظر حبيبي ! .. انتظره يعود اليَّ بالبشارة .. تضرعن معي أن تحقق السماء أمنيتي ؛ أن يطرق الربيع باب انتظاري فيأتيني قادري مبتسماً ابتسامة صياد عاد بشباك ملأى بالسمك وزورق كان مفتاحاً للحظ ... هل تعرفن المنخل اليشكري ؟... يتفاجأن بالاسم ، ويندهشن ، ويضحكن . يظننَّني اتمازح بتلفظ كلمات لا رابط بينها .. لا عليكن ؛ اقول . وأروح اسمعهن ابياتا وهن يتضاحكن ، ويتساءلن : ماذا تقولين ؟! .. من اين لك هذا الكلام ؟! .. اقول : شاعر كان يتغزل بحبيبته وفق حياة كان يحياها وشيئيات كان يتعامل معها .

*****

" سأسافر غداً إلى العاصمة يا عائشة .. لن ارفض لكِ مقترحاً ولا حتى أوْجله .. سأحمل معي عناوينَ مؤسسات قد تمدّ لي كفَّ الشمس فتصافحني مهنئة بما يجعلني اشعر بإنسانيتي في تقديم فعل يصب في نهر

البشرية الفاعلة على هذه الارض . سأغض العين عمّا شرحه لي الجزيري ووصفه عن جموع الخريجين العاطلين الضاربين في محيط الضياع . لا جزيرة انقاذ تَلوح لهم ولا سفينة عابرة يلُوِحون لها فتنقذهم ." .

يدوّن قادري هذا على صفحة من صفحات ملف جعله بعنوان ((إفضاء مداف بالعسل المر)) ، على أمل ان يكمله حين العودة وتبيان ما جرى وما حصل ؛ إن كان ثمة أمل أو حصاد خيبة .

(6)

قادري في العاصمة

صباحاً ومع ابتداءات الدوام وضع الخطو على رصيف محطة الحافلات مخلفاً 260 كم ، هي المسافة بين مدينة سيدي بوزيد وتونس العاصمة ...

هو الآن في العاصمة .

والعاصمة في كل بلدان العالم مرآة تعكس طبيعة الحياة ، في تحضّرها او تخلّفِها ، رفاهيتها او انكفائها .. العاصمة هي القلب الذي يضخ دم الحياة الى اعضاء الجسد فيفعمه بالحيوية والنشاط والديمومة .. ويوم يمرض القلب تُعل الأعضاء برمتها فتضعف فتوَّة المدن ويخبو ألقها . أما القرى فتمسي من عِداد الامكنة النائية عن حيازة الخدمات .. تصبح كحيوات تحتضر.

كان كلام الجزيري عن جيش العاطلين الضائعين في شوارع العاصمة صادقاً وصحيحاً .. والمصاطب المتوزعة على الارصفة مشغولة من قبل شيوخ خلت جيوبُهم من نقود فاستعاضوا بها عن كراسي المقاهي . ادرك ذلك من ملابسهم الرثة ونظرات عيونهم الكسيرة .

وإذ مرّ من جوار المسرح الوطني فوجئ بسلالمه المتعالية محتلّة من قبل شباب من الجنسين ، تكسو وجوهَهم غيومُ ضجر دكناء ، وتطفح عيونهم بفيوض كآبة قاهرة .. إنهم كقافلة جِمال تمخر عباب صحراء لا حدود لها تشي بأمل نجاة ، ولا افق يختزن دفقة ضياء تبشِّر بانتهاء حالة عتمة تلوّح بكفَ دكناء ، ثقيلة . مقموعون ومشرَّدون ..

ضائعون ومهمَّشون .

قفزت الى رأسه ما قاله الجزيري يوماً : إننا في وطن أُغلقت ابوابه امام اصحاب العقول والعباقرة والمفكرين فيما أُشرعت امام حاملي انصاف الشهادات والبلداء والطفيليين ممن ينتمون الى اسرٍ أغدقت عليهم السلطة وجاهتها وجعلتهم يتمتعون برغيد العيش والليالي الملاح .

وكان انتقال قادري من نهج لنهج ، ومن شارع لشارع ..

راجع مؤسسات دوَّنَ له الجزيري اسماءها علَّ نافذة من نوافذ الامل الشحيح توارَب له فيحظى بعمل و لو على سبيل التعاقد . لقد ارهقته البطالة وعطلت كل مشاريع الشعور بالإنسانية ، ما لها وما عليها، وجعلت منه مخلوقاً لا يدري متى وكيف تنتهي بانوراما العذاب .

من ساحة القصبة انتقل الى شارع الحبيب بورقيبة .. ومن باب البحر الى سيدي البشير ، الى الوردية ثم عاد خائباً الى باب البحر ليجلس في مقهى تحتل رصيفاً وتتخذ مناضدها من ظلال اشجار الرصيف مكاناً ليبلل شفتيه بكابتشينو مبدِّداً مرارة توالدت مع تهافت الدقائق .. ومن باب البحر مرة أخرى اتخذ الترام باتجاه باب السويقة ، فالسيحومي ، فالزهور حتى الحرايرية ليعود وفي مسمعه تتردد عبارة ((الله غالب ..!)) ، وبشيء من الامل الكاذب ((يصير خير)) يسكبها موظف استعلامات او ناطقة باسم مؤسسة ، أو مدير دائرة آثر بشيء من التواضع لقاء المراجعين الباحثين عن اجوبة لأسئلتهم .

وانصرف النهار..

وقضى قادري الساعات يتوسل نسمة أمل تبعث في قلبه دفقة ارتياح .. وكان كلما فتح حديثاً عن جهد البحث عن عمل (في جلسة سريعة مع رواد في مقهى هنا ومقهى هناك جعلها محطات للانطلاق بعد تعب مجهد ، أو صادف ان احتك كتفه بكتف مار على الرصيف ، او مارٍّ آخر جلس الى جواره في وسيلة نقل) ووجهَ بمقترح الخضوع لسنوات انتظار ؛ والتحرك باستمرار فلربما تأتي الصدفة تلوِّح بمفتاح صندوق تحقق الوظيفة . وبغير ذلك ستبقى رقماً في السجلات ، منظمّاً لجيش العاطلين .

في الساعة الرابعة عصراً أدرك أنَّ عليه العودة الى سيدي بوزيد والملف الذي حمله وأمل في ان تتسلمه احدى جهات التعيين في وزارة التربية او الثقافة او الصناعة او حتى المؤسسات التعليمية الاهلية التي عول عليها كثيراً في هذه المحاولة عاد معه بعد ان قلَّبته ايدي ، وتفحصته عيون .

اتخذ الترام لينقله لمحطة الحافلات .. هناك ، ولأول مرة حظي بحجز مقعد قال عنه بائع تذاكر السفر - من نافذته المربعة الصغيرة - انها آخر تذكرة ؛ وإلا سيكون عليه التوجه إلى سيارات التاكسي التي سيدفع لها ثلاثة اضعاف سعر تذكرة الحافلة .

طريق العودة كان كفيلم سينمائي تراجيدي يتناول جيلاً يتطلع لشمس لا حضور لها ويغرق في ليل لا انتهاء منه . جيل الضياع الشامل والبطالة المتفاقمة .. جيل الارتماء على الارصفة وعند جدران المباني ، يجتر افراده الوقت جاعلين من ظهورهم ادوات احتكاك لتلك الجدران . كان اغلب ركاب الحافلة من الذين جاءوا الى العاصمة لأداء اعمال يبدو ان اغلبها لم تنجز . تشير الى ذلك وجوههم الشاحبة ، الجامدة ؛ وعيونهم الغارقة في دمع يترقرق كأنهم يوشكون على البكاء .. يلتزمون الصمت وعدم الرغبة في الحديث ؛ على عكس ما كانت رحلة الصباح المنطلقة من سيدي بوزيد حيث ساد الحديث . كل يسأل الذي الى جانبه عن غرض التوجه ، فيرد بسماحة وامل ان يسهل الله امره . ما يلبث ان يشترك اخرون من امامهم او من خلفهم فيصبح الطريق ميدان حديث وتبادل اراء وتقديم نصائح .

تذكر انه قبل يومين كان في صفحة الفيس بوك يتحاور مع شاب مصري ظهر انه يعاني البطالة بعد نَيل شهادة ماجستير حققها بدرجة امتياز في اللسانيات بانتظار درجة وظيفية ستقرها وزارة التعليم العالي ويتنافس لأجل الحصول عليها مع حامل شهادة ماجستير آخر متخرج من الازهر .. وعندما سأله عن مجريات الامور في مصر من وجهة نظر شاب يحمل شهادة عليا جاءه ردٌّ تشاؤمي ، إذ قرأ :

- لم تعد مصر امَّ الدنيا .. مصر اليوم في تراجع وانكفاء .. أمّا جيلنا نحن ، مَن يُطلق عليه جيل الشباب فقد سقط الكثير منه في هوة العمى والنكوص ، واتخذ مدّاً سلفيّاً منكفئاً الى الوراء .. جيل لا يعرف من الرسالة المحمدية غير تطويل اللحى والثياب القصيرة . فاذا سرت في شوارع القاهرة الآن سيلفت انتباهك هذا المنظر الغريب : شباب حليقو الرؤوس ، طويلو اللحى ، قصيرو الثياب (يصل بعضها حد الركب) ، يدعكون اسنانهم بعود المسواك ويبصقون بطريقة مقززة في الارض ، وعندما تسأل احدهم عن هذا الأداء يجيبك ان الرسول الاعظم اعتاد فعل ذلك لتنظيف اسنانه ، وهو لنا قدوةٌ حسنة .

يتوقف سيل الكلمات قبل ان يعود أكثر حدّة :

- هذا ليس جيل مصر الحضارة وبناة الاهرامات ! ولا جيل سعد زغلول ومصطفى كامل وقاسم أمين .. بل جيل الحكايات المثيرة لنزوع البغض والكراهية وتأجيج روح العداء لكل ما هو معاصر وحضاري وجميل ، حتى بتنا مكروهين مذمومين من الامم الراكبة قطار الشمس والمنطلقة للبناء والاعمار وصولا الى جزر السرور .

- خفّف من غضبكَ .. كتبَ له .

لكن الرد جاء أشد حدّة :

- إننّا أمةً لا مخلِّص لها الا ان يمتلك زمام امرها ذوو الافكار النيرة .. وما لم نتّق الجهلاء ونبعدهم عن مسارنا فلا فلاح لنا ولا نجاح .

في البيت كان استقبالُ صافية له استقبالَ مَن يدرك ان لا نفع من سفره ، ولا حظوظ متوافرة .. يقول في محاولة السعي كضرورة لابد منها :

- واجب عليَّ ، يا أمي ، كي لا يعتريني شعور في التقصير ؛ ومن أجل ان لا أجابه بلوم مَن يظن أنني اتقاعس في جهدي ؛ مرتضياً البطالة ديدناً ، والجلوس في المقاهي رغبةً .

(7)

حوار النت

بدلاً من التوجه إلى مقهى جندوبي عاد الجزيري إلى شقته . فلديه اليوم موعدٌ للتحدث مع خديجة .. ومع انطباق عقرب الساعة الجدارية امامه على الرقم 12 دخل على شبكة النت فعاجله الضوء الأخضر بوجودها .. حيّاها بتحية الصباح وهو يعرف انَّ الساعة الآن في باريس هي الحادية عشرة ... اعلنت ابتهاجها للدخول عليها ، واعلمته انها منذ نصف ساعة دخلت على الشبكة ، متابعة صحيفة لوموند ، وليفيغارو ، وليمونتيه ، ولبيراسيون .

اخبرته بشيء من الفرح انها ابرمت عقدا هذا الاسبوع مع جامعة (السوربون) لإلقاء محاضرات امام طلبة الماجستير لقسم اللغة والتاريخ الفرنسي ، وقد القت اولى محاضراتها عليهم وهم ينصتون باهتمام ويدخلون نقاشاً علمياً اراحها فيه جديتهم .. انهم يلصقون علم فرنسا على ياقات قمصانهم في الجهة اليسرى من صدورهم ، تماماً في مكان نبض القلب وتدفق دمائه لتغذي الجسد الفرنسي بالأكسجين النقي كي يحيا يافعاً نشطاً يقبل على الحياة بهناء وجذل .

- أين أنتِ الآن ؟... كتب يسألها .

- الآن اكتب اليك من صالة فندق (البريستول) في شارع الشانزليه .. الموظفون مهندمون ومترفون ؛ الابتسامات لا تفارق وجوههم .. الفناء يضم قسم الاستقبال ، والمصرف ، والبريد ، وخطوط الطيران وصالون حلاقة ، وجناح كوافير . كل ذلك وسط حفاوة النبات الاخضر اليانع بوريقاته اللامعة يتسلق بمساعدة خيوط حريرية الى اعلى كأنه يبغي ادراك الثريا الكريستالية المتدلية من سقف يعلو خمسين متراً . الثريا تمطر ضوءً بلورياً ينهال بحبور طاغٍ .. نزلاء الفندق في حركة دائبة .. ارى على مبعدة اربعة مناضد وممرين (باولو كويلو) وامامه لابتوب ، يجلس اسفل ساعة كبيرة عقرباها ذراعان جميلان . ابصره يوجه اصابعه تتلاعب على حروف الكيبورد . وبين وقت وآخر يرفع عينيه ليمتص اكسير المواصلة من الحديقة العائمة على زهور تحتفي بجمال الطبيعة وتستقبل النسمات استقبال عاشقة شبقة لمن وعدها ان يمنحها سعادة بلا حدود . لقد قرأت له في صحيفة (اللوموند) لقاءً اعلن فيه انه منهمك في كتابة رواية سيسميها(الزَّهار) تدور حول كاتب يُستدعى للتحقيق في أمر اختفاء زوجته الصحفية العائدة توّاً من العراق بعد استطلاع يحظى بأهمية لما سيحدث له ولشعبه بعد اجتياحه من قبل قوات التحالف .. مؤكداً ينطلق التحري منه كونهما يعيشان في شقة واحدة ، وقد شوهدا لآخر مرة يجلسان في مقهى بشارع " فوبور سان أونوريه " .. أمامي شابان عاشقان يجلسان على كرسيين متقاربين ، على مقربة منهما رجل وامرأة في عمر التقاعد ينعمان ببهاء الفناء وجماله .. الحياة أجيال ، يا مصطفى . أحلى ما فيها الرفقة الحميمية .

- " نعم .. نعم .." ، كتب لها .

تذكّر انه مرّة كان واياها يخطوان في شارع الحبيب بورقيبة على رصيف رفقتهما الحميمة ولأول مرة تركا اصابعهما تشتبك فتتحاور لمساتهما وتتم بعملية تنافذ روحي وسيطهما الاصابع .. هي ايقنت انه يقترب منها كثيراً ، وحصد هو فكرة انها لم تمانع ، ما يدل على الموافقة على صحبة لا بد ان تنتهي برفقة دائمة ..

كان هذا قبل أن يزج في السجن وتحتويه الزنازين . قبل أن يرى كيدهم ، ويطعنه بغضهم .. قبل أن يرعبهم بصلابته ويبصق في وجه ضابطهم . قبل أن يدخلون فوهات القناني الزجاجية في مؤخرته ؛ ومعصوب العينين يهتف بهم : ما تفعلونه اسقاط نفسي لما كنتم تبصرون امهاتكم امام اعينكم في المواخير والغرف الصغيرة تفوح بعرق اجساد اللاهثين شبقاً ، أيها الكلاب . قبل ان يستأصلوا خصيتيه كفعل انتقامي يسعون من خلاله الى تقصير لسانه وتقزيم قلمه .

- هذا يذكرني بلقاءاتنا وخروجنا سوية .. كتب . الا تذكرين طبق البيتزا الذي تقاسمناه ساعة ظهيرةً في شارع الحبيب بورقيبة ؟

اظهرت له الشاشة لوعتها فقرأ :

- اذكر !! الذكرى تعيش معي أنى جلست ، وتونس تلاحقني أنى خطوت . تونس الأم الحنون . تبصرنا نتفتت في البلدان والمدن البعيدة وهي صاغرة . مكبّلة اليدين ، مطأطأة الرأس لا تستطيع فعل شيء لنا . لقد سلبها ارباب الاقبية السرية والغرف المعتمة والنوايا البغيضة بهاءها ، فتركت ابناءها يفرّون وهي صاغرة . ولسوء حظهم أنهم يجدون الحرية والعمل خارجها فلا غرابة أن تراهم يصرفون الايام في خلخلة فكرية وعدم توازن .. الأم تبغيهم يعودون إلى حضنها الدافيء وهي في شوق وشجن لكنها في نفس الوقت تخشى عليهم من الجور والعسف .. هذا لا يحدث في تونس فقط .

- " إنه قدرنا ! .." ، كتب .. قليلاً وجاء ما ارادت ان تُكمل :

- هذا ينطبق على جميع اقطارنا العربية .. شعوبها تعيش المأساة ... اقرأ ما حكى لي استاذ جامعي عربي يعيش هنا في فرنسا منذ عشرين عاماً عمّا حدث لأخيه في بلد كانت النسبة العظمى من شعبنا العربي المسكين موهومة بعروبية قائده وتحسبه محرر العرب .... كان ذلك الاخ يتابع من قبل جهاز الأمن والمخابرات .. جاء مرّةً أخوه الاكبر المتزوج الذي يسكن مع اسرته في حي آخر ؛ جاء يشكو للام من انه سيتسبب لهم بمشاكل هُم في غنى عنها ؛ راجياً منها أن تكلمه وتحذره من اللعب بالنار مع سلطة لا تعرف إلا المحق لمن يقف في وجهها ... وكان قبل بضعة أيام قد التقاه صديق قديم يعمل في حزب السلطة واخبره أن اسمه عمم على الجهاز الحزبي للاستفسار عنه .. الصديق اخبره : قلت فيك كلاماً يبعدك عن كل ما يجول في خواطرهم من افكار رمادية ." .. ثم سأله :

- أفعلت شيئاً يستحق الاستفسار عنه بهذا الاهتمام ؟

بلسان الحيرة والارتباك ، أجاب : والله لا ادري !

نعم لا يدري لماذا يجري كل ذلك مع انه لم يرتكب شيئاً سوى أنه انتهى من دراسته الجامعية في العاصمة وعاد إلى مدينته . ما له جهاز الأمن في المدينة منهمك في متابعته والاستفسار عنه إذاً ؟ ..

في واحدة من أفكار القلق قرر أن يذهب إلى معلمٍ درَّسه في الابتدائية ويشغل مركزا مرموقاً في حزب السلطة . تلك الظهيرة انتظر خروجه من مقر الحزب فاندفع إليه يشرح له ويسأله ان كان على معرفة بالسبب .

لحظتها ابتسم المعلم قبل ان يطلق ضحكة مبتورة :

- السكسوكة هذه التي في ذقنك ؟

- ماذا بها ، يا سيدي ؟

- هي التي تسببت في هياجهم .. خلقَت لك قلقاً ممضّاً ، أليس كذلك ؟

- قلق فقط ؟! بل قل لطخت ايامي القادمة بلطخة الرعب .. انت بينهم ، يا معلمي ، وتعرف العواقب حين يغضبون .

- .. اذهب إذاً ، واحلقها وتخلص من المتابعة التي ليست بصالحك ." .

لم يقل له أن السكسوكة التي في ذقنك تشبه سكسوكة شقيق ذلك الرئيس ، وأنَّ الشقيق كان يدير المخابرات فأقاله الأخ الرئيس لأسباب يعرفها الاثنان ولم يعرفها الآخرون ..

ذلك الحين رفع كفّه ، وراح يمسّد ، بأنامله المرتعشة ، الشعرَ الخشن الكثيف ؛ ضاحكاً في سره ، ومتمتماً :

- أحقاً هذه تخيف الرئيس القائد ؟

فورا ذهب إلى اقرب دكان حلاق طالبا أن يزيل ذلك البلاء الذي كان سيتسبب في انقلاب عسكري أو ثورة أو قلب نظام بأكمله . وهو على كرسي الحلاق ، والموسى تأخذ طريقها في محو وجود السكسوكة فكَّر : كم هو الرعب الذي يساور الدكتاتور ، أي ديكتاتور ، حتى من شقيق له ، وكم هو الضرر الذي يحيق بالمواطن البريء في أمر يجهله ، وشيءٍ ليس له يدٌ فيه ؟! ... لكنه تذكَّر هارون الرشيد وهو يخاطب ولده المأمون : لو نازعتني على هذا وأشار إلى الكرسي لضربت عنقك بهذا وأومأ إلى السيف المتدلي من حزامه .

لم يفاجأ الجزيري بما قرأ ، فكتب لها :

- ما حدث لأخ صديقكِ ، وما يحدث كل يوم في انظمتنا الديناصورية ، وما سيحدث في قادمات الايام لا يشكل لي سابقةً ... هم جميعاً جاءوا من ارحام التآمر وتربوا في وجر الثعالب .

(8)

منوبية والتميمة

لفت انتباه محمد البوعزيزي وهو يعود من عمله تميمةً جميلةً عُلِّقت على جدار المطبخ .. ابتسمت له ليلى حين حدَّق بتفاصيلها واجزائها . رفعت سبابتها اليمنى وأشارت الى امها . استدار ليذهب الى غرفتها حيث اعتادت الجلوس لسرقة لحظات صمت تتبع زمن أداء الصلاة ففوجئ بها تدخل عليه لترد على سؤال تقاطر فحواه من عينيه .

- انها تميمة الشكر لله لما منحه للبشر من تنويعات الغذاء ، يا ولدي .

- .....

- هذا ما شاهدتُ أمي تصنعه امامي وهي تردد دعاء استمرار الرزق الحلال .

اخذت منوبية عن امها حب الارض واعتقاد أنَّ من اراد العزة تشبث بتقاليده ، ومن تعلق بالإرث ازداد اصراره على الاصالة فكان وسيكون اصيلاً . لذلك حين دخلت السوق ووجدت نفسها امام بائع الحبوب اشارت عليه ببيعها ما اشارت عليه .. وفي البيت عملت ما شاهدت امها قبل اربعين عاماً تعمله .. سحبت علب زجاجية صغيرة هي عبوات التتراسايكلين او البنسلين الذي يُزرق محتواه علاجاً للالتهابات جمعتها في جارور بعدما تغسل جوفها . وضعت في علبةٍ بعضاً من حبيبات رز ، وفي اخرى بذور فاصوليا حمراء ، وفي أخرى بذور ذرة صفراء ، وفي اخرى حبيبات حمّص ، وفي اخرى بذور قمح ، وفي اخرى ملحاً . واغلقت فوهاتها جميعاً بسداداتها المطاطية .. عملت حلقةً من غصنِ رمان قطعته من شجرة الحديقة وغلفته بقماش ساتان ملون .. ربطت عنق كل قنينة بخيط وشدت اطرافها بالحلقة فبان كقلادة رفعتها وعلقتها على مدخل الباب المطل على الحوش المنفتح على السماء .. قالت هي تميمة لدعوة الخير لزيارتنا وتضرع لله ان يمنحنا الرزق الحلال .

من ينظر لهذه التميمة سيحدس سريعاً حب منوبية لثمار الطبيعة ، فهي بنت الارض . وحنينها الى جذورها الريفية لا ينقطع .

هي مَن دفعت ولدها محمد لبيع الخضار والفواكه . وهي مَن اشترت له العربة لتكون مهنتُه مستقبلاً التحاور مع ما تجود به الارض من ثمر يستأنس به الانسان في عيشه . وهي مَن كلَّما شكا وصمم او اقترح تغيير حرفته صدّته وخلقت اعذاراً تجعله يتراجع .. اعذار من باب أنَّ مهنةً كهذه تُشعِر الانسان حراً في حركته ؛ ومهنة كهذه لا تحيله اسيرَ رب عمل قد يذيقه الهوان عبر الاوامر والزجر والنهر لتلكؤ ربما يحدث او سوء فهم في تلبية الطلبات قد يحصل .

إزاء رأيها الذي يشعر به رجاء دفين ان يوافقها ويأخذ برأيها . يطأطىء لها رأسه ، ويروح يردد : حاضر ، يا أمي .

(9)

لقـــــــــاء

عصراً .. كان الجزيري يطل من شرفته على الشارع في جلسة ارتشاف قهوة عربية ثقيلة يستعذبها كلما خلا من كتابة أو انجز عملاً يحسبه ذا اهمية عندما ابصر محمد البوعزيزي يترجل ماشياً على الرصيف البعيد المقابل ، فنده عليه .

رفع محمد البوعزيزي رأسه فلمح الجزيري يؤمىء له ويدعوه لعبور الشارع والارتقاء الى الشقة .

لم يعتذر ، بل تقبل ذلك بصدرٍ رحب معتقداً انها فرصة ثمينة ان يسمع من رجل يحمل ثقافة عالية وعَلم أدبي شهير .

وارب الجزيري الباب قبل أن يهم محمد البوعزيزي بضغط زر الجرس .

جاء الاستقبال ودوداً ، وحميمياً ، وهانناً .

جرى ارتشاف القهوة امام لوركا المبتسم داخل اطاره ، خلف الزجاج .. شاع عبقُ سرور في قلب محمد البوعزيزي .. زادته عبارات الجزيري الاستفهامية عن العمل وتصريف الحال ودفق العطف الابوي الذي اغدقه عليه .

لفت انتباهه تراكم كتب ومجلدات بأعداد فتح لها فمه اندهاشاً فأبصره الجزيري ولم يندهش . انما قال :

- تمنيت لو كان لك وقت لتقرأ بعضاً منها .

وبشي من الفكاهة :

- لابد ان قادري سيلتهم من حلواها الكثير .

اخذه في رحلة سندبادية بين الكتب (يسعى الجزيري للتعرف عليه ، يتأمل ملامحه وهو يراقب تحركه .. يدقق في رد فعله بتماسه مع الاشياء . يترجم تصرفه ، ويتلقى كلامه) .. دخل به إلى جغرافية العناوين والصور . وتركه يرحل هياماً .. نسي الهائم وجوده مع الجزيري .. ساح بين احتشاد الاسماء واحجام الكتب . غرق في خثرة الوان المجلدات .. دخل مدنا وزار بلدان . عبر بحوراً ورسا عند خلجان .اجتاز مضايق وتوقف عند ارخبيلات . عام طافياً على سطح بحيرات اسماء خُلاق احرقوا ايامهم لخدمة الانسانية وضحّوا بأعمارهم من اجل هناء الشعوب .. شيء ما كالرائحة تسلل منبعثاً من بطون الكتب ثم طفق يملا المكان.. رائحة غريبة غامضة تراغت وتوالدت حتى طغت بهيمنة غواية ضباب هلامي توالد فاظهر له وجوها لأناس يرتدون متنوعات الملابس ؛ يأتون من مختلف الازمنة .. اناس كان يشاهد

امثالهم في الافلام والمسلسلات .. أبصر بعضهم منعزلين ومعتكفين ، وبعضاً آخر يتحدثون ويتحاورون .. يكيد احدهم المكائد لغريم له، ويطعن احدهم الاخر طعناً مميتاً فيسمع الطعين يردد بعتاب : حتى أنت يا ..... ؟!! ويضيع باقي الكلام .(يهمس الجزيري بأذنه : هكذا فعل زين العابدين بن علي بالحبيب بورقيبة) انه عتاب من احب ، فوثق ـ فأتمن ، فانقلب المؤتمَن على المؤتَمِن في لحظة كيد ، وطمع ، واستحواذ .

يقفان عند مجلدات ملونة مرصوفة كُتبَ فوقها كلمة (سينما) .. استل الجزيري مجلداً كانت على غلافه الخارجي صورة لشارلي شابلن بسرواله العريض وسترته الضيقة وقبعته المثقوبة وعصاه الضعيفة ، وهو يتطلع بعينين يشيان بالبؤس .

- مسكين ، يشبه حالنا .. قالها محمد البوعزيزي بشيء من الفكاهة المرّة .

- في الظاهر تتأسى عليه لكنه في الجوهر يدين الظلم والعسف .. ردد الجزيري بقدر من الجدية ، استشفها المستمع سريعاً .

قلب الجزيري عدد من الصفحات المصورة فأظهرت شابلن مع طفل صغير بملابس متهرئة . الطفل يمسك قطعة حجر ، وشابلن يحمل على ظهره لوحا تتكىء عليه قطع زجاجية فيتبين سريعاً للمشاهد انه مصلح زجاج النوافذ في عشرينات القرن العشرين ..

قلب عدة صفحات ليتوقف على صورة لشابلن بصورة تشبه هتلر وامامه كرة ارضية ..اسفل الصورة كُتب (الدكتاتور) بحروف كبيرة تشير لعنوان الفيلم ... قال الجزيري :

- حدِّق في هذه الصورة انها لشابلن يأخذ دور هتلر ليسخر منه في هذا الفيلم العظيم ... لقد شاهدت هذا الفيلم من شريط فيديو .. كانت نهايتُه ثوريةً وجادَّةً ، يختتم فيها شابلن الفيلم بكلمات حفظتها عن ظهر قلب ، يخاطب فيها الجنود وهم عند محارق الموت على الجبهات .. الكلمات تقول : ((ايها الجنود! لا تكرسوا انفسكم لهؤلاء الوحوش، لهؤلاء الرجال الذين يحتقرونكم، لهؤلاء الذين يستعبدونكم، لهؤلاء الذين يقيدون وجودكم، لهؤلاء الذين يملون عليكم تصرفاتكم، افكاركم وأحاسيسكم... ايها الجنود! لا تحاربوا من اجل الاستعباد! ناضلوا من اجل الحرية! انتم الشعب، تملكون القوة... قوة صناعة الآلات، قوة صنع السعادة! انتم الشعب، لديكم القدرة على جعل الحياة حرّة وجميلة، والقدرة على جعل الحياة مغامرة استثنائية... لنناضل من اجل عالم جديد، عالم يعطي حق العمل لكل الناس، عالم يعطي الامل للشباب والامان للشيوخ. المستبدون يعدون بكل هذه الأشياء لكي يستولوا على السلطة، لكنهم كاذبون! انهم لا يفون بوعودهم، ولن يفوا بها ابدا..)) .

-..... .

- انظر الى السينما تؤدي فعلاً تحريضياً مهمّاً ومؤثراً .. قال الجزيري ، وواصل : هذا عندهم .. عندهم كل شيء متاح . اما عندنا فقد قتلوا كل روح للإبداع .. لا يريدون للفنون ان تنشأ وتترعرع ، ولا للسينما ان يكون لها مقام ، لانهم يعلمون اننا سنفعل مثلما فعل شابلن بأفلامه ، ونحرض كما حرض .

فتح محمد البوعزيزي عينيه اندهاشاً واعجب بما تفوه به الجزيري ...

لم يصمت الجزيري .. وجدها فرصة أن يطلعه على حال وطن مبتلى ومجتمع مقموع :

- لم يجنِ جيل اباؤنا من الاستقلال رغم التضحيات التي قدموها في مقارعتهم للفرنسيين غير الفقر ، والحرمان ، والتهميش . وجاء الذي بعدهم ليترك المفكرين واصحاب العقول والمشاريع الوطنية بين الاقصاء والاخصاء(يرى بشخصه وشخص خديجة بن عثمان نموذجين) .. وها انتم الجيل الثالث : جيل البطالة والمحاربة في العمل .. جيل الجلوس في المقاهي وركن الشهادات على جدران التهميش .. لقد تبدد حلم الآباء ، وأمل الابناء . وإنْ بقي الحال كما هو فسينسحب ليشمل الأحفاد .

أيَّد محمد البوعزيزي كلام الجزيري في كل ما قاله .. وأبصر دموع اليأس تترقرق في عينيه ، اعادته الى نفس الدموع التي كان يشاهدها في عيني أمه كّلما سألها سؤال الحيرة : لماذا لم يترك لنا أبونا مالاً يعيننا على مقارعة قسوة الحياة أو عقاراً يشعرنا بالطمأنينة على مستقبلنا ... الآن عرف لماذا تصمت أمه ولا تجيب .. لابد أنَّ خيبة الامل التي تراود الجزيري الآن هي ما كانت تراود اباه ..

(10)

الجزيري يستهل الرواية

كان الجزيري تملّى وجه محمد البوعزيزي وهو على مقربة ، وتشرَّب بملامحه .. تابع تحركه وسلوكياته . استمع له مثلما أسمعه فاعجبه فيه انصاته ورغبة اغتراف ما لم يعرفه لينهله ويجعله رصيداً ثقافياً يعينه على فهم الحياة وواجب الانسان على الارض وحقوقه فيها .. نظر اليه انساناً عاملاً ؛ أداته يده في جلب الرزق والضريبة التي يدفعها جهد من جسد يصارع لأجل أن يكون أهلاً للعمل ، ونضح عرَقٍ يفسِّر إشهار أنَّ العمل شرف ، وأن الشرف سينتهك يوم تعم بطالة سائدة في النفس فتنكفئ الذات ذليلة ، حسيرة ، بائسة بلا عرق ينضح ولا جسد يتعب .. يستعيد تشارلز ديكنز ومساره الروائي المميز في جعل أبطاله من الطبقة المسحوقة في وقت كان الأدباء لا يعيرون اهتماماً لتلك النماذج . لقد قرأ لستيفان زفايج وهو يحكي عن تجربة ديكنز الادبية أن ديكنز كان ((يتلمس ابطاله وسير الحياة في شوارع الضواحي الضيقة ، في تلك الشوارع التي كان الادباء الآخرون يمرون بها غير آبهين ، إذ كان هؤلاء يتلمسون ابطالهم تحت اضواء التيجان في قاعات النبلاء ، وعلى الطرق في الغابة السحرية الواردة في اساطير الجن .)) . من هنا كان تفرده ومغايرة تناوله ، فأسر قراءه ؛ خالقاً ادهاشاً متأججاً ومتراغياً في نفوسهم ، ما جعلهم ينتظرون اجزاء روايات كانت تأتيهم على شكل حلقات محمولة في صناديق تنقلها العربات فتستحيل حين تصل كنوزاً ادبية يهرع اليها القراء الشغوفون ، ممن يرون في المطالعة سلوكاً انسانياً راقياً .

ها هو يتخذ من منضدته المربعة في الغرفة التي أرادها صومعة لتدويناته بعيداً عن اية ضوضاء تأتيه من الشارع حيث شاءت الاقدار أن يستأجر شقة في الطابق الثاني من بناية بثلاثة طوابق وسط حيرة ابناء عمّه وعتبهم عندما رفضَ رجاءَهم والحاحَهم أن يسكن معهم فتقدم له زوجاتهم وبناتهم واولادهم الخدمة اللازمة ليعيش هانئاً ، فليس معقولاً في مدينة هو ابنها واقرباء هم بمثابة أهله يبقى يعيش مستأجِراً كما لو كان غريباً من مدينة بعيدة أو من بلد آخر .

فضَّل الغرفة التي بنافذة واحدة صغيرة للكتابة .. منضدة عليها (اللاتوب) ، ومزهرية من الكريستال اخذت شكل زهرة اللوتس بعنق طويل وقد انبثق من جوفها غصنان اخضران يحملان زهرتي رازقي ثلجيتين وناصعتين ووريقات خضر داكنة تتدلى من الغصنين بغنج . وعلى جانب صفوف الكتب المتعالية والمجلدات التي تشبه آجرات سوداء .. وامامه حيث يرفع راسه من اللاب توب يواجه بصورة مزججة للوركا يقف ببدلة حضرية تعكس طراز ثلاثينات القرن العشرين حيث لم يترك له القتلة فسحة ان يعيش اعوامها خلاقاً منتجاً عَلَماً . تلك الصور حملها معه من العاصمة ، إذ يرى في لوركا رمزاً لحياة لابد ان يجسدها الانسان يافعاً ، واثقاً ، متوهجاً خلقاً وابداعاً .. وجعل الغرفة التي تطل على الشارع بشرفة ويدخلها ضوء النهار ببهرجة واحتفاء مكاناً لنومه . أما الصالة فلتناول الطعام ومتابعة ما تقدمه الفضائيات من تلفاز فضله من نوع سوني وضعه في زاوية يستطيع وهو يعد طعاماً او شراباً ان يلمح ما تقدمه هذه الفضائية او تلك .

هو الآن يجلس في فضاء الصمت وباع من الاستعداد ليدوّن استهلالاً لرواية قرر أن يوظّف لها جلَّ وقته ، ويجنّد كل ادواته وصولاً الى قناعةٍ تُقر بأنه صمَّم ففعل ، وكتب فأنتج .. فضَّلَ أن تشرع الرواية بصوت الراوي العليم .. والراوي لا يمكن أن يكون الا محمد البوعزيزي .

مسّت اصابعه نوابض الكيبورد وراحت تضغط الأحرف لتدوّن :

((آن لي أن احدثك ايها القارىء بما يجعلك تتابعني وتقتفي خطوي برغبة مَن يريد أن يكتشف فيدخل لعبة التتبع حتى نهايتها .. هذه اللعبة التي بالتأكيد سيدفعك الفضول الى التسلل الى داخلي لتعرف بماذا افكر وكيف اتصرف ومتى اشرع بخطة اضعها ونتائج اسعى للوصول الى تخومها ... أسمي طارق . وبمثل ما اخبرتني امي ودوّن في بطاقتي الشخصية انني ولدت في مقدم ربيع العام 1984 . ولم يبق من انتهاء شهر مارس غير يومين . لذلك حين يسألني احدهم هذه الايام عن عمري اقول دخلت العام السادس والعشرين توّاً ؛ لأنني اتحدث اليكم في اول شهر ابريل من العام 2010 . وعندما اتطلع في المرآة ارى شاباً تتشرب وجهَه سمرةٌ تخفي صفرةً حذَّر طبيب المشفى أمي من أنني سأصاب بفقر دم إن لم تصبح تغذيتي جيدة .. هذا الكلام سمعته وانا طفل . وللحق اقول انه لم تتخلَّ الصفرة عنّى حتى وأنا أدخل ميدان الشباب .

أحب هذه الكنزة الجلدية السوداء التي تجمع نصف جسدي العلوي ، فهي تضفي شيئاً من امتلاء كاذب يفضحه بنطلون البسه فيظهرني أنتصب على قصبتين خاويتين . وحسناً فعلَ المصور العجوز حين التقط لي صورة نصفية في حفل عقد قران صديقي قادري . قبل ثلاثة اسابيع))

كلمة قادري استفزت الجزيري ، ورأى أن عليه استبدال الاسم . فليس من المحبب ذكر الاسماء الصريحة في العمل السردي .. عندها جعل المؤشر يحذف اسم قادري من النهاية حرفاً فحرفاً ؛ واقترح اسم (خليفة) بديلاً ... ثم عاد ليكمل بوحاً تحدث به طارق .

((الصورة التي أراني اياها المصور العجوز عندما مررت أمام دكانه واستوقفني للحظة اعجبتني ، فنقدته سعرها .. الصورة أظهرتني اصفق بانتشاء .. نعم كنت منتشياً اتخيل يوماً اشهد فيه خليفة ومريم (في البدء كتبها عائشة لكنه سريعاً استبدلها باسم مريم) يقطعان الشوارع او يدخلان السوق معاً .. زوجان اغدق عليهما الله هبة الارتباط الابدي .. لقد ابتسم لي خليفة ابتسامة الصديق الحبيب لحظة ومض فلاش كاميرة العجوز ، وابتهج حين التقيته .. في اليوم التالي كانت البهجة كبيرة عندما عرضت عليه الصورة ويداي منطلقتان في التصفيق توافقاً مع اهزوجة العقد يرددها الاصدقاء .))

اوقف الضرب على احرف الكيبورد عند هذا الحد . وراح يستعيد مشهد عقد القران .. شاهد فيه محمداً في غمار المشاركة يصفّق ويضم صوته لمجموعة الاصوات المتآلفة التي تتغنى بالعريس الموعود وهو يحظى بالعروس التي ارادَ وتمنى ... يردد ويبعث بنظراته لقادري يعبر فيها عن السرور الجياش ؛ وقادري يجيب شاكراً بابتسامة عريضة وبرموش تنطبق وتنفرج تعبيراً عن الامتنان مقروناً بأمل رؤية صديقه يوماً يدخل قفص الذهب هو الآخر ، شريكاً مع مَن يختارها او تختارها له امه .

وجّه اصابعَه لتدوّن :

((حين شاهد خليفة الصورة فرح كثيراً ، وقال : سأصفق لك في حفل عقد قرانك ، وسأطلب تصوير تصفيقي ، تماماً كما أنت فيها الآن .. ليس لنا يا طارق الا ان نبتسم علوّاً على الجراح . وليس لنا الا ان نؤرخ افراحنا بصور نقول بها لأحفادنا رغم اننا لا نعيش كما ينبغي لكننا لن نستسلم لليأس .. اليأس قاتل إنْ نحنُ احنيناً الرقاب لجبروته . لابد أن نوقن أنَّ في نهاية النفق ثمة ضياءٌ نجعله هدفاً لإدراكه حتى لو تطلَّب ذلك منّا الزحف .

كلامُ خليفة فيه أملٌ حتى وهو يعاني بطالةً وينسحق تحت رحى الوقت الثقيل والاعوام التي تفر من حقل عمره .

اليوم عدتُ مبكراً من البيع . اسندتُ العربة جوار الباب .. ضغطت على زر الجرس فواربت حليمة الباب (جعل اسم حليمة بديلاً لليلى) .. حليمة اختي . لها من العمر اربعة عشر عاماً . هرعت لتساعدني في حمل الصناديق وادخالها الى حوش الدار، فردَّتُ :

- الله يحفظك .. سأتولى الامر بنفسي .

لا أريد ان تتسخ يديها وملابسها بما تنضحه الصناديق من عصير الفواكه المترسب في القاع ، ولا لكفّيها أن تخشوشنا .

استقبلتني زبيدة (استبدل اسم منوبية بزبيدة) بلسان الام الرؤوم . تطلب أن اتوجه للاستحمام وطرد التعب وجهد الساعات فيما تنادي على اختي كريمة (جعلها بديلة عن اسم سامية) أن تعد الغداء . والغداء كالعادة كسكسي يتشرب بمرق وحمص وكتلة لحم بقر كبيرة تخصصها لي.. تقول بلسان يقطر رقة :

- العامل لابد ان يتناول وجبة غداء غنية .

اخبركم ان لنا دكاناً كان الاب يعمل به حداداً ، تركه لنا بعد غيابه الابدي... اخي عادل (بديلاً عن سالم) وجد فيه مضيعة للوقت ؛ فالتكنلوجيا الحديثة جعلت ادوات المزارع في حقله كالمحاريث والفؤوس والمجارف والسلاسل محلية الصنع صناعة بائرة . صارت تستورد من مناشيء تبيعها بسعر ارخص بكثير ممّا تبيعها الصناعة المحلية . أما أنا فوجدتُ في الدكان سجناً . أردتُ لحياتي العملية أنْ لا تحددها الجدران ، انما التجوال : عربة وخضار وفواكه وساعدان يدفعان وشوارع تستقبل ؛ كل ذلك عالمي الاثير . فكيف لي ان أُختَطَف من عالمي لأغدو اسير عمل لا طائل منه .. إزاء ذلك فضلت امي تسليمه للمؤجر بعدما تركناه مغلقاً لما يزيد عن عامين .))

رأى الجزيري أن عليه ان يجعل طارق يتصرف بعفوية العامل القادم من نسيج هذا المجتمع لكنه أيضاً ينظر بوعي لما يرى ويجري حوله .

تمنى الجزيري لو ان بطله طارق يحمل مستوى علمياً لكان بث من خلاله آراءه . أليس معظم الأدباء يبثون آراءهم ورغباتهم في التغيير بين الاسطر وفي ثنايا الاحداث سواء كانوا شعراء أو روائيين ؟

كانت وجهة نظر الجزيري تؤكد أن الدخول إلى مركز حركة المجتمع يتم عبر الأدب ، انطلاقاً من أن الادب وجه من أوجه الثقافة الفعالة التي ترفع من رؤية الإنسان للحياة . أدب ينبغي أن يكون سامياً يرج صمت الاشياء ويدفع الناس إلى أن يتحركوا تقدماً إلى أمام لا عودة إلى الوراء .

لقد جاهر كثيراً وهو يتطلع الى حركة المجتمعات العربية ويرصد بعين المثقف الاديب أنَّ ما يفسد اجواء مجتمعاتها اليوم ويعكر صفوها هو اهمال الثقافة وتهميش المثقفين ؛ بل ومحاربتهم ، والنظر الى الثقافة كعدوة والمثقفين اعداء .. لم يتعظوا من مثال هتلر يوم اعلن حربه على الثقافة فاعلن في الوقت نفسه – دري او لم يدرِ – انه انما يعلن بداية هزيمته .

(11)

فصل الحـــــــــــــــلم

يتجلّى النوم رحلةً للوعي إلى محطات زرق الجسد بعقار الاسترخاء ، فيتوارى ، هذا الوعي ، شيئا فشيئاً مسلِّماً زمام الجسد ودفّة القيادة إلى اللاوعي ... هناك ، داخل الدماغ ، تبدأ رحلةٌ جديدة يجري خلالها مطالعة فعل الوعي التي ستقود إلى الغربلة والتصفية حيث بعض حجيرات الدماغ تتولّى تفريغ ذلك الفعل الذي بمجموعه جملة أحداث جرت في عالم الوعي / اليقظة تبارت يوماً ما اللغة فأوجدت لها مصطلح (أحلام) ... وصار يُطلق على هاتيك الأحلام صفةَ الأضغاث .

فالأضغاثُ صورٌ مبتورة وكلمات متداخلة لا رابط بينها .

واذا كانت الاحلامُ فعلاً تجري وتتم من خلف سدود الوعي في رحلة نوم طويلة فإنَّ أحلاماً اخرى يحصل حدوثها ساعة الوعي ويجري الحديث فيها عن رغباتٍ يراد لها أن تتجسد ليتحقق للحالم فعل السعادة .. وكان إنْ أُطلق على مثل هاته الاحلام بـ (احلام اليقظة) ..

صار الحلمُ من هذه الاحلام رديفَ أمنية وأمل في تحقيق مرام .. غدا أرجوزةً على أديمٍ ينتظرُ إيقاعاً مُنغماً ليرقصَ النسيمُ وتحتفي الروح .

وهنا ! ... وما دمت تعيش في وطن يسلبُ منك كلَّ شيء فليس لك غير احلام اليقظة تقتات على زيارتها لك ، أو انت ترحل اليها في ساعة هرب .. سيقال حتى الأحلام صاروا يترصدون حضورها في المنام فيعيقون وصولها ، فيجيء الرد : نعم بدليل أن ما تحقِّق من فعل الزيارة هي الكوابيس ..

وحتى الكوابيس صار يُخشى الادلاء بتفاصيلها لئلا يُتهم المواطن بجريمةِ ارتكاب عقله لاستدعائها واستقبالها من قبله ..

قبل ايام سمع قادري من صديق له حكاية توشيها الغرابة ، تبعث على الضحك قادت إلى مأزق وقع به ابن عمه . فقد جرى لابنَ العم هذا حلمٌ مرَّ به إلى أمرٍ كاد يفجّر معركة بين عائلته وعائلة جيران لهم يبعدون عنهم زقاقين وعشرة بيوت . يطلق الصديق ضحكةً كلّما تخيَّل ما جرى لابن عمّه إذْ ساقه سوء الحظ إلى أن يحلم في ليلةٍ كابوسية بملكِ الموت يقتحم عليه غرفتَه ويجثم على صدره ويختلس انفاسه ، ويتركه مبعثَ نواحٍ للعائلة حين يبزغ نور الصباح ويستبطئ أهله تأخرَه في منامه .

تسلَّلت اصابعُ ملك الموت تحيط رقبته لتطبق قبضتها الحديدية المميتة .. سمع المسكينُ ، لحظة كان يصارع من أجل نفَس يتسلل إلى رئتيه ، سؤالَ ملك الموت :

- ألست انت راضي بن سالم المرزوقي ؟

- كلا .. كلا.. جاءت كلماتُه من بين حشرجات الانتهاء .. هناك جارٌ لي اسمه راضي بن سالم المرزوقي ؛ أما انا راضي بن سالم الجمل .

لحظها انتفض المختلِس وقد أرخى قبضته :

- واين يكون شبيهك في الاسم هذا ؟

- في الزقاق الثاني بعد عشرة بيوت من هنا .. ردَّ بين رعبٍ ما زال يشل قواه وفرحة شرعت تخضر في قلبه ..

مع قدوم الصباح تناهى له صراخ وعويل ، وخبر فاهت به الألسن :

- مسكين راضي بن سالم المرزوقي مات شاباً دون مرض مستديم او أعراض مسبقة .

بعد سبعة ايام ، وفي حديث مع بعض الاصدقاء راح المحظوظ يقصُّ حكايةَ ملك الموت وكيف زاره ليخطف روحه ثم تركه للاشتباه باسمه ، ثم توجهه إلى جاره الذي لا يبعد كثيراً عن بيتهم بعدما اتضح انه كان على خطأ في المهمة .

ولم تمر ثلاثة أيام على قص الحلم حتى اندفع عدد من افراد عائلة الميت يطالبون بالثأر ، يزبدون ويرعدون .. وحين استوقفهم الناس للاستفسار جاء جوابهم أنَّ وفاة اخيهم حدثت بفعل هذا الجار الذي أرشدَ ملكَ الموت عليه .

بهت الناس بين مستهزىء من فعل المغيرين وبلادة تفكيرهم .. ولم تُجدِ محاولات المنصفين بإقناعهم انَّ ما حصل تمَّ في الحلم ولم يحصل في الواقع .. ولم تنته المشكلة الا في جلسةٍ دُعي لها كبار القوم فافتوا بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار لحسم الأمر وغلق الموضوع . ولم يكن غيرُ الحلم سبباً في انبثاق مشكلة ((لا على البال ولا على الخاطر)) .

حلم محمد البوعزيزي

كان محمد البوعزيزي يحلم كثيراً ؛ لأنَّ في الأحلامِ خلق . وفي الخلقِ حياةٌ معترفٍ بها .. هكذا يرى ... وحين كان صبياً حلم بامتلاك مصباح علاء الدين ليحك معدنة النحاسي مُخرِجاً المارد ليردد عبارته الخدمية الخانعة (شبيك لبيك .. عبدك بين يديك) فيأمره بتنفيذ كل متطلباته وأمانيه .. حلم بحيازة طاقية الإخفاء ممنياً النفس بتحقيق كل ما تمناه أبوه الذي عانى من ضيق العيش ، وما لاقاه جدُّه من عَسفِ الفرنسيين إبان الاحتلال ؛ مزيلاً تفاصيل الأسى وتهافتات الأحزان .

ولقد حلم كثيراً أن يكون خيميائياً ينتج ذهباً في مختبر تخيّله يحتوي جميع العناصر التي تدخل في صناعة الذهب : كتل الحجر الذي يمتزج فيه المعدن الغاوي ، كير النار ، المنفاخ ، الأواني الفخارية التي تتحمل الدرجات العالية جداً في عملية صهر العناصر ومزجها . فصورة جواد بوجدرة لا تفارقه وهو يخطو شارد البال أو سارح في عمليات فيزيائية يجريها داخل بوتقة الذهن ، وجواد هذا كان خيميائياً يثير سخريةَ الناس وتفكّهَهم حين يمرق من أمامهم إن كانوا جالسين في مقهى أو مرابطين في دكاكينهم او منشدّين إلى مكاتبهم في الدوائر الحكومية . وحين تتسلل الحيرة إلى رأس محمد البوعزيزي عن مبررات هذا التفكه أو هاته السخرية تُقص له حكاية ذلك الشاب الذي ورث عن أبيه مزرعة عامرة بأشجار الزيتون والنخيل والمانغا والصبار والمشمش والأجاص وبئر ماء عذب تنتصب عنده مضخة لا تكلف نفسها سحب الماء عبر جهد كبير بل ترفع الماء غب ثواني معدودات لتروي به الأرض بدقائقٍ ، لذا يرى الناظر مزرعة غناء باهرة تثير الحسد وتؤجج الفتنة مثلما ورث بيتاً ناهضاً متميزاً يتألق بياضه البهي عند الجانب الغربي من حافة المزرعة . بيت تمنّى ليس فقط القرويون الساكنون بالقرب منه بل القادمون من مدنِ الساحل البحري . فهُم حين يتطلّعون تتبارى مشاعرُهم في تثمين ذوق ذلك الذي شيّده وأثثه وجعله منبتَ إعجاب ودهشة لا يتبددان عن ذاكرة مَن تطلّع إليه .

ذلك الشاب الذي اسمه جواد لم يقنع بما تركه له الأب والأم ، اللذان رحلا عن الدنيا ، من نعم وخيرات إنما كان أسير وهمه وهيمنة ولعه . فقد سقط بيده يوم كان فتياً كتاب أعاره إليه صديق كان مفتوناً بالخلق وببهرجة المظاهر وله خيال يرقى إلى خيالات صانع شخصية سندباد في حكايات ألف ليلة وليلة . فراح يقرأ ! ويقرأ ! .. وكلما قلب صفحة من صفحات الكتاب عظم شوقه وتفاقم فضوله لمعرفة ما تحويه الصفحة التالية ثم التالية .

كان ذلك الكتاب يعالج موضوعة كيف تكون خيميائياً فتصنع من عناصر الطبيعة ذهباً ، تماماً كما تصنع الطبيعة هذا الذهب الذي نراه يبهر العقول ويفتن النفوس ... ولمّا كان تشكل الذهب يحصل من امتزاج عناصر فيزيائية في طبقات الأرض بين ذرات التربة فبالإمكان صناعته من مزج هذه العناصر في مختبر، وبالتالي نصل إلى محصلة إنتاج ذهب يغدو محقق هذا الإنتاج غنياً لا يضاهيه قارون في غناه ، ولا يصل لذكائه وسر مهنته احد ، لا قبلاً ولا بعداً ... هذا السر سيعلمه لأبنائه ومن ثم ينتقل إلى أحفاده . يتذكَّر محمد البوعزيزي صورة ذلك الرجل ، وشرود الذهن ، وابتسامات السخرية المنفلتة من شفاه المتطلعين إليه ، وكيف استمر الحديث عنه بإشارة أن السنوات التي تلت فتوته أدخلته في انعزال وشده ، ذهول وتفكر . فليس غير إنتاج الذهب خيميائياً يشغله ، وليس غير ذلك البريق الذي يتخيله ينبثق من تلك البوتقة يبهجه ... بوتقة يغلي فيها السائل القادم من تمازج عناصر فيتجلى شعاعاً يهاجم عينيه فيملأهما تألقاً وانبهاراً ، مطلقاً ومضةً للدواخل كي تعجَّ بالسعادة ، وتضجَّ بالسرور .

هيمنة تلك الفكرة وذلك الخيال وتصميم تحويل الحلم إلى حقيقة دفعت الشاب جواد إلى أن يبيع مزرعته ليتخذ من غرفة واسعة من بيته مختبراً لتحويل خيالاته حقيقةً .

يشتري العناصر، يُعدُّ متطلبات إجراء التجربة ، ويدخل ميدان العمل : يمزج العناصر بكمياتها ومقاديرها فيفشل .. يعيد المحاولة ، ويفشل .... تنتهي العناصر فيشتري من جديد .. يهيء الملحقات من الاحتياجات : وقودٌ وأوانٍ ودوارق ؛ ويفشل مرةً أخرى . ينضب المال ؛ وهوس الوصول إلى مقصده يتفاقم . في القلب تصميم وفي العقل دافع إلى انه سيدرك مبتغاه ... الأيام تعاند .. والمختبر يقدم شهادات الفشل

والخيبة . والمصمم لا يتخلى عن تصميمه ، فيبيع البيت العامر ويشتري بيتاً بائساً في طرف سيدي بوزيد على أمل الوصول إلى مراميه حيث يتكوم الذهب أقراصاً أو مكعبات يعيد بها مزرعته وبيته ومن ثم يزحف على منشآت الغير يشتريها الواحد تلو الأخرى . سيجعل المزارع المحيطة بالمدينة ملكاً له كذلك ، وسينتقم ممن تندَّر منه وسفّه أفكاره .. سيجعله عبرةً لمن اعتبر . سيشتري بيته والمزرعة ويجعله عاملاً ذليلاً خانعاً في مزرعته يقتله ندم بيعها .

لكن ذلك لم يحصل فقد استحالت أحلام جواد بوجدره كوابيسَ . والخيمياء التي أغرته وخدعته قالت له في النهاية : الذهب لا يصل إلى أيدي المغفلين . وحتى إذا وصل سيستحيل تراباً يتسلل من بين اصابعه.

صار ذلك الرجل عبرة .. وصار محمد البوعزيزي كلَّما شاهده وقد غدا عجوزاً يستحق الشفقة انكمش ، وخاف . فتعتريه رعشة الخشية من الفشل في حياته .

حلم بامرأة تنتشله من واقعه اليومي المليء بالكمد لتأخذ به إلى جزر الهناء بعيداً عن العَسف الذي يلاقيه كلما نهض صباحاً وهم بالتوجه إلى سوق الخضار ، لكنه لا يريدها امرأة كما هي شادية ، متسلطة تجعل من القانون الذي خلق للنظام أداة للسادية تعذبه بمواده وفقراته ، مثلما حلمَ بحياة يرومها بسيطة لا تتعدى مدياتها رزقاً حلالاً وأماً ترش وراءه الماء وتدعو له بالبركة وابتعاد أولاد الحرام من رجالات الشرطة السرية عن إلصاق تهمة كاذبة به هو الذي لاقى ما لاقى من عسف وتنكيل لمجرد أنه ردد مرةً كلاماً احتوى مفردة (حرية) كما هي في فرنسا وعالم الغرب ، فانهال عليه فوّاز ، الشرطي الغليظ الطباع بالكلام الفظ ، صارخاً بوجهه : " يا ابن الكلب هل تجد حرية أحلى مما تراها في تونس الخير أم تريدونها حرية فرنسا ترون فيها أخواتكم تتناك أمام أعينكم فلا تحركون ساكنا ؟ "

تهشمت كل احلامه في العيش كما يتمنّى شاب تفتح على حياة ينام يومها على حرية ليستيقظ على حرية .. انهدَّت كلُّ صروحِ امنياته وهو يرى أن من سبقوه الى نيلِ العلم وتسلّق سلّم المعرفة يتّخذون المقاهي والارصفة ميداناً لاجترارِ الوقت ووأده .

من هنا اكتفى بعربة تصاحبه فتطيعه .. تمشي معه فلا تعارضه .. تحمل على كاهلها صناديق ثقال فلا تئن ولا تتوجَّع .. يخف ثقل احمالها فتعتريها رعشة فرح لا لأنَّ احمالها خفّت بل لأن رفيقها ثقل جيبه من ريعِ بيعِ تلك الاحمال .

(12)

خديجة بن عثمان والأرق

في ساعة ضجر كانت ، وإنْ هي في باريس .. في لحظة انقباض وإنْ تكن تمتلك حقول من المعرفة وتعيش في كنف زوج واولاد وشقة فارهة تحتويها .. ففي نظرة سريعة الى المرآة انبأها القلب بكآبة فضلت أن لا تهيمن عليها برمادها الخانق بعدما ألفت نفسها مأخوذة بأرق طغى عليها.. لم يشفع لها برحلة وسن قصيرة تقلل من تعبها اليومي في القاء المحاضرات ؛ بل اضطرها الى أن تنفّذ ما قرأته يوماً من نصيحة جاءت مع سيل نصائح يعطيها طبيب نفساني من أنَّ خيرَ وسيلةٍ لمقارعة الارق في السرير هو النهوض ومشاهدة التلفاز او الخروج لتنشيط الدورة الدموية وتلقي انسام باردة ، وهذان كفيلان بتفريغ الدماغ من الدم المليء بثاني اوكسيد الكاربون المسبب الاكبر للقلق ...قالت لزوجها ان نفسي منقبض ، وصدري كما لو كان مملوء بالدخان ؛عليَّ بالتمشي . لم يتفاجأ الرجل بما قالت . فمثل هذه الحالة كثيراً ما تراود اولئك الذين يعيشون بعيدين عن مكامن اعشاشهم التي ولدوا في دفئها وحميميتها ... نهضت ؛ ارتدت بنطالها وبلوزتها ، وتدرَّعت بالمعطف ، ثم هبطت من الشقّة . تطالع ما مشرع من محلات تفضّل البقاء ليلاً لعرض محتوياتها .

تهمُّ بالجلوس في مقهى فتجد أنْ لا ضرورة لذلك فالتجوال افضل .

والتجوال هذا أخذ منها ساعةً صرفتها على ارصفة كانت تلتهم خطواتها ، وعين تمتلىء بما ترى .. حتى اذا فرغت صار فضاء الروح يعج بالارتياح ، وصارت العودة رغبةً .

ترتقي درباً تصاعدياً يختصر المسافة الى الشقة فتجد نفسها عند نصب برونزي نصفي ، على يمين باب لبيت بطوابق متعددة . نصبٌ يندلق عليه ضوء حليبي من مصباح وضع لجعله يعيش الضوء الدائم ، ليلاً حتى الصباح .. حين طالعته وجدته لامرأة انبأتها الكلمات المنحوتة على قاعدة رمادية مستطيلة انها للفنانة داليداً التي قضت منتحرة في العام 1987 . تأملت وجهها فخيل لها انها تحتفظ بذهول عجيب او تأمل صوفي .. نهداها يعجان بحيوية جعلهما النحات يرمزان لحيوية طاغية ؛ كأنه أراد ان يوحي للناظر برؤية أنْ كان على داليدا ان لا تستسلم لليأس وتسلك طريق الموت البطيء على سرير شراشفه بيضاء في غرفةٍ ستارة نافذتها وردية أسدلتها بإتقان .(هل ارادت باسدال ستارة النافذة قبل الشروع لانتحارها اسدال الستار نهائياً عن حياتها الضجيجة بالإنجازات الفنية والنجاحات الكبرى فلم تترك للضوء فسحة للتسلل ؟) .

ترفع بصرها الى نوافذ الغرف العليا من بيت كان لها فترى احداها مضاءةً ... شبّه لها أن داليدا هناك الآن ، تجلس امام المرآة تُسرّح شعرها بمشط التساؤل بكيف ستظهر على المسرح ، واي فستان سترتدي ؟ .. تخمّن استجابة الجمهور لأغنيتها الجديدة ورد فعل (برونو) مدير أشهر قاعة موسيقى في باريس حيث كان يجلس يتابع ما تقدمه ، ويسائل نفسه ان كان على حق في اختيارها لتغني على مسرحه .

عند عودتها ودخولها الشقة وجدت زوجها ما زال يقظاً يتابع فيلماً رآه شيّقاً ومثيراً ، يحكي قصة فتاتين احداهما في امريكا والاخرى في انكلترا . الفتاتان تعانيان من سلبية حبيبهما . تحاورتا عبر الانترنيت فاقترحت احداهما على الاخرى ان تستبدلا الاجواء . جاءت الامريكية لتعيش في كوخ ريفي تملكه الفتاة الانكليزية بينما طارت الانكليزية لتصرف عطلتها في بيت الامريكية الفاره ، البائخ .

لبّت خديجة بن عثمان رجاء زوجها ان تجلس ليتابعا الفيلم سوية فلم تمانع . انما اثار فضولها الشرح الذي قدمه .. التصق بها وضمها بذراعه الى صدره ، وراحا يكملان ما يحدث للفتاتين ، وما ستؤول اليه خاتمة الفيلم .

في اليوم الثاني .. كانت صفحة الفيس بوك تحوي حواراً بينها وبين الجزيري ..

حيّته ، وحيّاها .

كلمته عن الفيلم الجميل الذي شاهدته وزوجها في الليلة الفائتة ، فعرفه .. قال ان عنوانه (عطلة .. Holiday) ، وأن الفتاتين الممثلتين هما الامريكية " كاميرون دياز " ، والانكليزية : كَيت ونسلت " وكلاهما حائزتان على جائزة الاوسكار .

كتبت له انها قضت ما يزيد على الساعة ليلة البارحة في تجوال فرضه الأرق ، وكرّسه الضجر ما اضطرها الى الخروج .

أراد ان يسألها عن مجريات محاضرة اخبرته ان ستلقيها على طلبة الدكتوراه في قاعة جامعة باريس الرابعة بعد محاضرة امبرتو ايكو عن روايته " مقبرة براغ التي تنبأ في لقاء صحفي أنها ستغدو مثيرة للجدل عندما يصدرها قريباً ، إذ سحلان ضيفين دعتهما الجامعة ضمن نشاطها السنوي عندما شاهد استمرارها بالكلام التدويني .. قليلاً وظهرت له الكلمات ، فقرأ :

- اخذت طريقي على الرصيف ، ونهر السين هادىء إلا من زوارق الـ " فيري " تنقل السهارى من السياح والباريسيين الذي يفضلون الهدوء على الصخب ساعات النهار .. كان الليل قد تجاوز الانتصاف ، وانا أخطو اتفرس في العتمة التي يستعذبها النهر (هكذا خيل إليَّ) .. صدقني لا ادري كيف توقفت مبهورة في ومضة اشتعلت في الرأس ؛ ورغبة ان اكتب .. ارتميت على اقرب مصطبة (ولحسن الحظ

كان ثمة مصباح يضيء مع ان المصابيح عادة ما يبعدوها عن المصاطب ليمنحوا العشاق ربما فرصة الاختلاء في عتمة) ، ووجدتني استل من جوف الحقيبة قلماً وكراسة صغيرة اعتدت حملها لأدون عليها ما اريد ان ابتاع عندما ابرح الشقة ، واستخدمها كثيراً حينما تنبثق فكرة او جملة او حتى عبارة لأكتبها لئلاً تنطفئ ويستحيل عليَّ تذكّرها وتدوينها في ما بعد ... اتعرف ماذا كتبت ؟

انتظرَ لعلها تكمل ، لكن حين طال الانتظار كتب :

- **ماذا كتبتِ ؟**
- **قصة قصيرة جداً .. انتظر .. سأبعثها اليك :**
- **حسناً .**

لم ينتظر طويلاً عندما جاءت القصة مرسلة بملف . حين فتحه وجده بخطٍّ مائل ، وبلا عنوان :

هكذا !! ... آثرت أن لاتدع البابَ يُصدر صوَت اصطفاقٍ فعالجت اغلاقَه بحذرٍ وقطعِ نَفَس ، ثم تحركت بقوامٍ متهالكٍ يخفيه رداءٌ أسود بلون العتمة التي تشيع على امتداد الدرب أمامها .. وحين تلقَّفتها اصابعُ الضوء المنبعث من مصباحٍ اصفر في نهايةِ الزقاق واستقبلتها الانارةُ الصارخة المنهمرة من كتلِ الضوء لأعمدة شارع الكورنيش المعدنية الشاهقة وجدت نفسها الوحيدةَ التي تضرب بلاطات الرصيف ووجدت النهرَ ينام فلم يأبه لإطلالتها من السور الفضي الذي نُصبَ حديثاً ليزيّن للنهرِ مشهدَ مَن يُطلّون عليه .. فقط الحارس الليلي مَن فوجئ بوقعِ الخطى وبهتَ لمرأى امرأةٍ تمشي الهوينى . حسبها من اولئك الذين يمشون في احلامِهم فآثر ايقاظَها بصفارةٍ منحها اقصى ما يمتلك من هواء الرئتين ، لكنها لم تكترث .. وإذْ دنا منها بغية تفحّصها القت عليه التحية وواصلت السير..

عرفها !

ستذهب الى آخرِ الطريق ، وتنحرف يميناً لتتَّخذ السلم المرمري نزولاً الى النهر .. هناك ستمد جسداً ناحلاً واعضاءً ضامرة على رملٍ تُخضّله رطوبةُ الهواء وتروح في حوارٍ كاذب مع رجلِ الذاكرةِ يأخذ منها ما تبقّى من الليل ، حتى اذا تفجّر صوتُ اذان الفجر نهضت عائدةً بخواءٍ من يوشك على الفناء .

لحقها بعد أن توقَّف قليلاً يحاور عقلَه إن كان سيقدم لها النُّصح أم يكتفي بمراقبتها لحين تتوارى ؟

لحقها ... أراد أن يقول لها: سيدتي لا فائدة من الانتظار ! حضورُك بعد انتصاف الليالي هو من فعلِ العبث .. الذي تأتين لتدخلي معه احاديثَ الوفاء رحل ، ولم يبقَ من أملٍ لعودته .

لحقها ! .. كاد أن يقول لها من حقِّكِ أن تفخري به وتجاهرين بحبك له لكنَّ انتظارَك هذا بلا جدوى .. لقد غيّبوه في ساعةِ بغض ، ومزّقوه بلحظةِ ضغينة .. أكبروا عليه حبَّك له مثلما اغاظهم هيامه بك .

انتظر عند ابتداء السلم عودتها من الشريط الرملي ... انتظر ، وانتظر ... تفجر صوتُ الاذان وبزغ الفجر لكنَّ الشريط هذه المرّة كان خالياً والنهرُ

استيقظَ على تراتيلِ صمتٍ ، وسكونٍ يشبه لحظاتِ مأتم مهيب وموسيقى جنائزية عارمة .

قرأها .. تابع الكلمات ، ولاحق العبارات ..

قرأها بكل جوارحه فاستشف سوداوية التعبير ورمادية الصورة .. تلَّمس الضياع يعتلج بدواخلها حتى وهي في كنف زوج يغدق عليها الطمأنينة ويطعمها عسل الاستقرار ، حتى وهي وسط قفزات ابناء يغنون لوالديهم ويستمتعون بحنوهما ، حتى وهي بعيدة عن مواطن الظلم والقهر والعسف .

قرأ حنيناً لا يجده المرء إلا في غمار لهفة لاقتناء شيء ثمين يعيش اجواءه ويتمرغ بالتفاصيل ..

قرأ الوطن بعيداً عنها أو هي بعيدة عنه . وهذا ما اعتقد أنه يراغي شوقها لترابه وسمائه ومدنه وناسه ويفجر بذرة الحنين. هذا الشوق الذي ينتج نموُّه ما يسمّيه الانكليز (homesickness) ، ويحسبونه مرضاً ممضّاً لا يُشفى منه ألا مَن عاد الى أجوائه .

همَّ بالكتابةِ ، لكنه ووجه بسطرٍ كان هو يريد تدوينَ فحواه .

- قتلتنا الغربة .. قتلنا الشوق الى الاوطان .

تذكّر محمد البوعزيزي وهو يتحدَّث متجِّمساً ساعة كانا وقادري يقطعون الطريق وصولاً إلى المقهى عن ذلك الرجل الاصلع المنفعل يوجّه لوماً وتعنيفاً وربما احتقاراً لأجيال استمرأت الخنوع وارتضت احجار الذل تمطر عليهم وهم يتلفتون مرتعبين ، هلعين بحثاً عن ملاذ يجنبهم الأذى .

اراد ان يصيغ الكلام ويحدثها عما اعتاد محمد البوعزيزي على ترديده في إدانةٍ من شابٍّ محدودِ التعليم لشعوب استمرأت الهوان فبات سلوكاً يومياً ، استحال جزءً مهمّاً من شخصيتها .. أراد ان يزيد في تعنيفه وكتابة كل ما يؤيد حنق محمد البوعزيزي وغيظه ، فكتب :

- أؤيدك في كل ما تشعرين وتكتبين .. اؤيدكِ واقدر عظم حنينك إلى الوطن وشم نسيمه لترتوين من شذاه . ولكن كيف لنا ان نتخلص من هؤلاء وهم يهيئون اولادهم لينتجوا احفاداً تتحكَّم برقاب احفادِنا .. يؤمنون بالتوريثِ فيمجّدون معاويةَ بن أبي سفيان لتكريسه الخلافة وراثياً ، وتركِه مصنعاً لإنتاج سيوف حزّ الرقاب لكلِّ من يرفع صوتاً يشكو الظلم ، ويناهض الجور والقهر .... فلو نظرتِ الى مصر لهالك اصحاب الالسن المغموسة بالرياء واللاعقة عسل الخنوع تمجِّد جمال مبارك وتعد البائسين بقائد سيضاعف فترةَ حكم ابيه .. في ليبيا يتبارى الاولاد ليجعلوا من البلاد المترامية الاطراف ضيعة لا يتعالى فيها غير رائحة الحشيشة تتفشى من سجائر تبغها لا يتلقف النار الا مع هذا النبات السم .. في اليمن قبض الرئيس على الحريات الا حرية واحدة هي قضم القات ليس حباً في شعبه بل وسيلة لتخديره فترك تجارته المربحة تدفع بسطاء المزارعين إلى قلع شجيرات العنب ذي المائتي نوع ، وانتزاع شجيرات البن من قلب الارض بعدما عرف عن بلد الطيبين انها الاولى في العالم في انتاج هذه الثمرة التي تهب الانسان نباهة ويقظة يحتاجها في مضمار كفاحه اليومي من اجل البقاء .

(13)

ليلـــــــــــــــة سجن

ذلك الصباح خرج محمد البوعزيزي كالعادة وفي جيبه رصيد أن لا يوقفه مراقب بلدية ولا تتابعه عين من أعيان الامن .. ذلك الصباح كان عادياً شأن الايام الاربعة التي مرت .. لم يهجس كما هو شأنه ما يشير الى أنَّ حدثاً سيربك عمله ... اوقفه كثير من المارة فابتاعوا ما رغبوا من فاكهة وخضار .. وهو في كل عمل يؤديه يشكر السماء ويدعو للجزيري بالخير فقد ذهب ظمأ الخشية وابتلَّت عروق الطمأنينة .. وكلما راجع

ما يلاقيه من جور البلدية بحقه لا يجد في ما يرونه تجاوزاً هو تجاوز بحق ..هل وقوفه في غير الامكنة المخصصة للبيع سيضرب المدينة زلزال وتتهاوى البيوت وتنحرف الشوارع وتتفكك الابنية ؟ .. هل ستعم الفوضى ويغدو الناس كما لو كانوا في غابة ؟ هل عربته بما تحمل من بضاعة يسيرة ستهدُّ الارضَ وتُربك الوجود ؟ ...

المهم انه كان نهاراً لا يشي بما يثير التوجّس ؛ فقد وصل الى زقاقه المعهود ، واستقبله جندوبي بتحية الصباح الرائقة ، وخرجت النسوة يبتعن فلم يخرجن رؤوسهن من الشرفات ليرين ان كان قد حضر ام تخلف ، وشرع بكلامه المرحّب وبساطته المعهودة يلبّي طلبات المشترين : يعرض البضاعة بطريقة يسيرة على المتبضّعين .. يلتقط البضاعة التي يراها لا تليق بالمتسوقين فيرميها في صندوق القمامة ، يستلم النقود ويعطي ما يتبقى لأصحابها ، يستقبل هذا ويحيي ذاك ، يرتشف القهوة المرة من قدحِها ويشكر جندوبي على اعدادها .. ينصرف النهار عنده بهذا الجهد ويتأمل العودة بما مَنَّ الله عليه من رزق ... لكن نهار اليوم ذلك الذي بدا صباحه اعتيادياً لم تكن ظهيرته كذلك .. فما ان خرج من الزقاق مع انتهاء صوت اذان الجامع القريب حتى فوجئ بسيارة مفتش البلدية البيك آب تتوقّف وتعيق تحرك عربته ، فينزل منها صابر بعينين محمرَّتين وغضب جامح :

ـ لقد صبرنا عليك كثيراً يا ابن البوعزيزي .. وصبرنا اليوم نفذ .

التفت الى اثنين من الشرطة جاءوا معه فطلب منهم حمل العربة ووضعها في مؤخرة السيارة ، واشار عليه أن يراجع البلدية ..

لم تنفع الرجاءات ، ولا التوسلات .. ولم يولِ صابر بالاً لتعهد بانه سيتوقف عن البيع لحين ايجاد سبيلٍ لتطبيق قانون البلدية .

لم يرد أن يقول انكم بفعلتكم هذه تهشمون جدران تجلّدي ، وتطيحون بهيبة تحمّلي ..

لم يرد أن يسمعهم القول : " إني عانيت الكثير منكم ومن قوانينكم ، وتلقّيت الكثير الكثير من حجارة اذلالكم ." .. لكن الذي في داخله انتفض فجأة انتفاضة الحر ، فقال كل ذلك . وزاد عليها قائلاً : " انكم ظلمة ، متجبّرون . "... وهذا ما تمنّوه أن يصدر منه .

اندفع الاثنان بأمرٍ من صابر . فألقوا القبض عليه واقتادوه الى سجن البلدة .

*****

تلك الليلة قضى محمد البوعزيزي الساعات موقوفاً على ارتكابه جريمة (الكد من أجل العيش) ، التي تأخذ تعبير جريمة (مخالفة القوانين) في نظر سلطة لا ترحم . فزجَّ في زنزانة تجمع موقوفين على ذمّة التحقيق . فيهم مَن سرق بدافع الحاجة ، ومَن تشاجرَ من أجلِ حقٍّ اغتصب عنوةً ، ومَن طعنَ جاراً له بسكّين في ساعةِ غضب . ريفيٌّ اتُّهم من قبل جمعيته بتحويل الماء ليلاً لمزرعته تجاوزاً على حصص الاعضاء ، وشابٌّ دون العشرين ساقه الفقر الى الجنون فاعتاد خلعَ ملابسه والبقاء عارياً يخطو في الشارع وسط تهكّم الصبية وقهقهاتهم الحادة ، وتأسي الكبار ، وهروب النسوة مندفعات في الازقة والدكاكين تسكب افواهُهن عبارات الحِشمة وعيونُهن امطارَ الخجل .

تلك الليلة عادَ الجزيري الى شقته حزيناً ، بئيساً ، ومقموعاً .

وفي غرفته التي احتوته بصمتها القابض وشعور أنَّ الحال غدا لا يطاق راح يضغط على ازرار الكيبورد ويدخل على شبكة النت علّه يجد الضوء الاصفر يشع من اسم خديجة ليفضي لها بما يملأ القلب من كدر ، ويكتب أنَّ بطل روايته طارق اليوم في السجن يقضي ليلةً طويلة وعسيرة موقوفاً جراء البيع دون ترخيص . لكأن فعل العمل لغرض الاستمرار بالحياة جريمة تستحق العقاب بأدوات الذل وهدر الكرامة .. لكأن أداء الواجب الانساني برفض قانون البطالة فعلٌ ينبغي ان لا يمر دون ردع .

خذله النت ، واستمر القرص الدائري شاحباً بلا لون ؛ وخديجة تلك الليلة تترجّل صحبة زوجها صوب مطعم (ووك) في الحي اللاتيني ، حيث تُقدَّم الاكلات العربية من الطعام الحلال بعد أن كان هذا الطعام يُقدم في مطاعم صغيرة تقتصر على الكباب والكفتة... تناولوا وجبة من الكسكسي اشتاق الجميع لتناولها بعيداً عن مطبخ البيت ورغبة في ملاقاة بعض من التوانسة للدخول في احاديث هم في حاجة اليها كلما ابتعدت تونس عن الذاكرة جراء دوامة العمل وبُعد المسافة ... إذاً لم يشاهد الضوء الاصفر يتوهج رغم اكثر من ساعتين كان فيهما يدوّن ما يريد تدوينه عن محمد البوعزيزي مختلساً بين الحين والآخر النظر الى الدائرة الشاحبة .

أمّا قادري فلم يكتب تلك الليلة ما اعتاد على كتابته يومياً عن عاطفته تجاه عائشة ، ولا عن كيف قضى نهاره وانصرفت الساعات وسط شعور بوظيفة صارت امنية بعيدة المنال ؛ انما اوعز لأنامله ان تضرب على احرف الكيبورد ارجوزة الالم وسوناتا الأسى ؛ فضَّل أن يضع لها عنوان (تراجيديا يومية) ؛ وآثر أن يجعل مفردة الحزن ايقونة للاستهلال ، فكتب :

حزين هذا الواقع .. وبائس .

متهالك يومنا وذليل .. احلامنا تفرُّ هاربةً من مخيلتنا .. ومرتعبة تعدو. تلوذ في أزقة التشوش ، وتتوارى في نور اليقظة فتواجه بهراواتهم .

ملاحقون (نحن) في اليقظة والحلم . وقديرون (هم) في البطش والعنف .

مَن يقاوم حماقة منظومة عتاة موتورين ، ويقف بوجهِ مخالبَ معدنية صُنعت للتمزيق ؟ مَن يتمتع بإرادة صلابة القرميد او البازلت ليهشّم دروعَهم المطعمة بالغلِّ والانتقام ؟ وكيف للواحد منّا الوثوق بالآخر وقد غدت الوجوهُ بأقنعةٍ متنوعة تتمتع بقدرةٍ خارقة على نزعِها والظهور بوجه آخر ، وآخر ، وآخر ؟!

أفقنا على واقعٍ مؤلم ، وبائس ، وحزين .

أفقنا على بن علي يمسك بعنق الوطن ، ويدوس بعقب قدمه على اعناق المواطنين .

وكانت الليلة تلك ثقيلةً على الجميع .

ثقيلة ! .. ثقيلة !.. ثقيلة .

الفصل الثالث

غالبا ما يكون الشهيد ضرورة تحتمها الثورة .. أية ثورة .

غوغان

(كتاب الفن الاوربي الحديث)

... وهكذا هي الأيام ، نتداولها . صفحاتٌ تُملأ بوقعِ خطانا فنصيرُ شجناً للقادم بجَملِ رحيلهِ وبحثهِ . . نتركُ بصماتِنا لوعاتٍ ولوعات ..

نستحيلُ حكايةً على لسانِ راويةٍ وفي آذانِ منصتين ..

ننثرُ بذورَ الاماني فنحصدُ سنابلَ الشقاء .. إذا فاتَ لنا موعدٌ حَزِنّا وانكسرنا ، لكننا بعد لأيٍ ننهض ! نتعثر بجراحنا على أمل أن تستقيمَ لنا الحياةُ من جديد ، وترفَّ إزاءنا ، وإنْ خطأً ، رموشُ الحظ .

أترانا نتجنّى على زمنٍ ولدنا فيه أمْ هي الارض أمٌّ رعناء لفظتنا متنكرة لأمومة مرتجاة وعاطفة جيّاشة ؟

... وهكذا هي الأقدار تجيء بغيرِ حسبان .. تجيءُ بالفجائعِ فتفجّر في عيون الفقراء الدموع . ترشق وجوهَهم بحشودِ الآهات ، حشداً فحشدا بينما تُدبِر مولّيَةً من عيون ودواخل الاغنياء المترفين دبراً فأدباراً .

ساعة تطالع وجهَ فقيرٍ مسحوق وتتفرّس في تقاسيم البؤس الطافح من عينيه لابد أن يعتريك شيء من الرهبة فتلعن بلسان الغضب كل أولئك الذين آثروا قَصر السعادةِ مشيَّداً على اساس بؤس المعدمين .

طوال الليل تجهش منوبية في بكاء مرير كلما تذكرت فجيعتها بابنها وعاد اليها ذلك الطفل الذي كبر على ايقاع الالم وعسر الحال ، ما تلبث أن توقف سيل الدمع الجاري مدراراً على وجنتيها الضامرتين لائذةً بالصبر وداعية له بالرحمة والغفران .

يأتيها صوت يشبه همس المواساة :

_" إنه الفجر !..

تراه من خلال ستارة الزهور المرسومة على القماش التي انفرجت بعدما رفعت يدها تزيحها قليلاً ينشر رصاصه في السماء ويدعو لون الرماد أن يبقى كتلا تناهض حضور الضياء . تنهض متثاقلة تنفض غبار الحزن لأداء الصلاة تاركة الوسادة مبللة بسيول الدمع بينما سيدي بوزيد تستقبل نهاراً تراه جديداً فقد فرَّ الرئيس بن علي وتهاوت تلك الصومعة التي ارعبت المدن وصار الناس يطالبون ليس برأسه فقط بل بملاحقة اتباعه ، أدواته التي كانت مثل الدخان يتسلل الى البيوت ليملأ الصدور بهواء الهلع ويتفشى في انسجة اجسادهم فيستقر ذرات لا تبرح اوردة الدماغ .

توضأت منوبية بعدما جرَّت جسداً منهكاً وانتصبت على سجّادة الصلاة محنيّة الظهر . وقبل ان تتمتم بمفردات الأذان وتدخل في محراب التوحد مع الله تذكرت لحظات نهوضه واعداد العربة للتوجه ليحياوي كي يعطيه ما سيبيع من صناديق الفواكه والخضار .

(1)

الشيخ يتذكر .. الشيخ يبادر

في الايام الاخيرة وقبل تحويل تصميمه إلى فعل كانت منوبية تبصر ولدها ساهماً ، منعزلا فتدرك أنه وسط دوّامةٍ من القلق لموقفٍ لا بد له من الافضاء به . فهو لا يخفي عنها شيئاً . يراها بوصلته التي يستعين بها كلما واجه موقفاً يتطلَّب أخذ المشورة .. تأتيه بقلبٍ يخفق خشيةً ، ونظرات أمومة تهمي طَلاً من الحنان :

- ما بك ، يا ولدي ؟ تخاطبه : عش ليومك كما يعيش اصدقاؤك . انفض عنك بثور الهم فالله واسع الرحمة يغدقها عليك برضا . لا أريدك يائساً .

لا تدري أن اسبوعين ثقيلين سيمرّان عليه والعربة مركونة عند باب البيت .. لا تدري أن اسبوعين كاتمين ستتراكم ايامهما كالجبال فوق رأسه .. شعور بضياع قاهر لمن مارس عملاً كان مهنة ثم أُجبر على تركها .. تركها يعني تكبيله بأصفاد حديدية ليس بمستطاع حتى الحلم أو التخيل على تفكيكها .

يساوره الم ممض كلما برح البيت وعاد فرمق العربة .

هو لا يريد ان يتجاوز فيكسر عهداً قطعه للشيخ التقي عبد الله بان يترك هذه المهنة الى الابد ويبحث عن اخرى والا سيخرج غداً لمعاودة عمله وليحصل ما يحصل ..

- ابواب الرزق مفتوحة ، يا ولدي .. يجيئه صوت الشيخ .. وهؤلاء وضعوا عينهم عليك فلن يتركوك .

يهمُّ بالاحتجاج وهو يستدير ، لكنه يتراجع .. فيروح يعلن شكره للرجل العطوف الذي يحسّه يشاركه المحنة ، ويُكبر فيه حسن الصنيع .

كان قد تناهى لمسمع الشيخ عبد الله خبر قضاء محمد البوعزيزي الليلة الفائتة في السجن فتوجه صباحاً إلى مبنى الولاية .. توجَّه من غير أن يعلم إنْ كان هناك من سيتكفله قبله ويطلق سراحه ام لا .. هو يدرك وطء لحظات السجن وثقلها على سجين بريء لم يرتكب جرماً يتسبب بأذى لشخصٍ او مجموعة اشخاص

، خصوصاً حين يشعر ذلك السجين بالظلم . فقد مرت به مثل تلك اللحظات يوم سُحب من دكان ابيه وهو بعمر التسعة عشر عاماً واقتيد بعنف من قبل ثلاثة جنود فرنسيين وبصورة خرقاء ، حتى أن الابرة وخيط الحرير لما يزالان بيده وهو يُدفع الى الحوض الخلفي لسيارة الجيب العسكري ؛ إذْ كان منهمكاً في استخدامهما لتكملة نقش الجبة السكرودة التي يجلس صاحبها قبالته يتابع بانشراح انغراز الابرة وظهورها من خميلة القماش ، ويحلم كيف سيرتديها ويظهر كامل الاناقة في مناسبة قريبة ، هي زواج ابنه البكر .

يذكر الشيخ كيف قضى يومين موزَّعين بين تحقيقٍ تصاحبُه كلماتُ السباب ونظرات البغض ، واللطمات على الوجه ، والركلات على الرأس دون ذنبٍ ارتكبه سوى أنَّ قريباً له اعتقل كان يناهضهم كمحتلين فقرروا معاقبة مَن له صلة قرابة معه ، وبقصد ترهيب كل مَن يُفكّر في الانضمام الى المقاومة ليشعروا الجميع أنَّ العقوبةَ تعم ولا تخص ..

منذ ذلك اليوم انزرع في رأسه يقين بظلم الانسان لأخيه الانسان وهو بريء . ويوما اعتقاله وتعذيبه بلا رحمة دفعاه الى يقين أن المجاهدين الثوار على حقٍ في رفض وجود المحتلين على ارض بلادهم ، فانظم الى الخلايا القتالية وتوارى كالشبح يذيق عدواً عتيّاً كأس الهوان .

دخل على معاون مدير البلدية ، وبحكم وجاهة أتت بها اعوام نضاله ضد المحتلين الفرنسيين ـ واتخاذه العيش بعد الاستقلال في الظل بعيداً عن هوس السياسة ونأياً عن السعي للحصول على مركزٍ ـ عرض أمر الشاب العامل ورجاه تلك المرة أن يتجاوز العقوبة ويطلق سراح عربته ؛ مردِّداً : ارحموا تُرحموا !.. فلم يجد المعاون المسؤول من بُد الا أن يعفو فيتوجّه الرجل الى سجن البلدة حاملاً قرار الحرية ومودَّعاً بكلام تحذيري :

- إن عاودَ ، يا حاج البيع والتجاوز على المراقبين لا يضر إلا نفسه .. ومع ذلك أوكد لك انه سيعاود !

- لا .. لا .. أنا واثق انه لن يفعل ذلك .. لن يفعل مطلقاً .

- سنرى !.

أمام شبك الحديد الفاصل بين العبودية والحرية وقف الشيخ التقي يخاطب الشرطي الذي يمسك بمفتاح وضعه في ثقب القفل ووارب الباب :

- هذا عامل .. تشرَّف بيدهِ الرسول الاعظم فكيف نجازيه بعقوبة السجن .

وحين اراد الشرطي الرد اكمل كلامه :

- لكننا من جهة ثانية نطالب بالالتزام بالقوانين فلا نتجاوز عليها بشيء من التحدّي ... فذلك حماقة واستهتار .... والآن اذهب واستلم عربتك ؟

اغرورقت عينا محمد البوعزيزي بالدموع ... انحنى يطبع قبلة على ظاهر كفَّ الشيخ عبد الله .

وهو يدفع بعربته مطلقة السراح توّاً ساوره شعور أنَّ ارتياحه مؤقت ، والمشكلة لن تحل وليس لها انتهاء .. لن ينتهي الامر إلا بإجازة ، والاجازة عند شادية ، وشادية تتذرع بالتزامها بالقوانين ، والقوانين في هكذا بلد لا تضع مصالح الفقراء في الحسبان ... إزاء ذلك يجد أولئك التعساء مصائرهم في تيه كأنهم اجبروا على صعود سفينة دُفعت الى بحر المجهول وقيل لهم صارعوا وصارعوا ؛ ليس للوصول الى جزر الأمان بل الى موانئ الضياع .

(2)

الجزيري وما جرى له

صرفَ الجزيري وقتَ سجن محمد البوعزيزي مكتئباً ، مهموماً ، حزيناً .. فطلب الرزق بعرق الجبين لا توجب عقوبة السجن ، وانفعال الانسان في غمرة عمل واحتجاجه في لحظة غضب لا تبرر عقاب يحطم الذات .. تبارت هذه التداعيات في اعماقه وحسب الشاب مظلوماً حقّت عليه الرأفة ... انبرى هاتف في رأسه يهتف : إنَّ الأنقياء على هذه الارض هُم من يحل عليهم بغض الموتورين ، وهُم من يعانون اضطهاد المتجبرين رغم انهم لا ينافسون احداً على كرسي لا يدوم ، ولا يحلمون بالدنو من مستعمرات سراب زائل .

حين تقرأ خبر هضم حق انسان في جريدة او تنقل لك فضائية مشاهد تعسّف بشري ترتكبه زمرة في سلطة لها قدرة الايذاء والسطو على حريتك وهدر كرامتك تداهمك سيول الذكريات المُرّة ويأتيك الوطن عليلاً يربت على ظهرك كي تتحمَّل وتتجمَّل ثم تنسى ؛ ذلكأنَّ الباقين على صفحاته البيض والناصعين في ترجلهم وخيلائهم هم اولئك الذين حقَّت عليهم ضريبته فلم يتوانوا ولم يتراجعوا . والخالدون هم مَن حملوا الرسالات لخدمة البشرية ... يريد أن ينسى تلك الساعات التي تجسدت حدّاً فاصلاً بين شعور انه يمكن أن يقترن بخديجة ليعيشا حياة تمنياها سوية وقرار أن ذلك غدا من عِداد الاستحالة ..

آآآآآآه ! يتردد صوت ألم في اعماقه .

يريد أن ينسى .. لا يريد لدواخله أن تسيطر على ارادته فتعيد له تفاصيل ذلك الألم الذي تعرض له والعسف الذي مورس معه .. لا يريد أن تأتيه تلك الوجوه القبيحة التي تسيل عيونُها حقداً ، وغيظاً ، وغلاً ؛ وتسكب افواهها قيحاً مقززاً من سباب وشتائم واهانات .

فبعد دورة طويلة تجاوزت الساعة من الضرب المبرح بالمواسير المطاطية المملوءة بالرمل والحصى الناعم ، وبعد الانهيال عليه بقبضات الاكف والركل بالأقدام مصحوبة بنعوت لا يتلفظ بها غير السفلة والمنحطين القادمين من اوجار الثعالب النتنة ومستنقعات العهر والفسوق ؛ وبعد ان سُحب سحلاً والدماء تقطر من فمه وتتدفّق من منخريه ورمي في زنزانة انفرادية ظلماء .. بعد كل ذلك ، وصوت الله يتعالى من المآذن يدعو النائمين للاستيقاظ وأداء صلاة الفجر فتحت الزنزانة على أنين كانت روحه تطلقه من وراء نوم متقطع تسببه آلام الاعضاء .. وجه الى وجهه مصباح (تورج) وصوت ناهر تصحبه كف تسحبه من الارض ، وكف اخرى تتولى صفعه كي ينهض فلا يتعبهما في اعادة اوامرهم في النهوض ... لا يدري إن كانا اثنان مَن دخلوا عليه ليجروه جراً ام ثلاثة ام اكثر إلا بعد أن فتح عيناً واحدة وظلت الاخرى مغلقة بيباس الدم الذي سال من بين خصلات شعره فتشبث بالرموش وجف ، فاحكم اغلاقها .. عرف انهم اثنان يتقدمهم في ما يبدو ضابط. عرف ذلك من نبرة كلماته الآمرة ، وكلمة " نعم سيدي " رددها الاثنان اكثر من مرة وهو يكلمهم .

اوقفوه امام رجل اربعيني ممتلئ ، بوجه له جبهة متغضنة وحاجبان كثان مقطبان ، وشفتان منفرجتان ، تريلان جراء خمرة شرب منها الكثير .

من وراء مكتبه العاجي اللون فاه :

- كل مَن في هذه المؤسسة التي تتولى تأهيل المجرمين والضائعين هو شرف الوطن ورفعته ... الرجال هنا من اصغر رتبة حتى اعلاها لافتة من لافتات كبرياء تونس .

لم ينتبه الجزيري لما قاله بعد هذا الكلام ؛ فقد شعر بدوار عاصف في رأسه وغثيان يصل حد ان يلفظ ما في معدته من قطعة رغيف مغموسة بحساء شم فيه رائحة العفن تناولها على مضض .

ضربات كف ممتلئة انهالت على رأسه من الخلف وسؤال حانق : هل تسمع ما يقوله سيدك ، يا كلب ؟

الجواب جاء بصاقاً رشقه الجزيري في وجه الضابط .

الضابط حاول السيطرة على مشاعره لئلا يرضي غرور سجينه ويشعره بكبرياء رجل مثقف يعلو فوق جبل سلطة فولاذية مكينة :

- ستفيدك اشعارك وكلماتك الطنانة في حب تونس وغناءك لما تسميهم الفقراء .... تهويمات خبرنا منها الكثير فما افادت المتشدقين بها من امثالك .

استدار الى منضدته ليرفع ملفّاً حوى اوراقاً راح يطالعها .. وبأسلوب تمثيلي استدار :

- تبصق بوجه رمز الوطن يا جربوع لتثبت انك بطل ؟ .. تريد أن يقال عنك في المنظمات التي تسمي نفسها انسانية انك سياسي مضطهد ؟!! ..افعال مثل هذه خبرناها .. لكنَّ فعلك لن يمر دون عقاب ابدي .

ببرود مفتعل أمر :

- خذوه فعلّموه الآداب والاخلاق كيف تكون .

سُحبَ بعنف ، وجُرَّ على امتداد المجاز الضيق جرّاً تصاحبه اللطمات من خلفه ، وعلى جانبيه ... وفي ممر طويل انهالت عليه الركلات واللكمات والكيبلات ... انهالت عليه الشتائم والسباب والكلمات القبيحة ، البذيئة ، الوسخة .. وفي الممر الطويل امتدت يد فولاذية من ايديهم لتمسك بخصيتيه . تعصرهما ، وتسحقهما ، وتطحنهما فيستحيل كتلة صراخ طفق يدوي محدثاً صدى متناوباً ورنيناً لروح يتعذّب كأنه وضع تحت مطرقة جهنم وتفجّرت في روحه دمدمة صليل سلاسل تتدلى من السماء وتصطفق ، ثم همد كل شيء .. مات الصوت ، وغاب معه الوعي ثم عاد .. غاب ثم عاد ... سحبوه بلا اكتراث ليدخلوه في غرفةٍ تشيع فيها رائحة المطهرات ... ظنَّ انهم سيرأفون به ويعالجوه .. حسِب أنَّ من ابصره يرتدي صدرية بيضاء وتتدلّى سماعة الفحص على صدره سيبتسم له ويهدئ من ألمه بكلمات حنون فيها همسُ طمأنةٍ وامتصاصُ خوف (أليست تلك من فيض حنان الاطباء ؟)...

بيدَ أنَّ ذلك لم يحدث ...

لم يحدث ابداً ! .. جاء ردُّ الفعل عكسيّاً ، إذ قطب الطبيب حاجبيه ، واعطى أمراً بخلع البنطال وافراج الفخذين ...

لم يدرك الجزيري ونظراته تتماوج وسط الاجفان المرتخية ما الذي يريد أن يفعله " طبيب الانسانية " ؟! وكيف هرع سجانوه الاشداء إلى افراج فخذيه دون أن يسألوا الطبيب عن السبب والضرورة ..

وبدون ادنى فعل انساني يفترض أن يتحلى به الطبيب ، أيَّما طبيب ، وتستدعيه أية معالجة طبية رفع مشرطاً يلتمع .. تلك اللحظة انطلقت صرخةً دوت في الغرفة فاستدعت غضب الطبيب وهو يلوّح بمشرطه . وجَّه امراً لأحدهم أن يمسك القضيب كي لا يعيقه ... وبفعل أخرق ، هو عبارة عن ضربة مشرط ماهرة ، استأصل الخصيتين وسط صرخة كتمتها حفنة قطن دُست في فم الصارخ فألجمته ، تاركةً الانين حقّاً يتعاطاه .

قضى عاماً كاملاً سجيناً في سجن الكاف .. عاماً لم يعرف اهله أين يكون ، ولا سمح لهم بمواجهته .. عاماً لم يعرف أن خديجة بن عثمان تركت تونس وهاجرت الى فرنسا .

قال حين علم بما جرى : كان علينا أن نغادر قبل الاعتقال . قبل أن تحارب جراء القائها محاضرتها على المسكوت عنه في الادب النسوي وتوَقف شهراً على ذمة التحقيق ... تذكر بوريس باسترناك شاعر روسيا ورائيها كيف لاقى ، في روسيا بلده ، المضايقات اللاإنسانية وسحق الذات وتدمير الثقافة . وكيف انه يوم نال جائزة نوبل وطلب منه تسلم الجائزة المسجلة باسمه ارتد مرتعباً ، رافضاً . لم يذهب إلى جنيف

لاستلامها . لم يكن رفضه لها لأنه لا يتمناها ولا يبغيها شهادة اعتراف كبرى بإبداعه وبأحقيته في نيلها عن جدارة انما خشية من عواقب تنتظره من سلطات بلاده الدموية بعد تسلمها . وقد لا يمنح جواز الخروج من الوطن السجن .

تذكر ستيفان زفايج وكيف فرَّ إلى بريطانيا تخلّصاً من بغض هتلر وهدير عنجهيته ودمار تنتجه طائراته ودباباته ومدافعه لتهد حضارة بلدان وتقتل اممماً . وحين وصلت مسامعه اعاصير البغض وهدير الكراهية فضل الرحيل بعيداً عن لندن ، إلى البرازيل ليقضى منتحراً غرقاً في بحيرة خيبة الأمل في رؤية الخير يتعالى والشر ينكمش .

واليوم يطالع شعبه العربي يعيش تحت خيمة أنظمة لم تعد تنتمي إلى عصر الانسانية الرحب وتفر هاربة من بساتين الحرية . تظلم الانسان فلا تضع له قيمة ، وتحتقره فلا تنظر اليه إلا من علٍ . سلاحها الترهيب وعقوبتها السجن .. " مسكين يا محمد البوعزيزي " .. ردد في نفسه بجزع .

(3)

في غمرة الرؤى

شرع محمد البوعزيزي يبرح البيت مبكراً كل صباح ، وكما اعتاد ، ولكن بلا عربة يلصق كفّيه بخشبتي قيادتها . كفّان يدسهما في جيبي بنطلونه ويروح يقطع شوارع سيدي بوزيد . تنبثق في اعماقه رغبة المرور بها جميعاً . يود لو يدخل ازقتها الضيقة . يطالع كل بيت وزنقة . يحدّق في الابواب الخشبية المصنوعة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، يتلمَّس المسامير الحديدية التي تشبه عيون أحصنة أو حدقات أبقار .. يرمق الشرفات والبلكونات ويتخيل الوجوه البهيّة والقامات الرشيقة او الممتلئة لنسوة سيدي بوزيد ، يطلبن منه كيلو برتقال او تفاح أو عين الجمل أو تين شوكي .. باقات من الكرفس والبقدونس ، جابية من البطاطس او البصل ..

أيام طويلة مرت . فتحت امامه باب كآبة واسعة وعريضة أشعرته انه طاقة متبددة غير ذات جدوى ، هو الذي عُرف عنه الجد والمثابرة لا البطالة والركود .. الطاقة المتفجرة لا الخمول والتقاعس . ذلك جعل أمه منوبية في أحد الاماسي تترك البيت لتذهب الى سيدي فرج ، ابن خالتها ، في بيته ، لتشكو حال ابنها ، وتجنّي البلدية عليه :

- سيضيع ولدي ، يا سيدي فرج إن لم تساعدنا ... وشرعت تنتحب .

ضحى اليوم التالي صحبه سيدي فرج الى ورشة حمدون . فاستحصل منه موافقة العمل مع عمال ينبغي له ان يفتح عينيه اثناء عملهم ليتعلم منهم بزمن سريع ... هناك كان يقضى النهار وسط هدير المنشار الكهربائي وصوت قطع الخشب الصارخ ، وأوامر حمدون بحمل ألواح خشبية طويلة من المخزن لتقطيعها .. وكما هو متَّبع يتم رصفها جوار المنشار حيث يتولى السنوسي وبشير وعمر وهو رابعهم وفق قياسات مكتوبة على ورقة تقطيعه ليكون مادة خام تنتهي بعمل أسرة خشبية تلبية لطلبية محلات موبيليا .

كان هو والثلاثة عمال بإمرة حمدون .. العمال مرَّ على اشتغالهم في الورشة ما يزيد على ثلاثة اعوام تمكنوا خلالها من استيعاب المهام المناطة بهم وغدوا بفعل شعورهم انها مهنة فنية وحرفة يدوية تسوقهم الى العمل الدائم حتى لو استغنى عنهم حمدون ، لذلك كان الوقت لديهم ساعات تجري ، ويد تعمل ، واجور مستقرة رغم قلتها قياساً بالجهد المبذول والوقت المصروف ، وحال اعتادوا عليه . أمّا هو وغب مرور اسبوع شعر بثقل الوقت وبطء سيره في ورشة فضاؤها محدود ومساحتها ضيقة فيما اعتاد الفضاء المفتوح والشوارع الفارهة وحركة المارة والحرية الفردية مع عربة يقودها كيفما واينما يشاء . لهذا ما ان انقضت عشرة ايام حتى اعلم الأم بقرار ترك العمل والعودة الى العربة متخذاً زقاق آخر لا تصله أعيان أمن ، ولا يخطر ببال صابر وزمرته . .. قراره جوبه برفض الأم بشدة .. قالت له محذِّرة : " اذا كان

الجزيري قد استحصل لك اياماً للبيع بحرية ، والشيخ عبد الله انقذك من السجن فانَّ المرة هذه لا احد سينتشلك من مخالب عقوبة السجن . ".

يستعيد نداءات أمل ، وهتافات رجاء ، لكن المرارة تهجم على قلبه ويستحوذ على مزاجه كدرٌ خانق فيعتصره ألم الندم وهو يتذكّر " نجيب " صديق صباه . إذ كتب له كثيراً : تعال إلى فرنسا ، يا محمد .. هاجر إلى ألمانيا .. استقل باخرة إلى ايطاليا .. هلمَّ إلى جغرافية الحلم حيث احترام حقوق الإنسان . فلا استلاب ولا عسف . لا تتصمغ في بلادٍ تزدريك ، لا تنحني لسلطة وضعت دستورها بمقاسات ترفها وابهتها مثلما فصَّلته بطول وعرض إذلالها لنا واستهانتها بنا . نحن أمة قدر لها أن لا يكتب عنها بما يفُخر بها ؛ وشعب أريد له أن يفتح ابوابه للغرباء ينعمون به ، ويمعنون في الرثاء بنا .

تعال ، يا محمد !

تعال ، يا أخي ! .. مدينة سيدي بوزيد ليست كل الدنيا وإن احببناها . وتونس ما هي نهاية العالم وإن هتفنا بعلوها.. تعال ، يا صديقي . تعال . لا أقول لك أننا هنا في جنة وأنتم هناك في نار . لكننا نمتلك رصيداً كبيراً من كرامتنا ؛ فكم تمتلك أنت ومن معك من كرامة ؟!

تعود اليه صورة الرجل الاصلع برقبته المحتقنة وعينيه اللتين ترميان شرراً وفمه الذي يدفع بعبارات التأنيب ((هذه ليست شعوب عربية ، هذه قطعان من الدجاج أو أكوام من الخراف)) والمُساجِل البليد ذو البدانة الباعثة على السخرية ، وفيصل القاسم وهو يتأجج بهجة لكلام التأنيب ويتمنى لو سمعه العرب من اقصى بلدانهم الى أدنى متابعتهم لبرنامجه علَّ ذرةً من الخجل واللوم والحماسة تنهض من تحت ركام ذل غارقين فيه ليطلقوا ألسنتهم باحتجاج يحدث هنا وانتفاضة تنهض هناك .. تعود اليه صورة الجزيري وهو يرثي جيله الرازح تحت ثقل وهيمنة قبضة حديدية ماحقة يسندها شرق شمولي وغرب يغض الطرف طالما تتحقق بوجود القبضة مصالحه ، ومنافعه ، وتطلعاته .. يعود اليه قادري وهو يعيب على جيله توارث الذل والخنوع وسط بطالة تستشري كسرطان قاهر في جسد اوطان بينها وبين الموت خيط واهٍ .. وهو محمد البوعزيزي مَن آثر الصبر مفتاحاً للفرج . وكتم صرخة جرح القلب لئلا يفتح باباً لليأس .. تدور عليه الدوائر ويستل القدر سيفه ليطيح برأسه . أو تسحب النوازل خنجرها لترديه غيلة ، رافعةً لافتة التشفّي ومعلنةً تقهقر ارادة شاب وضع شمس الامل في يمينه وقمر التحمّل في شماله وقال لحياته لا تنكصي ؛ فلي فيكِ قدرةٌ على التجاوزِ ولكِ مني التصميم على النجاح .

يأتيه صوت آخر .. صوت عبد السلام ، الرجل الخمسيني يوم التقاه في سيدي بوزيد قبل اكثر من عام ، وانهال عليه الرجل بتحية الابوة ، قائلاً : أرى فيك صديقنا البوعزيزي . وانت ولده تشبهه .. نحن عملنا سوية في ليبيا . اذا رغبت تعال معنا للعمل هناك .. هناك ما زال الليبيون في الواحات يحنّون لوالدك .

لحظتها راحت عيناه ترحلان إلى فضاء بعيد كمن ينتظر قولاً سيأتيه ليفوه به .. ثم كأنه لدغ ، اجاب :

- كلا .. كلا .. هل تظنني سأقدر على ترك سيدي بو زيد . هذه المدينة تأسرني يا عم ، وانا مشدود اليها بكل جوارحي ومشاعري .

ولم ينفع عرض الرجل ، ولا محاولاته في جعله يصاحبهم للعمل هناك حيث المال الوفير والجهد الذي لا يقل عن جهد دفع العربة وتلبية حاجات المشترين .

****

الليل يعوم بهدوئه السرمدي .. محمد البوعزيزي في غرفته التي آثرها تلك الليلة معتمة ، فلم يشعل مصباحاً ولم يشاهد برامج تلفاز ... فقط رمى جسداً مرهقاً على السرير، ورأساً مثقلاً بالقلق على الوسادة ... يتوخَّد مع صمت العتمة فتهيج الافكار ، فتضيق الدنيا ، فيتعملق البؤس ، فيكتئب القلب .. تدنو جيوش الكآبة من سواتر جعلها طوال فترة شبابه منيعة . لا يخترقها الفشل ولا يهدّها اليأس.. تدنو هذه المرة

هادرة جامحة فتدخل ميدان صموده لتهشّم معالمَه ، معلنةً انتصارها ... احداث ومواقف باعثة على الانكسار تتجسد على شاشة ذاكرته... ايام فقره امام عينيه ، ومعها سنوات الضيق .. أيضاً ، أيضاً ترك الدراسة والحرمان من التعُّلم .. الهمُّ اليومي يؤججه أعيان الأمن ومراقبو البلدية .. يتراءون له ككابوس دائم .. ثقيل ومرعب ... كلمات شارلي شابلن تدوّي في اذنيه بصوت الجزيري المتحمس :

" ايها الجنود! لا تكرّسوا انفسَكم لهؤلاء الوحوش، لهؤلاء الرجال الذين يحتقرونكم، لهؤلاء الذين يستعبدونكم، لهؤلاء الذين يقيّدون وجودكم، لهؤلاء الذين يُملون عليكم تصرفاتكم، افكاركم وأحاسيسكم... ايها الجنود! ....."

تذكَّر كيف مرت به فترات تخلخل توازن ذهني ؛ وكيف كانت مسيرته تتذبذب بين نوازع متفاوتة : نزوع يصل حد التطرّف ورفض كامل للوجود .. ونزوع هيمن عليه بسطوة جارفة ، ما جعله يقترب من نزعات الانتقام فيدخل حلقةَ أُناسٍ يرون في قتل الآخرين مساراً خاصاً ومتميزاً يقودهم الى الجَنّة . ثم نزوع ثالث لأناس يرون أنَّ الاديان من فعل البشر ؛ وما البشر الا خالقوا اديانهم عبر انبياء أو رسل يدَّعون انهم مبعوثون من السماء ... خِضمٌ متلاطم كان على وشك ان يندفع إحدى المرات مع زمرة من شباب يافعين متحمِّسين للذهاب الى العراق والانتحار وسط جموع العراقيين انطلاقاً من رأي أفتى به قائد جماعة المؤمنين حسب ما هُمس في أذنه ، ودعاهم للجهاد بالنفس بينما بقي ذلك القائد في البلاد ولم يتقدمهم .

وما اثناه عن التواصل معهم اجابة جاءت على لسان القائد عن سؤال كيف يتحقق الهدف والانتحار وسط تجمع بشري سيُميت الكثيرَ من الابرياء قصد قتل شخص مستهدف ؟ . كان الرد : المُهم هو قتل الهدف المقصود بتفجير مؤثر . أما ما بعد ذلك فمن قتل في التجمّع وهو كافر ذهبَ الى جهنم ، ومن كان مسلماً مؤمناً دخل الجنّة .

تلك الاجابة ارعبت محمد البوعزيزي وابعدته عن الزمرة منطلقاً من أن فعلته وفق هذا التوجه الذي لا يقبله صاحب عقل ولا ترتضيه عاطفة انسان بالغ سيعاقبه الله عليها بسعير جهنم .

ويوم دعاه احدهم للانضمام الى حزب العمال الشيوعي كعامل لابد له من الانضمام الى حزب يدعو لحريتهم وانصافهم كشغيلة تستحق العيش بسلام وأمان تملَّى الامر وارتضى لبعض الوقت لكنه آثر الرفض في ما بعد مدركاً أنَّ في ذلك ابتعاد عن الايمان . والايمان لا يتكرَّس الا من خلال الدين . ومن ينأى عن الدين يخسر الدنيا والآخرة . هكذا رأى بحدسه الذاتي وثقافته المتواضعة .

- مَن هنا ؟ ..... انتفض منسلِخاً من تداعياته الثقيلة .

- ماذا تفعل ، يا أخي ؟.. لماذا لا تضيء المصباح ؟!

انفجر الضوء لحظة ضغطت أخته سلمى على الزر ، فهالها شحوبه ..ارتعبت وهي تسحبه من ذهول حدست أنه كان غارق فيه حد الموت .

- انهض يا أخي ، لا ينبغي الارتماء في الوحشة .. اذهب الى قادري على الاقل . فهو بحاجة لمساعدتك في ترتيبات عقد قرانه على عائشة ، أليس حفلُ عقد القران بعد غد ؟!

نهض ..

كلامُ سلمى هيَّج فيه مشاعر موجِبات الصداقة فانتفض .. اشعل في روحه نار التأنيب فانتصب .

حدّق في وجهها كأنه يقول : انتِ على حق .. وأنا على كسل .

- نعم ، سأذهب .

(4)

قادري وعائشة

المطرُ يرشق الارض والاشجار والبيوت بقطرات مدرارة بالماء وصوت البرَد يغنّي .. يتوالد هائجاً كمجنون امتلأ مرحاً فانطلق .. ريح تخفق بموجات متلاطمة تعلن عربدة السماء في قصيدة عابثة تحاكي الارض .. سيدي بوزيد تفتح ذراعيها استئناساً، وبهجة .. رقصة امزيغية على ايقاع نسمات بحرية تحمل رسالة الوله من شواطىء تتمنى لو وطأتها قدما سيدي بوزيد الولي الورع .. شواطئ تريدها تتهادى عارية فليس حراماً عليها كمدينة أن تأتي لترتمي على سيح الرمال الساخنة أو الرطبة وتنهض لحظة استحالة الشمس قرصاً برتقالياً يريد لذراعين ان تحتضناها وتمرران انامل العشق على جسدها النوراني قبل ان تهبط لتضيع في عتمة الافق .

قبل انسحاب قرص الشمس كان على عائلتي قادري وعائشة أن ينهياً حفلة عقد قران الخطيبين . كان على صافية أن تطلق زغرداتها متوافقة مع انتهاء ترديد قادري انه قَبِل بعائشة زوجةً له على سنّة الله ورسوله ، كذلك مع انتهاء كلام عائشة انها قبلت بقادري زوجاً على السنّة نفسها .. مسلمان يريدان للعقد ان يربطهما طوال حياتهما فيخلِّفان أبناء يحفظون الذريّة ويخدمون الوطن .

نهض الاهل والاقارب والاصدقاء يحفّون بقادري ، يقدمون التهاني ويرقصون على هدي فرحة شبّان يتطلعون لفرح يومض كشهاب . ومحمد البوعزيزي ، السلطان المنتخَب ، يتمايل بقامة رشيقة ، ويصفّق بكفين خشنتين ، باعداً احزانه وهمومه وكوابيسه . فهو يوم الصديق القرين ، وهي مناسبة الفرح التي لا تتكرر .. انطلق من قرارة الروح وشواطىء الاعماق يغنّي امتع اغنية غنتها نبيهة كراولي برأيه ، فكان يدندن بها كلّما دفع العربة مصحوباً بدفق نشوة . أمّا الآن فينطلق بكل ما في الحنجرة من صوت منغّم وسط اندهاش المحتفين الذين لم يسمعوه من قبل يغني وبهذه الرخامة والاداء المتقن :

محلاها كحلة الانظار

تتباهى بسر وخطار

جيت فكري كي والقيتك ومن اول نظرة حبيتِك

وبرموش عيوني حاكيتك وانكشـــفت الاسرار

لا تعرف روحي كيف جيتِك لا اعرف ما صـــــار

ينهض جوق الشباب ليتهادى على رفل الكلمات ، والجلاس الآخرون يتابعون : تمايلاً بالرؤوس أو تصفيقاً بالأكف فيما النسوة هناك ، في حوش الدار يزغردن ، ويطربن ، ويرددن اشعاراً تحاكيها في الايقاع والنغم اجسادٌ رشيقة لفتياتٍ نثرن الشَّعرَ على الاكتاف .

ديمه نقولك انتَ راجل // ديمه نقولها انتِ ملاك

الاجساد تتمايل ، والالوان المنبثقة من الفساتين تبرق كما لو كانت بروقاً تتفجر في السماء .. الفتيات يتهايفن . يعرضن القامات ويفصحن عن الملامح في محاولة اظهار الجمال واشهار الاستعداد للاقتران بمن أعجب فرغب .. وصافية تميل على أم عائشة وتهمس في أذنها :

- لقد خدعانا هذان الشيطانان (وتقصد قادري وعائشة) ، انا انصح وانصح أن لا ينخدع بواحدة توقعه في شباكِها ؛ وانت تنصحين وتحذرين ألا تقع اسيرة اغراء مِن يبدأ بكلام من عسل وينتهي بتواري عن العين .

تضحك أم عائشة :

- مَن يظن ان ابنتي تمدّ قدماً بين قدميه فتسقطه متعثراً وتمد كفَّ الانقاذ الغاوية ؟

تقهقه صافية وبغمزة عين وابتسامة دهاء تهمس :

- إن لم نسقطهم بهكذا غواية لن ينظروا لنا ولن يعيروا اهتماماً بنا .. أُمّنا حواء وشوشت وهمست في مسامعنا بهذا ، فاهتدينا بنصيحتها الابدية .

تتصادم الزغاريد على كثرتها ، وتعلو اصوات دفوف تضرب عليها أكف محنّاة ، محفوفة بالخواتم الذهبية بينما يتناهى صوت الرجال في لغط يدلل على فرح غامر يشيع في الغرفة المجاورة ..

انه يوم السعد ليس لقادري وعائشة فقط ، بل لكل شاب تزوج فسحبته اصابع الحنين لهكذا طقوس مر بها ، لكل مَن حلم على أمل تحقيق الحلم في أن يجري له ما يحصل الآن .. لكل شابة ابصرت صديقتها تدخل عش الزوجية فوضعت قدمها على مبتدأ الطريق منتظرة عربة الحظ تمر بها فتقلها الى جزر الهناء : زوج ، واولاد ، وبيت عامر يحفُّ به الهناء ، لكل مَن ركض بها العمر فألفت نفسها على اعتاب شيخوخة ففكرت بالهرب والعودة إلى حضن الشباب البهي .

توهَّج الحفلُ بوجود الجزيري يبتسم بابتهاج لقادري ، يربت بكفه الحنون على ظهر محمد البوعزيزي متمنياً له مثل هذا اليوم ، ومتعهداً أن سيرقص بنفسه وسط جمع الشباب متخلياً عن وقار الشيخوخة .

امنيات وامنيات .. احلام وتخيلات خلقها الحفل اليانع فانتج مشروع زواج قريب طرفاه قادري وعائشة ..

منذ ذلك اليوم صار الاثنان يسيران جنباً إلى جنب .. لم تعد الخشية برزخاً بينهما ، والتابوات الاجتماعية تهدمت .

منذ ذلك اليوم صار قادري يقلل من جلوسه في المقهى صباحاً ، فيبقى في الفراش يغط في نوم عميق حتى تنده به صافية ليستيقظ ويتناول معها فطور الصباح بعد التاسعة .. ابتاعت له عائشة هاتفاً خلوياً حديثاً من مرتبها ، وطفقت تنتظر اتصالاً يومياً عند فترة الفطور الصباحي في ورشة المصنع حيث ساعة الجدار تعلن دقات عشر .. حين تنطلق نغمة تايتانك من جهازها تضحك مليكة وتغمز بعينها لماجدة بينما تسكب نبيلة مزحتها : ديلا كابريو حضر ! .. هيا .

تنهض من بينهن فتختار مكاناً تستقبل فيه صوته . يصبّخُها ويستفسر عن احوالها وتترك دقائق الاستراحة تفر هاربة فلا تسعفها على تناول طعام الفطور على مهل .

لم يحسبا لخبايا القدر .. لم يتخيلا أن ستحصل مآس دراماتيكية تطيح بصروح سعادتهما المنتظرَة.

(5)

سيدي بوزيد ..

أيامٌ من البطالة والخمول .. ليالي من التفكير المُقلِق والافكار السوداوية .. العربة مركونة عند جدار البيت والأم تشيّعه بحزن وألم .. قادري في محاولة تقليل جزعه يقول له : اصبر ، بطالتُك ايام معدودة فماذا نقول نحن الذين ننهرس بأسنانها منذ أعوام ، والجزيري يطلق الحسرات ويُمطِره بنظرات الاسى ، والشيخ عبد الله يردد كلما التقاه : ستفرج ، يا محمد ! ستفرج يا ولدي .. وإذا عاندت معك وتمادت في عنادها ابحث عن عملٍ آخر فالحياة لا تتوقف على مهنة واحدة نتقنها .

هو يدرك أنَّ كل ما يسكبونه في أذنه يدخل من باب التطمين وضرورة التحمّل إلا أن ذلك لم يفض الى حلٍّ لمعضلته .. صار ديدنه السير في الطرقات بلا هدى والتفكير في ما يعينه على تجاوز المظلمة .

عصر أحد الايام .. والوقت بطيء وثقيل ، وكامد توجّه صوب مقام سيدي بوزيد تاركاً المدينة خلفه .. القلب يحتشد بغيوم المرارة .. الفم يتفشى فيه طعم العلقم.. وشيش يدوّم في رأسه ، والحياة تضيق شيئاً فشيئاً .. جاء ليبث الولي سيدي بوزيد فصلاً من الآهات ويفشي إليه بظلم البشر وقسوته وعنجهيته وجبروته ، ويبوح بضعف الفقراء وعذاباتهم وألمهم .

كان أبوه يأتي به إلى المرقد الشريف . يخطو هو بقدمي طفل يتعثر بينما الأب بالجبّة والشاشية والبلغة التي يسرع بمشيته كما لو كان يلبي نداءً يتردد صداه في أذنه .. هناك يدخلان عبر الباب الحديدي المشبك قاطعين ممرّاً ظليلاً بفعل كثافة شجر الساج المتجاور افقياً والممتد حتى المدخل المؤدي الى المقام الحجري المستطيل .. المقام الحجري مغطى بقماشة ساتان خضراء لميعة ، وسط فناء جدرانه مطلية باللون الابيض .. وشريطٌ أدنى السقف يمتد بمسافة نصف متر خُطَّت عليه آياتٌ من الذكر الحكيم ..

يرى أباه يقرأ سورة الفاتحة ويترحَّم على الرجل التقي ويتضرع لله أن يمنحهما الغفران من خطايا الدنيا ويهب لهما مكانا في الجنة . يتضرع أن يزيل عنهما الغم والهم ويغدق عليهما راحة البال والاطمئنان وعز الأهل فرداً فردا .. يتذكر كيف كان وأبوه يقطعان الطريق نحو المقام مشياً .. يخمن أبوه بُعد المسافة فيروح يقص عليه كيف أنَّ مثل هؤلاء الأتقياء يكرسون حياتهم لله وخدمة الدين ، معتكفين نابذين كل ما يمت لمغريات الدنيا وبهرجها ، سالكين درباً لا يتّخذه إلا القلة ممن وهبوا أنفسهم لتثبيت الحق والوقوف بوجه ما هو شر يقود إلى ارتكاب الخطايا :

لقد عاش هذا الولي عيشة الكفاف لا يغريه الأصفر ولا الأبيض . انسلخ من عائلة تعيش البذخ والرفاه عندما أبصر المحيطين به من الناس تعاني الحرمان والفقر الذي لا يحتمل . شاهد التجار والمنتفعين يشتغلون في تجارة الرّق غير الإنسانية . شاهد ذوي البشرة السوداء من الأفارقة يُسرقون شباباً أو صبياناً من المزارع والأحراش وحتى من القرى ليباعوا بيع النخاسة وينقلوا إلى أماكن بعيدة .. شاهد كيف تجرى عمليات البيع والشراء بالعقود والشهود كما تباع الحيوانات والسلع فآل على نفسه أن لا يبقى صامتاً ويترك ما دعا إليه دينه الإسلامي الذي ألغى الرق وحارب العبودية وجعل الناس سواسية كأسنان المشط . اعتكف في بيته المتواضع لأسابيع ثم خرج شاهراً سيف الدفاع عن الإنسانية وإحقاق الحق المسلوب والمال المنهوب والجهد المسروق ... قضى في ذلك حياته كلها يحيا حياة الكفاف ليكون نموذجاً ما كان يردّده خليفةُ المسلمين الثاني عمر بن الخطاب : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتُهم أحراراً .

يترك أباه يؤدي صلاة الزيارة ويطوف حول القبر ؛ ثم لا يلبث أن ينسل إلى المقبرة المجاورة .. يجتاز السور المعمول من حجر متراصف يعلو لما يقرب من متر ونصف صب فوقه شريط كونكريتي أسمنتي لتثبيته ، ماراً عبر فتحة تكشف أمامه المقبرة .. هناك يترك عينيه تمسحان الأرض الحمراء ، وتطالعان العشب اليابس تنتشر معه أحجار صخرية حادة بارزة وبإحجام مختلفة . تذكر أن جدته يوم ماتت نقلت إلى هذا المكان ودفنت فيه ، لكنه الآن لا يدري أين يكون قبرها . إذا لا شاهدة مرمرمية او رخامية يشير لمكان دفنها يحمل تدوين اسمها وتاريخ ميلادها ووفاتها مثلما يشاهده في الأفلام حيث القبور لها هياكل وشواهد .. فكّر في التحرك بين الأجداث عندما جاءه صوت أبيه من خلفه يسأله : هل شاهدت قبر جدتك ؟ .. لم يرد . لكن التفاتته التي أظهرت عينيه تسكبان جهلاً سريعاً أعلمت الأب بالرد .. فهتف ، رافعاً يده ومؤشراً إلى وسط المقبرة : أنها هناك . في الوسط بين تلك الصخرة الحادة وكتلة العشب الجاف . " وقبل أن يستفهم أباه عن دالة أخرى يستطيع تأكيد وجود قبرها هتف الأب : لنعد الآن .

وعادا دون أن يقف عند قبر جدته .. متسائلاً بسؤال فيه مرارة : كيف يتخلى أبي عن أمه الراقدة على بعد أمتار منه من غير أن يلقي تحية الوفاء والذكرى على الأقل ؟

اليوم لن يزور مقام سيدي بوزيد فقط بل سيعرِّج على أبيه ليخاطبه في قبره .. لن يأخذ بكلام أبيه عندما كان يرفض زيارة القبور ، ويستنكرها .

اليوم وهو يخطو بوئيد الخطى صوب المقام تناهت اليه ولأول مرة أصوات رخيمة لجموع بشرية سمعها تبتهل وتُكبّر ، تُثني وتشكر فتعود اليه احاديث كان يسمعها في المساجد والتكيات ، في تجمعات الشيوخ واحاديث الجدات ، في المدارس والمجالس تشير إلى عهودٍ لقرون خلت كان الناس فيها يعيشون بلا هدى على رأفة الطبيعة وتقلباتها .. على دفءٍ تمنحه الشمس في زمهرير الشتاء ونور يهبه القمر لإنارة وهاد الارض وتقليل هيمنة العتمة .. على أصابع مجهولة تبعد عنهم هجوم العواصف ، وكفٍ مَكينةٍ تستحيل جداراً يمنع جنون الاعاصير... ويوم قدمت من الشرق أرتال جيوش رافعة لواء الحرية وهاتفة بالعيش الكريم منالاً للمحرومين جالبة معها رحمة رب يتواجد في السماء لكل مَن آمن به إلهاً يهب من يشاء من عباده المؤمنين به وبالرجل المكي الذي كان يردد قوله (كلكم كأسنان المشط) هبت الجموع تؤمن وتعاضد تُرحِّب وتستقبل . تدخل في المسيرة وتدافع عن الحق ... تتناهى اليه اصواتهم متوافقة ، رخيمة تمجد الله وتبارك عطفه وحنانه ودعوته إلى التمسك بالدين .. تنبُذ الفرقة وتقاوم الجور .. تنتصر للمظلوم وتضحّي لأجل الحق .. سمع صوتاً يتسلل من مسارب روحه فيخرج ليعلو ويرتفع ، حتى يتداخل مع الاصوات ويتماهى .. ذلك جعله يشعر بشجاعة توجدها الاصوات المتآلفة فتوقَّف .. ليقول : لا يجب ان يوقفني احد عن عملي ، وليس انا بعبد لشادية وصابر .

(6)

العربة .. عشق الطريق

بالأمس توجه محمد البوعزيزي إلى بيت يحياوي .. طرق الباب فتواربت ابتسامة على وجه الأب يرحّب به ويخبره أن يحياوي برح البيت قبل قليل .. واذا حثَّ الخطى وأسرع قد يلحق به . ولأجل أنْ لا يتهالك على ما صمم عليه طلب من الأب اخبار يحياوي أنْ يهيئ له بضاعةً للغد .

لم يحاوره الرجل بشأن سوء العواقب التي قد تواجهه إن اقدم على فعلته ، ولم يقل له تريث لأيام أُخر علَّهم يتراجعون عن قرار منعك من البيع .. فقط قال سأخبر يحياوي بطلبك وسيلبّي لك ما تحتاج .

في طريق عودته إلى البيت تخيَّل رحلة المعاناة من جديد .. تمثلت له شادية ودوريتها البوليسية صارمةً ، قاسيةً ، متعجرفة ؛ ورافضة لأيةِ محاولة للإقناع والرضا .

لم يكن ليتألم وتتمزق دواخله لو أنَّ الرفض يأتي على وقع تأثير سلبي لعملية البيع . لم يكن يتألم لو أنه ضُبط بعرض بضاعة تالفة أو زاد في سعر المعروض ، انما ألمه يتوالد ويتعاظم لقرارٍ مجحف لا ضرورة له .. ماذا يضير البلدية لو سُمِح له بالبيع في زقاق لا تأثير من ناحيته على السير .. زقاق يجد سكنته في تواجد عربة بيع خضار اعانة لهم في الحصول على مرادهم اليومي بلا جهد مرهق يتطلب منهم السير طويلا لبلوغ سوق الخضار او مشقّة مؤذية لذوي الاعمار الكبيرة ؟ .. لقد صرف عمر الطفولة في شقاء العمل وثقل الجهد الذي لا يجدر بصبي مثله أن يمارسه ، لكنّها قسوة الانظمة حين لا تقدَّر موجبات خدمة الطفولة ولا تكترث لتوفير مستلزمات عيش كريم .. إنَّ المُتخمَ لا يشعر بتضوّر الجائع ، ومن يعيش في خثرة الظلال الرطيبة لا يتحسس لظى الشمس على العاري في البرية .

وكانت العودةُ الى البيت عودة القلِق ، المتذمِّر ، الحزين .

******

أصوات الديكة تعلن حضور الصباح .

صباح ديسمبر بارد ، ورطب ؛ لكن بوادره تنبئ بغيوم دكناء قد تفضي إلى عاصفة شتائية يحذرها المزارعون في الأرياف . عاصفة كثيراً ما اطاحت مثيلاتُها بزروع شتوية لم تنضج بعد ..

في هذا الصباح المتذبذب نفذ محمد البوعزيزي قراراً اتخذه بالأمس ..

نهض على وقع اندهاش الام وتعجّبها من اصراره على الخروج للبيع صوب مكان لا تطاله عيون صابر ومرافقيه .. أقنعها أنه سيمر على يحياوي وسيتبضّع منه.

لم يكن يحياوي بخيلاً معه ، ولم يفكّر في رفض تزويده ببضاعة يخمّن انها لن تباع بسبب المنع التعسفي الذي سيواجهه .

وهكذا كانت انطلاقته بالعربة وهي تعرض ثماراً متنوعة من الخضار والفاكهة ايقن من خلال النظر اليها انه قادر على تصريفها والعودة ظهراً وقد فرغت ... لم يأبه للهواء الذي تعالى والغيوم التي شرعت تأخذ لون الدكنة .. فقط قدَّرها حفنة غيوم ستزبد وترعد ثم ما تلبث ان يبتلعها جبل " قارة حديد " ويلفظها بعد حين إلى الصحراء ، صوب الجنوب .. لكنها في الواقع كانت كموج بشري مجنون يضج بالهتاف .. كانت غيوماً قالت عنها امرأة كانت تخطو على الرصيف خطواً وئيداً : يستر الله ! .. وإذ توقف طفل ورفع رأسه عدا مذعوراً يلحق بأمّه فيدفن وجهه في روبها ، مطلقاً دفقات من البكاء .. أحس محمد البوعزيزي أنه على خطأ . فلم تكن كما قدّر انما اكتشف انها تباشير اعصار مجنون سيطيح بهيبة الابنية والشوارع التي ، ابصر العديد من الناس يخطون ، شرعت تفرغ .. لم ير غير سيارات تمر مارقة مسرعة . ومع كل ذلك كان يُمنّي النفس بانجلاء الموقف .. لذلك استمر في دفعه للعربة ومقاومته لتيار هواء طفق يجن ، ويتعاظم .

وحين وجد أن لا مناص من الاذعان لهيمنة اللحظة انحرف ليلوذ بسقف كوشة لصناعة الخبز .. ابصر نفراً من الناس تتسلَّم اعداد الرغيف وتتوارى عائدة الى بيوتها . ابصر عامل تسليم الرغيف يبعث بنظراته الى السماء من خلال فتحة البيع المربّعة في الجدار ويستدير ليخبر رفاقه من العمال المنهمكين في العمل ان ثمة عاصفة قد تطول .

نظر اليه العامل بإشفاق ، ثم دعاه الى تغطية البضاعة والدخول الى الكوشة سعياً للدفء .

تبعثرت كلمات الشكر من فمه وهو يطالع السماء بعين ، وبعين اخرى يمسح بضاعته .. لم يكن يحسب انه سيعود بها كما هي دون ان يبيع ديناراً واحداً ، فتشيعه الام بالحزن ، ويشيّع دواخله بسوء الحظ ؛ فقد استمر الجو متذبذباً والهواء متلاطماً لا يشجّع على الوقوف في الشارع وانتظار المشترين .. لذا كل ما فعله هو أن عاد مسرعاً ، مخذولاً الى بيته.

ركن العربة جوار باب الدار . ثم حمل صناديق الخضار والفاكهة إلى حوش الدار وعمل على تغطيتها بقطع قماش احضرتها له اخته حفاظاً على رونقها وصرف وقت ما بعد الظهيرة في خروج الى فناء البيت يطالع السماء ودخول على ترنيمة قلق لا يريد ان يبرحه .. ثم مع المساء دخل الى غرفته معتذراً عن تناول عشاء اعدّته له الام لأنه لم يتغدَ كما ينبغي .. آثر النوم الذي رمى عليه كوابيس تداخلت وتواشجت فكانت نتفاً من شريط طفولة بائسة رأى فيها امه تلهث خلف باص وحيد في سيدي بوزيد ينقل الناس الى العاصمة صباحاً ويعيدهم غروباً ، وهو يلهث خلفها راكضاً ؛ وكلّما عدا الفاها تبتعد فيغرق في بحيرة دموع ولوعة ؛ ثم تأتيه صورة ابيه عليلاً وهو يرجو انفاساً تمنحه ساعة اخرى من الحياة ؛ ثم يعود له مشهد مستل من سنوات الدراسة الاساسية وصوت الانشودة يعود متوافقاً بأصوات حادة يرددها ، هو ومن معه من تلامذة الفصل : " ومن يتهيب صعود الجبال // يعش أبد الدهر بين الحفر ". و (جميلة) مدرِّسةُ الموسيقى تطوّح بيدها وتؤشر بأناملها بينما يتمايل رأسها خيلاءً مع حسن أدائهم .. أداء كبح بخفقة جناح صقر وانتهى برشقة ذلٍّ وترجٍّ مارسهما امام موظفة البلدية شادية من أجل منحه هبة العمل الذي يموت لو لم يتنفس هواءه .

على اية حال ، نهض ذلك الصباح على صوت الأم يبشره بصفاء الجو وامكانية الخروج للبيع . نهض كما نهض عديد المرات مكبوحاً من سوء فعل تلقّاه ، وجحود بشري جابهه .. نهض غير راغب في إيلام امه ومشاهدة أسى اخواته وتكرار رجاءات اخيه سالم .. نهض ! .. لكن نهوضه هذه المرة كان محاطاً بهالة من طمأنينة شعر بها تتوالد وتتناسل داخله ، فتملأ صدره وتشيع مثل غيمة تحبو ببطء غريب في مسارب

قلبه ، ويحس فضاء ذهنه يميل الى الصفاء فيجعله بعد ان يتناول الفطور بشهية غامضة ويخرج الى فناء البيت ليواصل مهمته اليومية يقف عند قفص الكناري ... (لماذا شعر بذلك لا يدري) .. لمح وهو يمرق للدخول الى المطبخ بنظرة خاطفة من عينيه إلى شاشة التلفاز تعرض قناة الجزيرة والمذيعة تشير الى صبيحة 17 ديسمبر متمنّية ان يكون صباحاً رائقاً للمشاهدين .

لحظة خرج الى فناء الدار انطلق الكناري بسيمفونية ترحيبه . ينتقل من قضيب لقضيب ومن جهة لجهة ، حتى اذا انتهى من رقصة الحبور تعلق بالقضيب المتدلي واندفع يتأرجح بانتظار ما سيوهَب ، وما يقدم اليه . لكن المُحب هذه المرة لم يقدّم له شيئاً سوى أنه فتح باب القفص ، ومدَّ كفّه ليمسك الجسم المغزلي بلطافةٍ وحنو ليجعله خارج السجن ، ويضعه على باطن كفه الأخرى ، ثم يمد اليد الى أقصى نقطة تصلها .

لم يصدّق الطائر الغر انّه يقف على متكأ حرية ، وان ما يحيطه هواء طلق بلا مقيدات ولا معيقات ولا برازخ . وأنه هذه المرة يشم هواءً لا يشبه هواء القفص ، وأنَّ الذي اخرجه أخرجه عن قصد ، وأنَّ مَن تقف خلف النافذة وتشاهد اخاها يفعل ذلك تغرق في بحيرة دهشة ، وأنَّ اليد التي يستند عليها ارتفعت الى أعلى ودفعته ليطير طيراناً لا عودة فيه إلى السجن ... فتلقَّفه غصنُ زيتون أخضر اهتز قليلاً قبل أن يرتج هامساً : ما الذي يبقيك ؟! .. هياً .. حافة الجدار تنتظرك ..

نفّذ الجسم المغزلي الاصفر أمرَ الغصن ، واستقبلته حافة الجدار . غير أنَّ الفضاء المنفتح على سماء زرقاء نده عليه أن يطير سريعاً قبل أن تنقض عليه كفُّ صبي في الشارع يثيره منظر وجوده قريباً منه .

في اللحظة التي لبّى الرأس الصغير النداء تطلع بعينين يشوبهما فرح وغم .

فرحُ حيازة الحرية .. وغمُّ حصول الفراق .

الشعوران المتناقضان كلاهما تفجراً في قلب محمد البوعزيزي فولدا دمعتين انسابتا سيلين ابصرتهما أخته سلمى من وراء زجاج النافذة يمسحهما بباطن كفّيه .

(7)

فصل الانتحار

الانتحارُ انتصارُ الموتِ على الحياة .. أو تراجع الحياة تقهقراً واستدعاء حضور محقِها .

في الانتحار تحقّق الإرادةُ قوتَها حيث المقدم عليه يصل أقصى درجات الشجاعة ، أدنى دركات الخوف . يتقدم الاصرار أمام تقهقر النكوص ، يأخذ الإقدام مساحةَ التردد فينتفي مصطلحُ التراجع بينما تغدو الحياةُ فعلاً تافهاً لا جدوى منه ولا مُحصّلة له .

في متوالية جدل الأنا وسط هباء الحياة يتراجع الأمل ، فيتقدم اليأس . يتمظهر الفناءُ أُسَّـاً في معادلة الجدلية القائلة (لدوا للموت وابنوا للخراب) ، والعدالةُ السماوية تغدو محض هراء .. تتراجع كلُّ جيوش الصبر على الملمّات وتتحطم سواترُ المناعة ضد الكفر .. تنحدر اللغةُ إلى الحضيض وتصبح مبرراتُ التجمّل من عِداد اللاجدوى . من هنا حرَّمته الأديان ، وحاولت السُّنن تحييد ارتكابه .. جعلته إثماً وتوعدت المُقدم عليه بالثبور.

يأتي فعل الانتحار بأوجه ، أو أدوات ، أو هويات متعددة ومبررات متفاوتة .. همنغواي أعطى للبندقية هويةَ الأداة كتبرير لعبثية ما تبقّى من العمر بعدما بلغ القمّة واستقر ، ووجد من المستحيل المكوث وسط انتفاء وسائل الشهرة ونضوب الدواخل.. خليل حاوي رحب برصاص مسدسه وهو يقف في الشرفة يبصر الجنود الصهاينة يترجلون في شوارع بيروت غداة الاجتياح مخلفاً احتجاجاً مهولاً على ضياع الحلم العربي وتحقيق الأماني تحت خيمة الثقافة للجميع .. راهب بوذي دلق عبوة كيروسين على رأسه نزولا إلى عموم جسده وأضرم النار في ساحة وسط مدينته وأمام أنظار المارة يوم فقد الامل في اشاعة الحرية

وجعلها زاداً يومياً لبني البشر .. أبّ شنق نفسه عندما استمرت ابنته التلميذة في الابتدائية تلح عليه كي يشتري حذاءً لها بعدما تمزق حذاءها وتهرأ ، وهو غير قادر على تعويضها.. جموعٌ من شباب فقدوا الامل في الاقتران بحبيبات احبنهم بعمق لكنَّ الاعراف وقفت برزخاً يحرمهم الحياة في عشٍ دفيء فآثروا الاحتجاج انتحاراً بالقفز من صخرة (الروشة) عند شاطي البحر امام بيروت الباكية دموعاً عليهم كأبناء انقياء صادقين في حبّهم ونواياهم.. مارلين مونرو استعانت بالعقار لتعلن انتحارا صامتاً أخذ معه جملة الأسرار والمسببات تاركة ذلك النصب الساحر الذي يشكِّل ساحة من ساحات شيكاغو وقد وقفت منحنية قليلاً تدفع بكفها طيران الفستان الذي ارتفع كمظلة طيار . ذلك الارتفاع صار مظلة يحتمي بها المارة كلما داهمتهم رشقات مطر حمل قطرات ثقيلة تعج بماء بارد أو حبات بَرَد تقصَّدت إغاظتهم .

****

استطلع الصناديق بما حوت من خضار وفاكهة فأنبأته بجدّتها ويناعتها .

انخفاض درجة حرارة الليلة الفائتة واستمرار برد الفجر لم يؤثرا سلباً على طراوتها .. تمنّى لو بيعت في اليوم الماضي .. تمنى لو لم تأتِ العاصفة بما لم يحسب. مع ذلك دخل على نداء الام منوبية لتناول الفطور ، ثم عاد يزيل الاغطية ويرفع الصناديق فيرتبها على سطح العربة .

انطلق مودعاً بكلمات الام الحنون ونظرات الاخوات المشفقات كي يكون نهاراً طبيعياً لا مطب بلدية يعيقه ، ولا اعتراض عين أمن تصدمه .

اندفع خارجاً من الشارع الذي ينتظم على جانبيه صف بيوت لأسر فقيرة في حيٍّ لا يمكن ان يطلق عليه الا أسم حي الفقراء لولا ترداد كلام الجميع : كلنا فقراء الله .

في الشارع الرئيسي لمح قادري يحث الخطى مسرعاً فهتف به محييّاً .. اقترب اليه قادري .. اخبره أنه متوجه صوب الصيدلية ليشتري لصافية أمه " شريط حبوب الضغط :

- " .. هذا المرض مزمن يا محمد ومن يتخلّف عن تناول حبّاته يصاب بجلطة في القلب او الدماغ .. مرض بغيض لذلك لا ادعها تتغاضى عن تناوله يوماً واحداً.. سأسير معك إلى مفترق الطرق ، ثم اودعك . سأعبر صوب الرصيف الثاني لشرائه ." .. سنلتقي هذا المساء في المقهى . ".

وعَبرَ ..

انتبه قادري إلى أن محمد البوعزيزي لم يرد سلباً أو ايجاباً على موعد اللقاء .. وبدا كما لو كان شارد الذهن .. لم يسأله من على مرمى الشارع عما يجري له . ظنّه لم يسمع جملته الأخيرة ؛ فواصل سيره .

واصل السير على أمل ان يتوقف لأيما شخص يبتاع منه .. سيبتعد كثيراً عن الشوارع الرئيسية التي تزيد من احتمالية اكتشافه من قبل دورية البلدية ، وسيحاول الوصول الى أطراف المدينة حيث تضعف حركة الرصد والمتابعة .. هناك سيتوقف ، وهناك سيرصد الحال إن كان يشكل عامل تشجيع لتكرار المجيء والبيع .

هتف به صوت من عمق سيارة " كيا " صالون توقف على مقربة منه ، وهبط منها رجل تبعه اثنان من اولاد بعمر السادسة ثم تلتهما الأم في محاولة استطلاع البضاعة المعروضة ، فانفتحت ملامحها باستبشار ، وهمست تخاطب الزوج : " اذن لنشتري من هنا ، ولا داعي للذهاب الى سوق الخضار ." .. هز الزوج رأسه موافقاً وهو يلتقط حبات طماطم ، ومدت هي يدها تجمع عدداً من التفاح الاحمر ؛ ولم يلبث الولدان

أن طلبا حبتي مانجا ، وسط انهماك الأب في التقاط برتقالات بحجم الكف بعدما طلب من محمد البوعزيزي وزن الطماطم ، وانشغال الأم في اختيار باقات كرفس وكراث ووضعها في كيس الى جانب كيس التفاح التي فضلت أن يكون بوزن ثلاثة كيلوغرامات ..

ضجَّ قلب محمد البوعزيزي بالبهجة ، وأحسَّ انه سمكة أُعيدت الى الماء بعد ان كادت تلفظ انفاسها وتموت .. كانت يداه تتحركان بكامل طاقتهما في وزن الاكياس ، وكانت عيناه تعجّان بالمرح ، وفمه يطلق فراشات الجذل بكلمات يحاول من خلالها مداعبة الصغيرين .. زاد من حبوره اقتراب اكثر من شخص يلقي التحية وينهمك في التقاط ما يبغي ، وهو يوزن ويقدم ، يحيي ويودّع ... ولم يحسب لحساب سيارة (البيك أب) التي توقفت ونزل منها صابر ، بحاجبين مقطبين وشفة سفلى تترهل .. واربعة عيون لشرطيين وجدا سعادتهما باكتشاف مخالفة ظلا يجوبان معظم شوارع سيدي بوزيد من اجل الرسو عند مرفأ اصطيادها ...

وكانت الضحية محمد البوعزيزي ...

"هذا الذي كايدنا كثيراً ، ودُلل كثيراً ، وصار كأنه يسخر منا ".. رددت ستة عيون بغيظ ، وتراقصت ثلاثة دواخل بتشفٍ ..

وبإشارة جاءت سريعة وحاسمة حُملت العربة بما حَمَلت .. وضعت في حوض (البيك أب) التي انطلقت صوب مبنى البلدية بينما تلاطمت كلمات صابر في مسمع محمد البوعزيزي المنذهل : الحقنا الى البلدية .. لقد اتعبتنا بما يكفي .

(8)

بين الاقصاء والاخصاء

كثيراً ما صرح الجزيري في معرض حديث تشوبه مرارة وألم أن الانظمة الرأسمالية تضع مصالحها الذاتية فوق السياسات ، وتجعل من تعاملها مع الآخرين مقروناً بالمصالح المتبادلة والمنافع المشتركة ، وهذه المصالح والمنافع غالباً ما تكون غير متكافئة . وعدم التكافؤ يخلق هوة كبيرة بين المبادئ التي رفعتها يوماً دعماً للإنسانية المعذبة ومصلحتها الذاتية . فيحصل جراء ذلك تغاضٍ عن تعسف وانتقام تمارسه الانظمة التي تتعامل معها بحق شعوبها . يعلن الجزيري دوماً أنَّ الشرائح المثقفة تتمثَّل طرفاً مهماً ممن يقع عليها التعسف فيمارس معها فعل الاخصاء فيما الاجيال الشابة التي تنتهض لتعمل وتنتج لتحرك عجلة الحياة نحو مستقبل يفترض أن يتجلّى مشرقاً بتأثير طموحاتهم وهممهم فتتعرَّض للإقصاء ، وترمى على الارصفة وقارعات الطرق ذليلة ، كليلة ، محبطة .

يقول انظروا إلى واقعنا العربي كيف اطيح بهيبة النظريات التي وضِعت لتؤسس للكبرياء الانسانية وتجعل الانسان في كلِّ مكان في تساوٍ ، مع استثمار أهمية الزمن في جدلية التغيير .. طالعوا كيف ظلت احزاب وتيارات ونخب المنطقة العربية أو دول الشرق الاوسط تحت طائلة التهميش بينما دعمت تلك الانظمة الانتفاعية ، بجشع ، الحكومات الجاثمة ، وكرَّستها مقابل أن تحتفظ بوجودها على دست الكراسي ..

والأدهى من ذلك ، يستمر الجزيري في الافصاح عن رأيه ، أنَّ في كثير من الأحيان تكشف هذه الدول تنظيمات وتحركات التيارات والاحزاب والنخب وتسلمها إلى هذه الانظمة كي تقمعها وتشل حركتها وتخرس اصواتها المطالِبة بالحرية والعدالة .

يتابع بعين الذاكرة سنوات أعوام خمسينات القرن الماضي والنصف الاول من ستينياته ، يوم كان المدُّ القومي والزهو الجماهيري على اشده بفعل ثورة يوليو / تموز 1952 وظهور جمال عبد الناصر زعيماً ثورياً حمل شعار تحقيق الحلم العربي في دولة عربية واحدة من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي .. دولة تعمُّها حرية كثيراً تاقوا أن تمر بهم او ينتزعونها عنوة من خاطفيها مثلما تتحقّق اشتراكية عربية

مُثلى ، اعتماداً على مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، فيعلو في سماء العرب نشيد وطني هادر ، ترددده النفوس التائقة لارتقاء تخوم الحرية :

اذا الشعب يوماً اراد الحياة // فلابد أن يستجيب القدر

ولابـد لليـــل أن ينجلـــي // ولابــد للقيـــــد أن ينكســر

يتعالى الزهو فيصير اشهاراً يهفهف بجناحي الكرامة على الجبال والهضاب ، السهول والبطاح ، على الصحارى المترامية والبراري الفِساح ، فتعيشها الغزلان تتهادى عند فيوض المياه المتشربة بعذوبة الارض وبركة السماء ، وتسوح الجمال بعيداً عن سراب المياه الخادعة فتنوخ بين ميلان العشب وحداء مالكيها المنشرحين بغناء الهناء وسط غياب الهجير والتصحّر..

تتعالى بيارق الكرامة وتشحذ الهمم للبناء واعادة ما مزقته مخالب المستعمرين انكليز وفرنسيين وايطاليين ، وقبلهم عثمانيون امتصوا دماء العرب باسم الدين وتركوهم اجساداً تشكوا النحافة واعواماً يُستحى استذكارها ، فهي ليست إلا حقب سوداء معتمة لا فعل فيها ولا استنهاض .. من هنا شُحذت الهمم ، واشتدت السواعد ، وانطلق هدير :

ومن لا يحب صعود الجبال // يعش أبدَ الدهرِ بين الحفر

ومن لم يعانقه شوق الحياة // تـدثَّر في جوّهـــا واندثـــــر

شعوب نهضت على صحوة تسعى لاستعادة بهجة غُيّبت عنها ، واحلام سُرقت منها . لذلك حقَّ لها بعد تلك الثورة أن تنهض لتغني ويتعالى صوت دعوتها للوحدة والتحرر . فكان صوت فريد الاطرش بمصاحبة عصمت عبد العزيز عذباً ، رخيماً وهو يجسد في أوبريت (بساط الريح) حيث يطير محلقاً في الاجواء ليمر على العواصم العربية ويتغنى بالمدن والبطاح في غناء توافقي تردده الشعوب بعذوبةٍ ، وانشراحٍ ، وزهو .. يسمع في بعض ابياتها شدواً يحاكي تونس ، بلده الجميل الرهيف ؛ فتعجُّ عينيه بالألق آن يذكرها الاطرش ، مترنماً بارضها الخضراء وغزلانها البيضاء .

وها هو اليوم يبصر تهاوي كل تلك الاحلام وموتها .. يبصر القهر يتعاظم ويعود بأدوات وطنية تقود انظمة أكثر قسوة على المواطن وأشد فتكاً من المستعمر المحتل إن لم ير انها تشبهه ؛ فيتمتم في سرّه : أية أنظمة هذه التي تجيز لنفسها سحق الإنسان ومحقه بلا رحمة ولا وازع ؟! أية بلدان هذه التي يجد المواطن فيه نفسه غريباً ، ذليلاً ، مهاناً ؟

****

ذلك النهار بدت مدينة سيدي بوزيد لمحمد البوعزيزي سجناً كبيراً له ، وبدا كل ما فيها يوحي بالمجافاة .. خيل إليه أن شوارعها ودروبها وأزقتها استحالت أفواه تطلق في وجهه سيول من الشتائم ، وبناياتها تبصق عليه كتلاً من قمامات الاحتقار ؛ فراح يحث الخطى هارباً صوب الفضاء الفسيح خارج المدينة . يحاور السماء بعبارات اللوم ويتوجه إلى خالقه بكلمات العتاب ، والناس الذين التقوه وعرفوه لم يعرهم اهتماماً حتى ظنوه أصابه العته أو هو يبدي لهم الاحتقار ، ولولا الدموع التي أبصروها في عينيه وشرعت تسيل على وجنتيه الموحلتين لجابهوه بالامتعاض من سلوك لا يجدر به ، وتصرف ليس من شيمه .. شعر هو بذلك وكان يود أن يعتذر لهم طالباً الصفح ، لكنَّ الغصة التي كانت تملأ حلقه وتدفع به إلى الصمت والخرس أعاقت ذلك ، فراح يندفع كالهارب من موقف لا يريد أن ينتهي بشجار .

في الممر الداخلي لمبنى البلدية كان قلقاً ومرتبكاً .. اصابعه ترتعش ويداه يرفعهما بحركات تبدو لا ارادية فيحك فروة رأسه بأظافره ، او ينزل كفه لتروح تحك ذقنه ؛ مؤكداً يفسرها الناظر حركات قلق وعدم اتزان .

يريد أن يدخل على شادية ليرجوا ، لكنه يتراجع خشية أن يُلاقى بجفاء اكبر فيؤزم الموقف عليه ؛ هو الذي يؤثر أن يستعيد العربة ببضاعتها التي ينبغي أن يبيعها ليسلم يحياوي ثمنها .

انسحب من الممر وسط قلق ممض وعين تبحث لعله يجد أحداً يعرفه ليستنجد به ، فخرج الى الفناء المؤدي الى خارج البلدية . انتصب عند الرصيف يستدير شمالاً ويميناً بحثاً عمّن ينقذه . كان الشارع يغرق في الشمس والسيارات تعدو . لم يلمح راجلا ، ولم يكن أحد يتقمص دور القشّة ... لكأن المدينة خليت من المعارف ، والاقرباء تفرقوا في عوالم نائية .. وإذ مرت سيارة باص ابصر عائشة من وراء زجاج النافذة . خمن أنها شاهدته ورفعت كفّها بالسلام . رفع كفاً يومئ لها أن تنزل لكنه شك في احتسابها رفع الكف ردّاً للتحية .. غير أن الباص توقف فجأة ، وإنْ كان على بعد .

شاهد عائشة تترجل وتتجه اليه بابتسامة عريضة . ولم يكن بالوضع الطبيعي الذي يرد بابتسامة اعرض وتحية ود اكبر ..

- **كيفك ، يا محمد ؟**

- **مش ولابد .. قالها بجزع .**

- **ـ خير .. شنو فيه ؟**

- **احتجزوا العربة ، ولم أر احد يرجو شادية رفع حجزها .. أتعرفين شادية ؟**

- **اعرفها ، ولكن ليس لي صلة مؤثرة معها .**

- **تعالي إليها .. لعلّها تلين بكلمةٍ منك .**

لم ترد ولم تعتذر . وما كانت راغبة في الاعتراض بكونها لا تأثير لها في هكذا موقف ؛ لذلك خطت معه داخلة الى المبنى .

- **كان قادري معي هذا الصباح . وكان عليَّ أن أطلب منه ان يصاحبني لو كنت اعلم انهم سيصادرون العربة ، وإن كان من غير اللياقة جعله يسير معي بلا غرض وانا ادفع العربة .**

وقفت عائشة أمام شادية ، وبرجاء أقرب الى الاستعطاف فاهت .. رجاء يصحبه رجاء ، واستعطاف شفقة يليه استعطاف .. كلمات استرحام ، وايماءات كسب ود .

كل ذلك لم يحرك ساكناً في القرار .. كانت أصلب من أنْ تلين ! .. كانت أكثر صرامة من أن تتراجع .

وبهذا خرجت عائشة حزينة وطعينة .. وبهذا خرج محمد البوعزيزي يعتذر عن احراج وضعها فيه .

ودَّعته وراحت تحث الخطى لتدخل انعطافة وتدس يدها في حقيبتها اليدوية ، تستل الموبايل .. تنقر بأصابع مرتعشة على رقم قادري .

سمع قادري لهاثاً وسلاماً متقطعاً :

- **ما بك ، عائشة ؟**

- **خير يا قادري خير .. واجهشت ببكاء أرعب قادري فصرخ :**

- **شنو في ، عائشة . خيرك ؟**

- **آآآآآآآآه ، قلبي يتمزق .. تمنيت أن لا اكون امرأة ، يا قادري أقف مكتوفة الايدي إلّا من لسان فاه كلمات ترجّي لا تجدي امام صخرة لامبالاة ..... يا الله !!!**

- لم أفهم يا عائشة .. لم افهم !

- اليوم رأيت مشهد الذل بعينه ، وسحق الانسانية بجلاء .. سقط قلبي .. لم أر محمد البوعزيزي بهذا البؤس والشقاء من قبل رغم اني عرفت منك ما لاقاه من ظلم .

- كيف ؟

- اليوم لم أره بمرأى الذل الذي يعبر عنه انسان حر ولا هوانا يتعرض له صاحب كرامة في صبر ... يا الله !!! رأيته كالعبد يترجّى ويتوسل ويخنع امام الشرطي صابر كي يعيد له عربة الخضار ويعده ان لا يكرر فعلته بالخروج الى الشارع والبيع .. " سأبيع العربة كما باعها صديقي والتحق بجوقة العمال في الصباحات ." يقولها بتوسل .. " اليوم شاهدته اقرب الى من يريد ان يقبل يد شادية وشادية كالجلمود لا تتحرك ولا يرف لها جفن من العاطفة حتى وانا أترجاها واتضرع لها .

جف لسان قادري ؛ وارتعش الموبايل بيده فلم يستطع تثبيته على اذنه .. غابت الكلمات وهربت فلم يقل الا :

- واين هو الآن ؟

- تركته امام مبنى البلدية ، وسمعته يقول سأذهب الى مبنى الولاية لأشتكيهم إن لم يعيدوا لي العربة .

*****

آه من أين آتي بالجزيري ، وكيف لي ان أصل الى الشيخ عبد الله ؟! " .. راح محمد البوعزيزي يتساءل عند رصيف الشارع تاركاً نظراته تبحث علَّ احداً ما يعينه على محنته .

عاد من جديد .. التقطه ظل الممر .. وقف عند باب شادية . تطلع بعين التفحص فلم يبصر سوى انشغالها في مطالعة ملفات وتقليب اوراق .

حين رفعت رأسها وشاهدته لم تعره اهتماماً ، بل عادت الى الملفات تقلبها ؟. واذ همَّ بالتحدث وتقديم الرجاء مرة ومرة فوجئ بصوتها ينهره . تنهض من مكانها ضجرة لوقوفه في الباب وتصمغه في مكانه ، تهطل من عينيه سحب الرجاء بمساعدته والعفو عنه .

تدنو منه ، حتى لتغدو بمواجهته وقد تفاقم ضجرها :

- لا تقف هنا ؛ يا محمد .. بضاعتك وعربتك مصادرة . وهذا أمر لا يمكن العودة عنه .

- ولكن !

- ..... .

هل خيل اليه انه شُتِم وأُهين ؟! .. هل شتمته فعلاً ؟.. هل تأجج خيالُه فشُبِّه اليه أنه تلقّى صفعةً على وجهه أم صُفِع حقاً ؟ .. هل حدث ذلك فعلاً ولم يكن قادراً على الرد كون الطرف المقابل تمثل سلطة قاهرة ستذيقه صنوف التعذيب وتنهال على رأسه كل مطارق فقرات القانون بتهمة اهانة الحكومة ؟

يأبى أن يُهان ، يتفجّر الدم في صدغيه لفعلٍ لم يتوقع حدوثه حتى في الكوابيس .. يرفض أن تستحيل الحياة بيديه رغيف ذل وهواء محسوب عليه بالأشبار .. يقاوم خنوع النفس التي تطالبه بالتواضع والصبر وتحمل عسف البشر ممَّن يمتلكون سلطة قاهرة لا حيلة له على مجابهتها .

يندفع الى مبنى الولاية .. هناك قرر أن يدخل على محافظ الولاية ليعرض مظلمته لكنه يجابه بامتعاض ثم يكبح بشدة . تضيق الدنيا في عينيه بما رحبت . تصبح خرم إبرة لا يستطيع النفاذ منها مهما حجّم من

روحه الطامحة نحو مراتب العيش المتواضع ، ورغم ما هدّأ من غيظ تراغى في مسارات القلب المعتصر .. كرامة لا يجب أن تُهدر ، وكبرياء لا ينبغي أن يُطعن .. طعنهما يستحيل قراراً لا يتخذه إلا الأقوياء الذين يمتلكون شجاعة لا حدود لها ولا سعة لاحتوائها .

يبصق على الأرض ويركل بصاقه : سحقاً لدنيا لا تجلب لك غير الخزي .. يرفع رأسه بشموخ الكبار .. يأمر أصابعه أن توقف ارتعاشها ، وساقيه أن يحملانه بقوة الأبطال . يخفف من غلواء قلبه المحتدم .. ويتمتم : " يا دنيا ! غرّي غيري .. ويا نفسُ ليس لكِ إلا أن تتعمدي بالنار انتصاراً على الظلم ".

يخطو خطو واثق انبثق في رأسه قرار اتخذه ولم ينفذه . تساءل للمرة الأخيرة مع ذاته إن كان قرارا انفعالياً لا يستحق التجسيد ، فجاء الردُّ يقينا وإصراراً .. جاء عزماً لا تثنيه ردّة ولا يمنعه عائق ، فالأبواب مغلقة لا نأمة في أمل ولا ومضة لحل ..

المهم انَّ البنزين الذي دلقه فوق رأسه امام مبنى الولاية وجعله يسيل على قوامه تشربت به ملابسه .. وكان على انتظار مع شعلة المصير ..

لم يسأله عامل بيع الوقود عمّا يبغي من القارورة التي ملأها ، ولا خطر في ذهنه ، مطلقاً ، حصول فعل خطير ومرير . وكان الزمن يراقب بعين المتتبع .. وكانت الدقائق القادمة الغارقة في سديم الغيب تخبئ ما لا يمكن التوقع .

هذا الزمن اعلن توقفه للحظة بسرعة خفقة رمش ليدوِّن على قرطاسه المشرع حادثة يرتكبها شاب قرر ان لا يتراجع في امر عزم عليه ، ولا يجبن .

هذا الزمن لاحظ ان يد الشاب الذي اسمه محمد البوعزيزي امتدت الى جيب البنطلون لتستخرج ولاعة قدحها بلا تردد فاطعم بنارها الملابس التي سرعان ما اندلعت فيها النيران ، وجعل يركض كما لو انه تقصد اضطرامها بأقصى توهج . كما لو سعى لقطع الطريق عمن سيندفع لقتل النار ويبقيه على قيد المرارة . كما لو اراد ان يجسد احتجاجاً لا رجعة عنه ، فلحظة التوجه الى الموت بألم افضل من سني هوان في حياة زجاجة يمسك عنقها ماردٌ ، قاتلٌ ، جبار .

تعالت النار ، وثارت في الجسد الحي والذاكرة المتحفزة لتنفيذ القرار حتى اكتماله.

ترى هل استعاد محمد البوعزيزي والنار تأكل حطبها الآدمي شوارع سيدي بوزيد ببيوتاتها وبحدائقها بيتاً فبيتاً ، وشارعاً فشارعاً .

هل مرَّ على وجوه سيدي بوزيد وجهاً فوجهاً .

هل مرَّت بذاكرته نبيهة كراولي تطلق عتباً : هزّي عيونك .. راهو جافو فيَّ .

هل تخيل مشهد زواج قادري بعائشة المفترض وافتقادهما له كسلطان ؟ .. قادري (الذي هو بطريقه الآن ليستفسر) وعائشة (التي تمزقت دواخلها واظلم النهار في عينيها) ؟

الكتلة النارية طفقت تترنَّح بعين الزمن المتوقف ، وتتهاوى الى الارض

جرى كل ذلك أمام انظار الشرطة المرابطين عند الباب الرئيسي العريض لمبنى الولاية ، ولم يحركوا ساكناً ..

يطالعون المشهد بلامبالاة ..

يقهقهون في دواخلهم بساديّة مَن يستمتع بعذاب الآخر . ولم ينتفض في رؤوسهم واجب الانقاذ المفترض .

يشمّون شواء اللحم البشري فتستأنس صدورهم للرائحة ، فيستنشقون .. وينتشون .

الفصل الرابع

طوبى للشَّعبِ الذي يَعرفُ الهتاف

سفر المزامير

المزمور الثامن والثمانون/ الكتاب المقدس

الكفاح لا يتحقق بأدوات القناعة أو بمفردات
الجمود . الكفاح يتوالد فكرةً ويتكرس حقيقة
عندما تكون هناك إرادة مثلى للتجاوز
وإصرار مكين على الخلق .. الكفاح كتاب
مقدس يضم بين دفتيه سوَر التضحيات
العظمى وصور المعاني الكبرى ."

جورج سورا .

... وهكذا هي الأيام ، تأتي نافرةً جامحةً أو متهادية ، طيّعةً . تأخذنا بأحضانها أو تلفنا بدوّاماتها .. يتولى بعضنا تدوينها خبراً لمن يقرأ او عِبرةً لمن يبحث عن عبرة .

تذكرة تتمثلُ لمن تأخذه متع الحياة وغواياتها فيظنها نهراً من جذل يصب في بحر من سعادة ابدية .

وهكذا هو الانسان .. نسيجٌ من مشاعر ، مرميٌّ على قارعة الزمن .. كيان أريد له أن يخطو على متوالية وقت لا يدرك حرفيات مَقدمِه .. فقط يستقبله استقبال مَن عليه أن يقبل بلا اعتراض ؛ فهو قدرٌ حاصل في كون مجهول .

وهكذا هي الغوايات ؛ تمجّد الطمع وتبعث على الاغراء ، فتحيل الانسان وحشاً والدنيا يتصورها غابةً لديه ، يريد امتلاكها وحده .. بلا منازع ولا شريك .

الوحوش حين تشبع تملُّ وتستكين .. أما الانسان فلا يملُّ ولا يكل.. يسعى للاستزادة حتى لو بلغ الشبع حد الانفجار . يشكو الجوع بمجرد أن تقبل الطبيعة ملأى بالثمار .. وإذ يبصر مَن يسعى ليشاركه بالنزر أو ينافسه يستحيل فتّاكاً ؛ فيروح يحلم باختراع وسائل تدمير اخيه الانسان (هكذا يُجيّر له خياله ، وهكذا يُحتِّم عيه حبُّ ذاته) .

ومنوبية لم تر في ابنها غير شاب آثر ان يحيا حياة الكبرياء ؛ يأكل مما تجود به يده من كد وعمل مثلما يرفض كف الاذلال تطبق على ساعاته .. وسيدي بوزيد تنظر إلى بن علي على أنه من جيش الذين لا يكلّون ولا يملّون .. أما المثقفون فوصفوه على انه نتاج نظامين دوليين لا يشبعان : شيوعية شمولية

تعسفية بشعارات لم تُطبَّق ، ورأسمالية استغلالية نفعية ، مهيمنة لا ترحم .. انظمة تركته هو ومنظومة كاملة من الحكام في المنطقة يتسيدون كآلات قمعية تطلق صوت اصطكاكها رعباً يوميّاً يذكِّر ويوعّي ؛ أو كهراوات تلوِّح من بعيد لتفجر في نفوس ابناء الاوطان هاجس العقاب الوحشي المريع .

ولكن أنى للشعب أن ينوء بثقل الهوان ، وكيف له حمل جبال الذل ..

كيف للأوطان أن تتلقى تماديات قتلة وسفاحين فتبقى صاغرة الى أبد الآبدين ، وعلى مقربة " يوجين " التونسي يجول بمصباح الشعر ، يردد بلسان الايقاظ : اذا الشعب يوماً أراد الحياة // فلا بدَّ ان يستجيب القدر ؟.. لذلك كان صباح الاربعاء 5 يناير/ كانون ثاني 2011 متكدِّراً ، والغيوم سوداء تحتشد في السماء . ولا اثر لشمس تنثر شعاعاً على المدينة إلا صبغة حمراء بلون الدم تحنّي رؤوس الغيوم الاشد دكنة وتشيع لوناً رمادياً على المساحات الفاتحة منها .. كان هناك هديرٌ متوالٍ ، يسبقه بريق ضوئي متقطع يشبه تماس كهربائي يحدثه سيل من مطر على اسلاك كهربائية متقاربة أو حمحمة جوق احصنه مُلجمة تنتظر لحظة الانطلاق والعدو في فضاء لا حدود له .

(1)

رحيق التحدي يكحل العيون

جموع مواطني سيدي بوزيد بعد الظهر ترفع جثمان محمد البوعزيزي صوب مقبرة (قرعة بن نور) خارج المدينة بوجوم كاتم ، ونفوس يحتشد فيها احتجاج دفين يتفاقم مع كل دقيقة تمر ، والصمت المشيع ينذر بتفجّر شعبي غير مسبوقٍ .. هذا الصمت لم يدم طويلاً . إذ ما ان قطع المشيعون شارعاً ، فشارعين حتى انطلقت من احدهم وقد بلَغ فيه الغضب حده هتاف ((لن نستسلم لن نبيع.. دم محمد لن يضيع)) كرره مرة ومرتين . وسرعان ما تلقفته المسامع فاندفع يحاكونه في الترديد . لكأن النفوس الغضبى كانت بانتظار هذه اللحظة كي تُفرغ ما في دواخلها من غيظ .. لكأنَّ الايام العشرة التي مرت من الاحتجاجات والتظاهرات كانت تمهيداً لثورة عارمة رغم ضراوة سلطة الدولة ورجالها القساة .. لكأن محمد البوعزيزي عاد لينثر على العيون رحيق التحدي ، ويهمس في المسامع تفاصيل الشهادة من اجل خلود الوطن واقرار أنَّ الذل لا ينتهي الا بالصراع المدعوم بالإرادة الصلبة ، وأنَّ الجناةَ لن يتخلوا عن سلطاتهم باحتجاج يسير ولن يفقدونها بسهولة ناجزة ؛ وأنَّ التحدي شروع بإسقاطهم ، وأنَّ الغدَ المشرق ليس ببعيد .

ينبري شاب عشريني ممتلئ بشجاعة لا تعرف التردد.. يتحرك ليتقدم المشيعين ، ويستدير كما لو كان يقود تظاهرة ، فيهتف بتوعدٍ ((سنُبكي من أبكاك ، يا محمد لن ننساك)) .

أجج هذا الكلام الملغوم بالثورة جموع المشيعين فحولوا مراسيم التشييع الى تظاهرة هادرة انتهت عند سياج المقبرة ، وأذنت غب عودتهم الى بيوتهم بفعل كبير وخطير سيجري في اليوم التالي .

في اليوم التالي نهض الصباح على ايقاع صمت يشيع .. وسيدي بوزيد بدت مدينة ثكلى .

لم يجر كالعادة نهوض الناس وتوجههم الى محلاتهم ، ولم يحصل تجمع لعمال البناء في الساحة كما تجري العادة كل يوم ..لا ، ولا استقبلت المدينة السيارات القادمة من المزارع والارياف محملة بالخضار والفواكه . فقط كان الشرطة واعيان الامن يرابطون عند مداخل الشوارع ونهاياتها .

كل شيء يشي بتوقف الحياة .

رموز السلطة يعتريهم هاجس قلق يشوبه حذر معفَّر بالمجهول بعد ان تناهى الى مسامعهم عبر اعيانهم المندسين بين الناس ان هذا اليوم سيكون سيئاً عليهم ، ذلك أنَّ اضراباً واحتجاجاً سيشلان المدينة ، وان تظاهرات موحدة ستنزل الى الشوارع قد تصاحبها فوضى ؛ اقلها الرشق بالحجارة .. بيدَ أنَّ شيئاً من

طمأنينة ، وإنْ تكن مرتبكة ومترجرجة ، تحدوهم بعد أن علموا أن لا دور للأحزاب المناهضة للسلطة في تنظيم الاضراب .. فهو احتجاج ناتج عن أناس منفعلين لحادث يرونه مأساوياً لشاب من بلدتهم مات بطريقةٍ مروِّعة ، وبطالة تهدم سنين اعمار شبان تحاربهم البطالة بسيوف الذل والقهر والحرمان .. ولم تكن تتوقع أن سيكون شرارة بدء ثورة ستنفث روح الرفض الشعبي العارم في الفضاء التونسي برمته ..

ومع تهافت الدقائق المُلغَّمة بالحماس تدفقت جموع مواطني سيدي بوزيد ومن حيث لم يحسب محافظ الولاية ومدير الشرطة ومسؤول اعيان الامن... تدفقت الجموع من احياء سيدي بوزيد جميعاً ليشكلوا حشداً جماهيرياً مرعباً أمام مبنى الولاية وهم يطلقون الهتافات المطالبة بمحاسبة من تسبب بمقتل شاب كل ما كان يفعله ان يعمل ويكد من اجل تحصيل لقمة عيش شريفة بدل ان يحيا البطالة والضياع .

كانت الجموع تهدر كما لو كانت تحاكي الهدير السماوي .. تهتف بأصوات حادة تشق ستر الصباح .... هكذا ؛ ولأول مرة منذ وفاة محمد البوعزيزي ينتظم الحلاقون والمزارعون ؛ الصاغة والزبالون ؛ المدرِّسون والباعة المتجولون ؛ الشيوخ الذين هرموا ، مع الشباب الذين توّاً تفتحوا ؛ خياطو السراويل والسترات مع الصيادلة والأطباء ؛ المدرِّسات والموظفات وعاملات الفنادق مع ربات البيوت ؛ الصحفيون المقيدون بأغلال الخوف والترهيب ، مع الأدباء والفنانين الملجومين بتلويحة العصا الغليظة ؛ صانعات السلال والأواني الفخارية مع عمال أفران الخبز والعاملات الخبّازات في بيوتهن .

لأول مرة يستنفر مواطنو سيدي بوزيد هممهم فيتركون كل شيء وينزلون إلى الشوارع يرفعون شعارات سحق الفساد ومحاسبة المفسدين ، ساخرين وباستهجان خطاب الدولة الرسمي الموشى بالوعود الكاذبة للسلطة في موازبة أبواب الرفاه عبر القضاء على البطالة واستحداث الوظائف للخريجين العاطلين .

لأول مرة تنطلق شرارة الثورة من شباب يغذّونها بهتافاتهم ، متَحدينَ هراوات الشرطة السرية وشتائمهم البذيئة . ينزفون الدماء من أجسادهم فلا يأبهون . صارت الهتافات رعداً ، والأجساد هديراً . ارتعبت السلطة ، ارتعشت أيدي القتلة . تصلهم اخبار استمرار الاحتجاجات كبيرة وضخمة في معتمدية (منزل بوزيان) القريبة من سيدي بوزيد (منذ سمعوا باحتجاج محمد البوعزيزي على الظلم وادخاله المستشفى بحروق ضارية) ما لبثت ان تفشت الى البلدات المجاورة : المكناسي ، و الرقاب ، وسيدي علي بن عون ... وصلت برقيات الغضب إلى قفصة و والقصرين وصفاقس وسوسة وقابس وبنزرت وزغوان وسليانة والمنستير .. انتقلت إلى القيروان وجندوبة والكاف والمهدية وتطوان وتوزر ونابل ، وأحزمة الفقر المحيطة بالعاصمة ؛ فامتلأت السماء بالوميض والرعد ؛ واندفعت الحشود تخلع عنها رداء الخوف لتستبدله بغيوم الشجاعة والاستعداد للتضحية بينما لاحت لهم الحرية امرأة مغناج بجسد ممتلئ تومئ لهم أن يتقدموا صوبها لتحتضنهم وترمي في وجوههم نسمات الانطلاق بلا قيود ولا معوقات

الجزيري بمعطفه الصوفي الاسود يتقدم التظاهرة ويرفع يديه عاليا بتوافق مع هتاف المتظاهرين بينما قادري يشبك يديه مع الذين على جانبيه .. خط من المتظاهرين كان منهم يحياوي ، وجندوبي ، والشيخ عبد الله ، وسي عزيز مدير ورشة الفخار ، وابراهيم صاحب المقهى ، ومعه عماله .

يشبكون الأيدي ؛ يصنعون جداراً منتظماً حتى لا تندفع الجموع المنتفضة بغير نظام . كان يراد لها تظاهرة لا يشوبها عنف .. فقط طلب من المتظاهرين قبل انطلاقتهم ان يرددوا شعارات (لا..لا للاستبداد // يا حكومة الفساد) ، و(لن نستسلم لن نبيع ، دم محمد لن يضيع) .

احد المتظاهرين المحتجين كان لبقاً ومتحمساً . كان طويلاً ومربوعاً . عمر الثلاثين يمنحه شجاعة قائد . اوقف المتظاهرين والتفت ليكون خطيباً .

ذلك جعل قادري يستل هاتفه الجوّال من جيبه . فتح الكاميرا وراح يصور المشهد إذْ وجده فرصة ليكون تسجيلاً حيّاً سيبثه في الـ(يو تيوب)... رفع الشاب المحتج يده واشار بسبابة متصلبة : " استمعوا اليَّ جميعاً ابتداءً من الواد الى اعوان الامن .. نحن نريد حياةً كريمة .. نريد الحد الادنى من متطلبات الحياة " . هاج الحشد وماج يؤيد ما قاله بينما زغردت حفنة نسوة كن يتابعن التظاهرة من شرفة شقة تطل على

الشارع كتأييد لما سمعن او تحفيز لمن خطب ؛ ما لبثت ثلاث نسوة أخريات ان حاكينهن بالزغاريد ، فتحاكيهن عائشة وكادر ورشة الفخار من الفتيات ، ومعهن كانت زميلاتهن من نسوة نابل ، ومعلمات ، وموظفات ، وعاملات اجيرات ، وربات بيوت اتخذن جانباً من التظاهرة ، وهن يلوّحن بعلم تونس يميناً وشمالاً ، ويرددن بأصوات حادة دعوات ضرورة محاسبة المفسدين ، وتوفير الحياة الحرة الكريمة للمواطن .

النداءات او البيانات او المطالب ، بالكلمات المعدودة دخلت الى اليوتيوب بعد ساعة .. سريعاً نقلها قادري مع اشارة الى مكان سيدي بوزيد ؛ الساعة التاسعة صباحاً زمن حدوثه .. مَن دخل الى اليوتيوب تلك الظهيرة شاهد ذلك .. كلمات الشاب المتحمس المحتج ومَن معه من المحتجين ألهبت دواخل المتابعين لما يجري عبر الشبكة العنكبوتية فجعلت القلوب تحتدم ببواعث الاحتجاج مقروناً بغيظ متراغٍ ، وتفاقمت في الرؤوس فكرةُ المشاركة الفعلية ، الفعالة لا التفرّج البارد ، الباهت ... مشاهدو الفضائياتٍ يتابعون بعين الإكبار المرأة التي اسمها " صافية " بقفطانها الوردي المخطط بشرائط بنية ، ورأسها المتلفع بوشاح ذهبي .. أم يوسف ، وهي بين الرجال أمام مبنى ولاية سيدي بوزيد يصورها قادري .. يقول في تمتمة : " اي يا أميمه .. هذا يومك .. ارفعي صوتك فأنت أم تونس .. يبصر الرؤوس تتجه الى جهة الزقاق المقابل فيشاهد حشداً من نسوة تتقدمهم امرأة ، ترفع علما تونسياً تلوّح به ، يعاضدها جمع من نسوة وفتيان يحملون الأحجار كانت الشرطة واجهتهم في الشوارع الخلفية فاضطروا الى اتخاذ طريقاً فرعياً بغية الانضمام للتظاهرة التي تجمعت امام مبنى الولاية .. صاحت صافية من مكانها مرحبة : اهلا بأم يوسف .. واهلاً بالغاليات ..

كانت ام يوسف كالثكلى التي فقدت ولداً جاء من رحمها .. يشوب صوتها المحتج عبرةً ورغبة في بكاء على عزيز خبرته في تعاملها معه هي وجاراتها مؤدَّباً خلوقاً ، وعاملاً شريفاً .

شعر الحشدان اللذان تلاحما بقوة أنهما صارا تجمعاً واحدا هادراً ، وصلباً ، فانطلق الهتاف موحَّداً يرتفع الى السماء .

(2)

كلا .. كفى

هل اقتصر الاضراب على ذلك اليوم فقط ؟ .. وهل انتهى الاحتجاج بمجرد غياب الشمس وحضور المساء ؟.. هل شعر المحتجون انهم أدوا دوراً انسانياً وفاءً لابن مدينتهم المظلوم ؟ وهل ستنام سيدي بوزيد بعد ذلك نومها الاعتيادي الهامد ؟

مدينة سيدي بوزيد قالت نافرة : كلا ... كلا !

والمواطنون صرخوا : كفى خنوعاً ! ...كفى .

الـ (كلا) ، والـ(كفى) ظلت تغلي خمسة عشر يوماً ! ..

خمسة عشر يوماً استمرت تعطي الشهداء قرابين للأرض . وتترك للجرحى اوسمة فخارٍ امام الاعين ، وارثاً للآتين في قادمات الأعوام .

خمسة عشر يوماً تجاهلتها وكالات الانباء .. ماكنة بن علي الاعلامية عتّمت عليها ... تندلع التظاهرات منذ مطلع الفجر وتحار الحكومة المحلية كيف توقف الاحتجاجات وتُخمِد الاصوات التي تفجرت بالثورة وقررت ان لا تصمت أو تخبو .

فما ان تشعر السلطات المحلية بارتياح لإنهاء تظاهرة في شارع حتى تفاجأ بهدير جارف في شارع آخر وصوت زغاريد النسوة من فوق السطوح وشرفات الشقق تتواصل .. زغاريد كما لو انها شعارات

تتراصف مع الشعارات التي تطلقها افواه الرجال ؛ تنطلق لتدعم المحتجين لتقول ان النسيج الاجتماعي واحد ومتماسك .. نسيج استقبل شرارة متوهجة في " بوزيان " اقرب مدينة لسيدي بوزيد ، فاندلعت التظاهرات ، وعم الاحتجاج ..أغلقت المدارس ، وتفشّى الاضراب .. معها انطلقت رسائل المحتجّين عبر الهواتف المحمولة تناشد المدن الاخرى ان لا تقف تتفرج . ووظِّف الفيسبوك ليكون وكالة انباء مجانية ترسل الاخبار الفورية ليطلع عليها القراء ؛ وفيها مناشدة دعم رفض الظلم ومناهضة الجور .. وهناك كانت صفحة اليوتيوب تنقل صوراً متحرِّكة لجموع المتظاهرين السلمية المحتجة ، ومعها وسائل السلطة القمعية المستخدَمة .. تعرض صور الدماء تنزف من وجوه ورؤوس الشبان الاكثر حماساً في الاندفاع بالهتاف ورفع اللافتات .. تعرض صور الشهداء صرعى برصاص رجال الامن الحي وهراواتهم الكهربائية .

يقتنص الجزيري شيئاً من وقته آن يعود متعباً إلى شقته .. يدخل على شبكة النت ويكتب لخديجة بن عثمان :

- انه دورك اليوم . تحركي .. سيبعث اليك قادري كل ما يستجَد .. سلّميه لوكالات الانباء. اتصلي .. سيستمر قادري وهو صديق محمد البوعزيزي وخريج جامعة عاطل منذ اعوام برفدك بالأخبار في وقتها .. يجب أن لا نصمت .. هذه الفرصة التاريخية لإزالتهم ، ومحوهم من خارطة البلاد .. سيبعث اليكِ كل ما يستجد فكوني متأهبة .

- وهل تراني منشغلة عمّا يحدث عندكم ؟! ليكتب لي قادري أو انت ، وستجد ما يصلني منكم منشوراً في الصحافة .. وانت بدورك اتصل بكل مَن تعرف في المدن الاخرى .. استفد من علاقاتك لتأجيج الاحتجاجات حتى تستحيل ثورة .

****

مَشاهد اليوتيوب للتظاهرات المندلعة في سيدي بوزيد يومياً بلا توقف اربكت أجهزة بن علي الامنية في العاصمة لاسيما وقسم المتابعة الاعلامية في جهاز الامن قدَّم تقريراً تشاؤمياً وأكثر سوداوية .. قدَّم ما يشبه التحذير والخوف الحقيقي من تفاقم اعداد المشاهدين التونسيين لما يعرضه اليوتيوب مؤجّجاً حماستهم ، مقرونةً بتململٍ يتعاظم يوماً بعد يوم .. ذلك جعل بن علي يطلب تشكيل غرفة طوارئ لمعرفة من يُصوّر الاحتجاجات في سيدي بوزيد ويبثّها سواء في الفيس بوك او اليوتيوب .. ولم يمر غير يوم واحد ، وغب استنفار الاعيان في المدينة ودخولهم في التظاهرة لمشاهدة مَن يتولى التصوير .

ولقد أظهر للمدققين في غرفة الطوارئ أنَّ من يصور ويرسل هو قادري ..

رصده احدهم : يستخدم هاتفاً جوالاً ؛ وتتدلى من كتفه الايسر حقيبة سوداء نسيجية ثقيلة ، تحوي (لاب توب) .

صفحته الامنية لديهم كشفتها شاشة الكومبيوتر في ملفه الخاص الذي يحتفظون .. ملف يحوي معلومات تضم كل ما يتعلق به .. اسلوب امني استخباراتي يجمع معلومات تخص كل مواطني الدولة ..

أنه قادري بن سليمان .. وقرأوا :

- خريج فلسفة – عاطل – مستقل- اقرب المقربين اليه : محمد البوعزيزي ، مصطفى الجزيري _ عقد قرانه قريباً من عائشة الـهلالي .

قال عنه اعيان الامن المندسين أنه نشطٌ ، ومتحمسٌ ، وله دور كبير على التحريض ..

وجاء القرار : تصفيته فوراً .

في اليوم التالي كانت ثمة فوهة لبندقية كاتمة بناظور دقيق أُعدَّت خصيصاً لتتولى المهمة ؛ سقط قادري على اثر ضغط نابضها بسبابة الجريمة والدم يتدفق من وسط جبهته .. سقط وعين الكاميرا تصور فيديوياً الايادي المرفوعة تهتف بمعاقبة السراق والمرتشين ... سقط في اللحظة التي اشارت عائشة الى زميلتها ماجدة أن الاحتجاج اندلع ولن يتوقف ، فوافقتها أنيسة بحماسةٍ واصرار .. سقط في اللحظة التي صوبت عينيها لتطالع الحبيب الاصيل ، الوفي لصديق العمر وهو يقوم بواجب الصداقة النقية .

اندفاعاً كان التحرّك اليه ، ورعباً ! .. افتضت الجمع الذي تحلَّق حوله لمعرفة ما حدث ..

كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما كأنهما تبغيان التقاط ما تسعهما من مشهد الاحتجاج .. ابتسم لرؤية عائشة تطلُّ عليه بوجهٍ ممتقع وعينين ذاهلتين .. ابتسم وهو يجاهد برفع الهاتف ليسلمه لها .. تناولته من بين انامل شرعت تتراخى لحظةً راحت عيناه تغفوان ، والاجفان تنطبق عليهما الانطباق الابدي .

سحبت اللاب توب من كتفه الذي راح يبرد .

بكته بعين الذهول .. لكنّها اظهرت تلك اللحظة تجلّداً خشية تراجع معنويات المتظاهرين وانكفائهم .. ثم كأنها تذكرت انه كان يصور .. رفعت الكاميرا !.. وجهت عليه عين التصوير وهو على الارض ، ورأسه وسط نجيع الدم الفوار ، ثم رفعتها لتكمل تصوير الفيلم وتبعثه تلك الليلة يشاهده آلاف المتابعين لحركة احتجاج قرر قادتها انه سيتحول الى ثورة ، وانهم سيكونون جسراً لعبور الثائرين الى جزيرة الظلم لتهديم قلاعه ، ورفع راية الحرية .

****

.. لم تضع سلطات بن علي في الحسبان أن ردِّ فعل سيتفجَّر بعد موت محمد البوعزيزي سيكون من (تالة) .. مدينة من ولاية القصرين ، عند الحدود الجزائرية ، تنأى عن سيدي بوزيد بعشرات الكيلومترات ، وعن العاصمة تونس بمئتين وخمسين كيلو متر .. اندلع احتجاج صاخب من مدارسها الاعدادية والثانوية بدفع من الاساتذة الذين ظهر أن الجزيري اتصل بهم عبر الانترنيت وحرضهم على بدء شرارة الاحتجاج من الغرب مثلما دعاهم الى تصوير ذلك وبثه في اليوتيوب .. ولقد عرض اليوتيوب بعد ساعات هتافات الطلبة واندفاعهم الى شوارع تالة ، رافعين شعار (الشعلة بدأت ولن تنطفئ إلا بانطفائنا) ما تسبب باشتباك بين المتظاهرين والشرطة واعلن عن غلق المدارس الى اشعار آخر .. تبعها فيلم آخر من معتمدية منزل بوزيان ثم اندلعت في القيروان .. في القيروان تفجرت تظاهرة لطالبات الجامعة وهنَّ يتقدمن بصدور تفشي إصراراً على تحدى نظام بن علي ، ولم يتراجعن حتى والشرطة واعيان الامن ينهالون عليهن بالعصي والهراوات . من ذلك الموقف رفع رجل في عمر السبعين يشهد الصدامات ويرى النساء بهذا التحدي صوته هاتفاً : الثورة ستنجح .. الثورة اندلعت .. بن علي ساقط .. بن علي الى الحضيض " .. إذ لم يشهد طوال حياته مثل هذا التحدي والاصرار وهذه اللحمة الخرافية من طالبات ينزلن الى الشوارع مصممات على مواصلة الاحتجاج والتظاهر بلا خشية ..

الصحف تتولى نشر الاخبار المتسارعة ، فتنشر صحيفة القدس العربي في لندن صورة لشارع يتعالى فيه الدخان واسفله كتب ((شوارع مدينة الرقاب قرب سيدي بوزيد تحترق)) ؛ والى جانبها صورة شاب قتيل كتب تحتها ((أحد القتلى برصاص قوات الأمن في بلدة تالة قرب الحدود مع الجزائر))

وتلقى الجزيري خبر تفجر جماهيري كبير في (القيروان) و(المسير) ، كان فيها المتظاهرون يواجهون الشرطة وعنفها بتحد تحدوه شجاعة .. ثم في (جبنيانه) التابعة لصفاقس تفرق طلبة المعهد الثانوية الذين اندفعوا خارج بناية المعهد بتحريض من اساتذتهم جراء عنف الشرطة ورجال الامن الذين توعدوهم بالقتل ان استمروا في احتجاجهم .

لم تعد ثمة قرية في تونس ولا قصبة ولا واحة صحراء إلا وانتفضت .. صارت البلاد ثورةَ جغرافيةٍ متواصلة اعلنت للعالم جميعاً استمرارها الذي لا توقفه قوى مهما عظمت ولا تقوّضه سياسة مهما راوغت

.. ومع سقوط الضحايا وتعاظم اعداد الجرحى كان الاصرار على مواصلة الثورة لا رجعة عنه ، وكان شعار (الشعب يريد اسقاط النظام) يقوى ويتكرس ليغدوا حقيقة ماثلة لا يمكن تجاوزها ..

(3)

الاحزاب على الخط .. الاحداث تتفاقم

بدخول الاحزاب ، ولو متأخرة ، على خط الاضراب حيث التنظيم والتنسيق والتعبئة للتظاهرات ، تصاحبها التصريحات المتزنة والمسؤولة وظهور نقابة المحامين جهة ذات ثقل كبير بإعلانها الاضراب كشف لوكالات الانباء التي كانت تنقل الأخبار كأحداث لا تعدو ان تكون احتجاجات أن الامر لن يمر بخير على النظام ، وأن تونس تدخل درب الثورة الشعبية التي لن تقف .

توالت التظاهرات المنظمة ..

هبَّ الشعب ..

- **(صفاقس) تشهد تظاهرة بعشرات الالاف بناء على الدعوة التي وجهتها الاتحادات الجهوية للشغل ..**
- **(تالة) مقتل ستة محتجين بفعل مواجهات عنيفة مع رجال الامن .**
- **(الحمامات) تنتفض وتنطلق حناجر مائتي متظاهر تجمعوا في شارع (فرحات حشاد) الرئيسي ، ومعها ضاحية (الكرم الغربي) شمال العاصمة ، ثم مدينة (سليمان) في جنوبها فيسقط ثلاث شهداء ..**
- **انتحاري بالكهرباء في سيدي بوزيد ..**
- **إقالة محافظي سيدي بوزيد وجندوبة وزغوان ..**
- **أول مظاهرة في العاصمة التونسية نظمت أمام مقر الاتحاد العام التونسي للشغل . قمعها رجال الامن بقوة .**
- **تعليق الدروس في المدارس والجامعات إلى أجل غير مسمى.**
- **عزل وزير الداخلية ..**
- **إضراب عام لثلاثة أيام ينظمه الاتحاد العام التونسي للشغل..**
- **بن علي يلقي خطاباً ثالثاً فيه تنازلات كبيرة لا يأبه لها الشعب التونسي ..**
- **وصول المتظاهرين الى اماكن حكومية حساسة والجيش يرفض التدخل لصالح النظام ..**

شارع الحبيب بورقيبة في قلب العاصمة التونسية يمتلىء بالمتظاهرين المطالبين برحيل بن علي ومحاكمة اعوانه .. المتظاهرون يهددون بالتحرك الى قصر قرطاج حيث يقبع بن علي المرتعب من الغضبة الكبرى

(4)

الالتحاق بالثورة

في القاعة الفارهة لمطار (أورلي) كانت خديجة بن عثمان بالبنطلون الجينز والكنزة الصوفية الداكنة الزرقة تحمل حقيبة صغيرة وقد تركت الزوج والاولاد في باريس لتعود الى تونس .

وقفت امام ضابط الجوازات الفرنسي الذي ابتسم لها . وكما لو قرأ ما يجول في عينيها او هو من عِداد المزاح قال :

- **انت فرنسية الجنسية . أتذهبين لتشاركي التونسيين ثورتهم ؟**

بابتسامة يضمخها الحزم والجد اجابت :

- لا انا تونسية وان حملت الجنسية الفرنسية لكني فعلا سألتحق بالثورة .

وسَّع من ابتسامته ، ودعا لها بالتوفيق وإن هو ردد : كوني حذرة ... فتمتمت كأنها تجيبه : لا حذر في المواقف المصيرية .

اغلقت الجواز بعدما اطلعت على الختم الذي بان تاريخه في6 يناير 2011 ، وتحركت لتطالع شاشة اوقات وصول الطائرات وانطلاقها من المطار ثم خطت لتجلس على كرسي وسط المنتظرين الجالسين او المنهمكين في نقل الحقائب وتقريبها من مداخل الممرات التي تقود الى الطائرات المُهيّأة للانطلاق صوب مطارات مختلفة .. عاد اليها حوار ليلة قبل البارحة :

- " سأعود .. يجب ان اعود ".. كتبت للجزيري ، الذي اجابها سريعاً :

- لا ، يا خديجة . بقاؤك في باريس لصالح الثورة .

- لكن الثورة تفشَّت والوكالات تصوِّر وتنقل الأخبار على جناح الومضة . يجب ان أكون في الصف الامامي معكم .. لم يعد هناك تعتيم . وبن علي اضعف ما يكون اليوم ان قارناه بالأمس ..

لم يكن رأيها مخطئاً ؛ فقد جاءت خطابات بن علي حادةً في البدء ، ونارية . يتطاير منها التهديد والوعيد ، ثم انتقلت إلى محاولة التهدئة بتغيير بعض الرموز (30 ديسمبر : أقال محافظي سيدي بوزيد وجندوبة وزغوان.. وبعدها في 12 يناير : أقال وزير الداخلية والتنمية المحلية رفيق بلحاج قاسم.) ؛ ثم بوعود اصلاحات بلا حدود (في 10 يناير بتوفير 300 الف فرصة عمل جديدة)، ثم الاعلان انه ظُلِّل من قبل مستشاريه فحلَّ الحكومة (في 13 يناير ووعد بإجراء انتخابات خلال ستة أشهر) .. ثم خطابه الذي ردد فيه عبارة ((الآن فهمتكم))، تلك التي ردَّدها شارل ديغول وهو يخاطب الجزائريين المحتجين على سياساته عندما زار الجزائر ليقنعهم بقبول قوات بلاده على ارضها . يومها جوبه بردّة فعل شاملة ومن كل المدن والبطاح الجزائرية أدى الى استفتاء يوليو 1962 الذي قاد الى الاستقلال .

يستعيد الجزيري وهو يستمع لابن علي يكرر كلمة ((الآن فهمتكم)) من شاشة التلفاز حكاية الشاعر عوف بن ملحم الشيباني حين مرَّ به موكبُ الامير عبد بن الطاهر فألقى الأمير بالتحيّة على الشاعر وكان قد بلغ الثمانين فلم يسمعه . وكرَّر الأمير التحية ولم يسمع الشيخ العجوز عندها قيل له ان الامير القى عليك السلام عديد المرات فلماذا لم ترد .. تلك اللحظة تحسَّر وطأطأ راسه اعتذاراً قبل ان ينطلق لسانه ببيتي شعر سيردد ثانيهما الجنرال ديغول على شعبه غب تظاهرات مايو عام 1968 ، يوم انطلق الشباب من طلبة وعمال بتظاهرات واعتصامات على سوء الوضع الاقتصادي وتدهور حياة الناس . :

يا ابن الذي دانَ له المشرقان طـرّاً وقد دان له المغربـــــان

إنَّ الثمـــانينَ وبُلِّغتَـــــــــــــــها قد أحوجت سمعي الى تِرجُمان

وكان ديغول قد بلغ الثمانين فعلاً .. فاستدار يسلِّم صولجان القيادة لخلَفه (بومبيدو) الذي فاز عليه في الاستفتاء ... لم يكن ديغول قائد تحرير فرنسا بحربها التي كان الجزء الوفير منها يطلق عليه حرب الانفاق ساديّاً أو أنانيّاً كأنانية شاوشيسكو الذي حرم شعبه من التدفئة تاركاً إيّاهم يرتجفون برداً من صقيع أوربا ورياحها الشتائية المثلجة ، بل اعتذر بكياسة الحكماء والقادة الذائبين في أنفاس شعوبهم .. اعتذر دون أن يهرق قطرة دم من مواطن احتج ، أو يزج معارض له في سجن فينتقم .. فقط قال في سرّه ما قاله يوماً للجزائريين المحتَّجين ((الآن فهمتكم .)) واستدار ليسلم مفتاح القيادة لمن خلَّفه مدركاً أن لا شيء يدوم لأحد ، وان لا حب يفوق حب القائد لشعبه ، وأن مَن طالبوا بتغييره قد يعودون اليه عندما يكتشفون فشل خلَفه الذي انتخبوه .

لقد فهم بن علي التونسيين بعد أن أطل برأسه في لحظة تخفي من نافذة احدى البنايات في شارع بورقيبة وأبصر بعين بصيرته الشارع بعرضه وبطوله يضج بالمتظاهرين ، وهدير اصواتهم يملأ الفضاء (الشعب يريد اسقاط النظام)) ..

فهمهم بن علي فاستدار الى اتباعه الذين ظهروا شاحبي الوجوه ، يهزهم الرعب ، ويخذلهم المشهد فتمتم كانه لا يريد ان يسمعوه : " تونس ليست لنا بعد الان ".

تلك الليلة ، ليلة 14 يناير كان ثمة خبر عاجل نقلته الفضائيات تشير لحركة غير اعتيادية في مطار قرطاج ..

كان زين العابدين بن علي يهرب .. وشوارع تونس العاصمة تقفر - بعدما ذهب الشعب لينام اثر جهد خرافي بذله طوال اسابيع - إلّا من شاب وقف وسط الشارع المنفتح يردّد بكل جوارحه وما تحتويه حنجرته من امكانية توليد الصوت : (ما عادش نخافو من حَد .. احتررنا ..الشعب التونسي حر .. الشعب التونسي ما يموت .. الشعب التونسي العظيم .. تحيا تونس الحرة ..المجد للشهداء ..الحرية للتوانسه..) .. ليعقبه ذلك الرجل الكهل الذي ظلت شاشات الفضائيات تنقل صرخته المعززة بالفرح وهو يمرر كفه على رأسه الاشيب ، مردِّداً :(لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية .).

(5)

الشرارة التي احرقت البيدر

مع كل فجر ، وغب نداء " الصلاة خير من النوم " القادم من منارة الجامع القريب تنهض منوبية لتصلي .

تصلي مستغفرةً ، مؤمنة خاشعة تتضرع لله ان يفتح لولدها باب جنان الخلد فقد ذهب شاباً لم يُكحِّل عينيه بصور السعادة ولا عاش السرور المرتجى .. تروح في سكون عميق كما لو كانت ترحل اليه لتحدثه عما جرى بعد رحيله وما حدث للبلاد .. كانت تريد أن تقول له كنت الشرارة التي احرقت البيدر . ففر بن علي وصارت البلاد تحيا الحرية .. كانت تريد أن تقول لقد مللنا الكاميرات وعدسات الفديو والصحافة التي تتحدث عنك ليل نهار ... كانت تريد أنْ تقول إنَّ اخواتك يبكين على فراقك واخوك سالم يلوذ بالحزن كلما طرق الباب للتحدث معه وأخذ ما يمكن ان يسلط الضوء على شخصيتك وقرارك الشجاع لقراء ومشاهدين تبدو لهم لغزاً شكل شفرة لاندلاع الثورة وانتشار لهيبها الى مصر وبوادر تفجرها في ليبيا ووصول شرارها الى اليمن .. كانت تريد أن تقول وتقول لكنها آثرت النهوض كي تعد الشاي وتسخّن أرغفة الخبز قبل أن ينهض الاولاد ويتجهوا إلى وجهات عملهم ودراستهم .. وكانت خديجة بن عثمان تكتب في الفيس بوك :

((مَن يَحسب أنَّ موجةً من لهبٍ تُحدِث زلزالاً مهولاً سيطيح بطواطم ظُنَّ أنها جبال لا تتزعزع ؟! .. من يصدق أنّ صرخةَ يأسٍ ستفجر ركوداً جاثماً على صدور أجيالٍ أحنت الرقاب حتى أوشكت أن تمشي على أربع ؟ .. من قال أن شاباً في مدينة منسية على خارطةِ وطن بحجم برتقالة ، بشكل كمَّثرى سيعلن البيان رقم واحد في ثورة تمهِّد لثورات قد تندلع مرددة شعاراً مستوحى من قلب ذلك الشاب الذي لسوء حظنا لم يشهد نتائج بيانه الخرافي . شعار ردده جمع من محتجين ، تناسلت أصواتهم حتى غدت هديراً أرعب قلوبُ المستحوذين وخلق هلعاً أدى في أدنى حالاته إلى هربهم كمنهزمين في معركة ، وراح يلاحقهم بـ ((الشعب يريد إسقاط النظام)) لحاق الصدى المرعب في قلبٍ هلوع . يرمي عليهم أبابيل الاندحار والتواري ذليلين ، خنوعين إلا من تاريخ عتيم يتلبَّسهم ، ولعنة ليس لها انتهاء تلاحقهم .

مَن يظن أنَّ فتى طرق جميع الأبواب ، وسلك كافة السبل من أجل عيش يرفع لافتة الكرامة ويعلي قدر الإنسان سينتهي الأمر به ليشعل نفسه فيحرق بذلك كتب الطغاة التي خطّوها بماء الفضة الأبيض ، وزينوها بخيوط الذهب الأصفر ، وأرادوا لها أن تكون مقدسةً لا يمسسها إلا المواطنون المتهالكون جوعاً

وفقراً واستلاباً ؟.. مَن يجرؤ أمام فتى اسمه محمد البوعزيزي أن يقول : أنا الرائد ، والقائد ، والإمام ، والأمير ، والمنظِّر .

كل هذه الألقاب والمسميات تهاوت إزاء هذا الإنسان ، الصابر ، المثابر ، الجريء ... هذه الصفات واقعاً لم تشفع له في تليين قلب شرطية رفعت كف التجنّي لتصفع باسم القانون الظالم خدَّ كبريائه صفعةَ احتجاج كرامةٍ حنَّطها صوناً لصفاء رغيف عيش شريف أراد أن تجلبه عربة خضار لم يكن يملك غيرها في الحياة ."" .

وكانت عائشة تدخل تلك الليلة غرفتها . تتخذ مكانها عند المنضدة قريباً من شباك كان يطلعها يومياً على نور الصباح وينقل لها ثرثرة شجرة التين عن قادري المرابط هناك في مقهى (الخيام) وهي هنا تفرد ذراعي لهفتها لكل نسمة تحمل نفساً من انفاس الشوق لها وآهة من آهات انتظار مقدمها .. لا تصدق انها خسرت قادري ، وليس لها ان تتصور فعل محمد البوعزيزي وتسبُّبَهُ في تفجير شعب لم يتوقف عن الاحتجاج حتى الانتصار .. تشعر بغصة تضيق عليها انفاسها ، وتنبثق بحيرة دمع يضبب ويشوه صورة الاشياء .. تعود لها صورة دم قادري يحنّي كفيها ويتدفق هادراً من ثقب في جبهته تحاول منعه .. ومع كل دفقة دماء يضخها القلب بقوة يخفت بريق عينيه وتهدل رموشه . تصرخ دواخلها في وجهه مستنجدة : قادري ، لا ... لا ..... لا تفعلها يا قادري .. لا تغمض عينيك .. كن اقوى فلا تجعلني اضعف !.. يتقاطر الدمع فوق ورقة فرشتها على المنضدة لرسم هيكل عربة قررت ان تنحتها لتوضع في الساحة التي شهدت اندلاع النار في جسد كان يرى في العربة اسماً وهويةً .

وكان الجزيري يقف على اعتاب اعتراف فشل مشروعه الروائي . فقد باغتته حادثة موت محمد البوعزيزي ؛ هو الذي خطَّط لروايةِ أن يجعلَه يتخلَّص من الضغوط المحيطة به كشاب ؛ وأن يُلبسه الكثير من الاحداث التي مرت به هو كشاعر وشكلَّت حداً فاصلاً في حياته ليكون للقراء انموذج يحتذى في صموده وتعاليه على المواقف القاهرة ، واجتيازه لخطوط الاسلاك الشائكة خطاً ، فخطاً ... شعر الآن أن مشروعه في كتابة رواية وِئد من أول شروعه .. قال في سره مستسلماً : لابد من تولّي غيري الكتابة عنه ، فيكتب من زاوية نظر أخرى أفضل مني .

(6)

متوالية قابيل وهابيل

... وهكذا هي الأيام ، نتداولها . تمر بنا وعلينا مرَّ السحاب في السماء . توجِهُها ريحٌ لا ترى .

وهكذا هي الأحداث ، تطأُ جسد التاريخ ؛ وتنثني .. منها ما تجري جريانَ ماءٍ على حصى ، ومنها ما يحفر وجودُها ندباً أو حفراً لا قدرة لأظافر الزمن مهما جهدت على محوها .

تموت أمم وتولد أمم . تتعاقب فصول ، وتنصرف حقب .

لكنَّ الأرض تبقى أمّاً وذاكرة .. أمّ تفرح لرفل الينناعة وتحزن للذواء ، وذاكرة تفرد الذراعين لمن يرهف سمعه . ويفتح عينيه ، ويوارب أبواب لهفته لما تريد أن تجاهر به .

وما تريد أن تجاهر به يتجلى عبرة ينقلها الزمن على راحتي كفيه ، ويقول :

هاك ايها الانسان ، ارتشف، انهل حتى ترتوي ..أترتوي ؟

- ..... .
- أحقّاً ترتوي ، أيها الانسان ؟!!!!

من ذاكرة الانتحار

- **على غرار التونسي البوعزيزي .. أربعة جزائريين يشعلون النار في أنفسهم**

الجزائر رويترز: ذكرت صحف جزائرية امس الاثنين إن أربعة جزائريين على الأقل أشعلوا النار في أنفسهم خلال الأيام القليلة المنصرمة على غرار ما قام به مواطن تونسي مما أسفر عن احتجاجات هائلة أدت إلى الإطاحة بالرئيس التونسي زين العابدين بن علي.(ى القدس العربي – 18يناير 2011)

- **كهل يبلغ 52 هو أب لأربعة فتيات بعضهن جامعيات عاطلات عن العمل يشنق نفسه انتحاراً في مدينة الشابة في الوسط التونسي .**

- **في الميلية حاول شاب عاطل عن العمل الانتحار امام احدى محطات القطار .**

- **في اريديف اضرم شاب النار في نفسه .**

- **قالت صحيفتا« الخبر « و « الوطن » في الجزائر إن رجلا يدعى سنوسي توات سكب على نفسه البنزين وأشعل النار في جسمه بمدينة مستغانم على بعد 350كيلومترا إلى الغرب من الجزائر العاصمة. ولم تلحق به إصابات تهدد حياته.**

- **محسن بوطريف لفظ أنفاسه يوم السبت في ولاية تبسة متأثرا بحروقه بعد ثلاثة أيام من إشعال النار في نفسه عندما لم يمنحه حاكم البلدية منزلا. وفي برج منايل أضرم عويشية محمد (26 عاما) النار في نفسه يوم الأربعاء. ووقع الحادث الرابع في بلدة جيجل.**

- **قام خمسة من الشباب المغاربة العاطلين عن العمل بإحراق انفسهم الخميس بعدما تدخلت قوات الأمن المغربية لمنع وصول الغذاء إليهم.. الشباب الخمسة كانوا من بين المئات من المعتصمين بملحقة التربية الوطنية بالعاصمة الرباط وكانوا قد بدأوا اعتصامهم منذ مطلع شهر كانون الثاني الحالي احتجاجا على البطالة .**

- **في مصر أضرم رجل في نفسه النار أمام مجلس الشعب امس. ((الخبر ينفس الصحيفة .. ينبغي التأكد)**

- **8آذار مارس 2011: فدوى العروي اول امرأة تنتحر حرقاً في الدار البيضاء**

- **في تونس بذكرى الثورة ((بوعزيزي جديد))... وفاة رجل (43عاماً) اقدم على حرق نفسه امام المقر الرسمي لمحافظة قفصة .(2012/2/11) ... صحيفة العرب اللندنية**

- **خمسة تونسيين اضرموا النار في انفسهم في الاسبوع الماضي بمناطق مختلفة من البلاد ((نفس خبر العرب اللندنية))**

- **اردني يضرم النار في نفسه وسط عمان بسبب ظروفه الاقتصادية ..هو الحادث الاول من نوعه ((العرب اللندنية نفس التاريخ)) .**

- **اقدمت امرأة مغربية على حرق نفسها امام الملأ في احد شوارع الدار البيضاء احتجاجاً على الفقر الذي تعاني منه الشرائح الاجتماعية الفقيرة.**

- **الاهرام – الخميس، 8 مارس 2012**

- **((على طريقة بوعزيزي.. بائع خضار سعودي يحرق نفسه)) .. كشفت صحيفة الوطن السعودية اليوم الخميس إن بائع خضار في مدينة عرعر شمال السعودية، أقدم على إحراق نفسه، في حادث شبهه البعض بما فعله بائع الخضار التونسي، محمد البوعزيزي، والذي أدى لتفجر الثورة في بلاده.. وقالت الصحيفة تحت عنوان: "شرطة عرعر: بائع الخضار مضرم النار مضطرب نفسيا"، إن الناطق الإعلامي بشرطة منطقة الحدود الشمالية العقيد بندر الأيداء، ذكر أن جهات التحقيق أخلت سبيل بائع الخضار المخالف، والذي حاول في منتصف الأسبوع إضرام النار في نفسه بأحد الطرق الرئيسية، قبل أن يتم إنقاذه، مبينًا أن البائع خرج بكفالة حضورية بعد أن تبين أنه يعاني من اضطرابات نفسية". (بواسطة BBC Arabic) بي بي سي – الجمعة، 13 يناير 2012) .**

- **عراقية تحرق نفسها حتى الموت في واسط لشمولها بالاجتثاث**

اول شهر نيسان 2012

أقدمت امرأة على حرق نفسها حتى الموت في محافظة واسط بعد فشلها في العودة لوظيفتها لشمولها بقانون اجتثاث البعث. وذكر مصدر امني مسؤول ان "المرأة المدعوة (اقبال موّات) تعمل مدرسة في احدى مدارس محافظة واسط". واضاف ان "المرأة احرقت نفسها حتى الموت حين حاولت العودة لوظيفتها بعد شمولها بقانون اجتثاث البعث وبعد محاولات يائسة دون جدوى قررت حرق نفسها".

كلمات لذاكرة محترقة

غب أشهر نهض محمد البوعزيزي تاركاً قبره بعدما أزاح مستطيلَ الرخام الجاثم على جسده .. شمَّ انفه رائحةَ شواء خمّنَ مردّه للحمٍ يحترق .. قليلاً وتذكَّر أنَّ آخر مرة فقد فيها التواصل مع العالم هي عندما سكب فوق جسده قارورة البنزين الممتلئة ، وقال للنار قومي بدورك ؛ لم أطق الهوان .

ترك المقبرةَ وراءه وراح يتأمَّل عالماً برحه منذ عامين .. فهاله ما رأى !!

رأى غيوماً رصاصية دكناء ، وغربانَ سود ، ارتالاً تعقبها ارتال ، تلوّث صفاء السماء وزرقتها اليانعة .

رأى عقاربَ صفراء تخرج من ثقوبٍ تنخر جسدَ الارض ، جائعةً شرهة تأكل كلَّ ما تراه يبشر بالحيوية والنماء .

رأى الحرية الفتيّةَ تُجر بحبالٍ كراهية وحقد دفين نحو كهوفٍ عميقة تشيع من أجوافها رائحة الهمود والتحنّط والموات .

رأى قطار الوطن يُقاد الى الوراء ، والركاب مثل سجناء يتطلعون بعيون بلهاء ..

همَّ راكضاً يبغي ايقافه وتصحيح مساره .. الا أنَّ العربات داست عليه بعجلاتها ، والغربان السود أخرجت رؤوسها من عربة القيادة مقهقهه بينما لوَّحت العقارب بأذنابها هزءً وتشفيّاً .

تعتَّمت السماء ..

وانطفأت الشمس ..

وغاب الجميع في كهفٍ وخمٍ ، غائرٍ ، وعتيم .

السماوة

انتهت في 10/10/2012

زيد الشهيد : نبذة تعريفية

*** 10/ مايس / 1953 : ولد في السماوة – العراق**

*** بكَلوريوس / أدب انكليزي - جامعة بغداد – كلية التربية 1983 .**

*** يعمل مدرساً – المديرية العامة لتربية المثنى .**

*** عضو اتحاد الادباء والكتاب العراقي .**

*** عضو اتحاد الادباء العرب .**

*** يكتب الرواية والقصة والشعر ، ويمارس الترجمة والنقد الأدبي .**

*** له بحوث عديدة شارك فيها في مهرجانات : المربد ، والسياب ، والحبوبي ، والمتنبي ، وملتقيات الرواية وقصيدة النثر وغيرها .**

*** 1993 صدرت له مجموعة (مدينة الحجر) القصصية ، إصدارات اتحاد الأدباء العراق ، تسلسل (2) .**

*** 2004 اصدر مجموعته الشعرية (أمي والسراويل) عن دار أزمنة - عمان .**

*** 2003 صدرت له (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً ، دار أزمنة**

*** 2006 أصدر رواية (سبت يا ثلاثاء) عن دار أزمنة – عمّان .**

*** 2008 أصدر مجموعة (اش ليبه دش) القصصية عن دار تراسيم – بغداد .**

*** 2008 صدر له كتاب نقدي (من الأدب الروائي – دراسة وتحليل) عن دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد**

*** 2009 أصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جداً ويرأس تحريرها . وهي أول مجلة عراقية تعنى بالقصة القصيرة جداً .**

*** 2009 أصدر كتاب ترجمة مسرحية (طريق ضيق باتجاه الشمال العميق) للكاتب الانكليزي ادوارد بوند .**

***2009 أصدر كتاب قصصي (أسفل فنارات الوقيعة) عن دار الينابيع – دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و (فضاءات التيه) و (إش ليبه دِش) .**

*** 2010 أصدر رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن دار الينابيع .**

*** 2010 أصدر كتاب (الرؤى والأمكنة) نصوص مستلة من ذاكرة المكان عن دار الينابيع .**

*** 2010 أصدر (سبت يا ثلاثاء) بطبعة جديدة عن دار الينابيع .**

*** 2010 أصدر (سحر المسنجر) قصص قصيرة جداً ، عن دار رند ـ دمشق**

***2011 أصدر (فم الصحراء الناده) قصص قصيرة ، عن دار رند ـ دمشق**

*** 2010 أصدر رواية (أفراس الأعوام) ، عن دار رند – دمشق**

***2011 أصدر (نساء تراب) قصص قصيرة جداً عن دار رند**

***2012 صدرت له ترجمة رواية (الجواز) للألمانية هيرتا موللر عن دار رند- دمشق**

***2012 صدرت طبعة جديدة لرواية (افراس الاعوام)عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت**

*** 2013 صدرت طبعة جديدة لرواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت**

*** 2013 أصدر رواية (اسم العربة) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت**

الجوائز :

- **الجائزة الأولى في مسابقة (تموز الكبرى) التي إقامتها صحيفة (الجمهورية) – بغداد عام 1993 .**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (الأدباء التربويين) في الشعر التي أقيمت في محافظة واسط 2007 .**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (جعفر الخليلي) للقصة القصيرة التي أقامها اتحاد الأدباء فرع النجف 2009.**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (عبد الإله الصائغ) في القصة القصيرة التي أقامتها مؤسسة النور في السويد 2009 .**
- **الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2009 .**
- **الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي اقامتها هيئة النزاهة العامة – المسابقة الأولى 2010**

عن قصة (بعد التحية) التي احتوتها مجموعة (فضاءات التيه) .

- **الجائزة الاولى في مسابقة الرواية التي اقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2011 عن رواية (أفراس الاعوام) .**
- **الجائزة الاولى في مسابقة القصة القصيرة جداً التي اقامها (منتدى نازك الملائكة) – بغداد 2012**

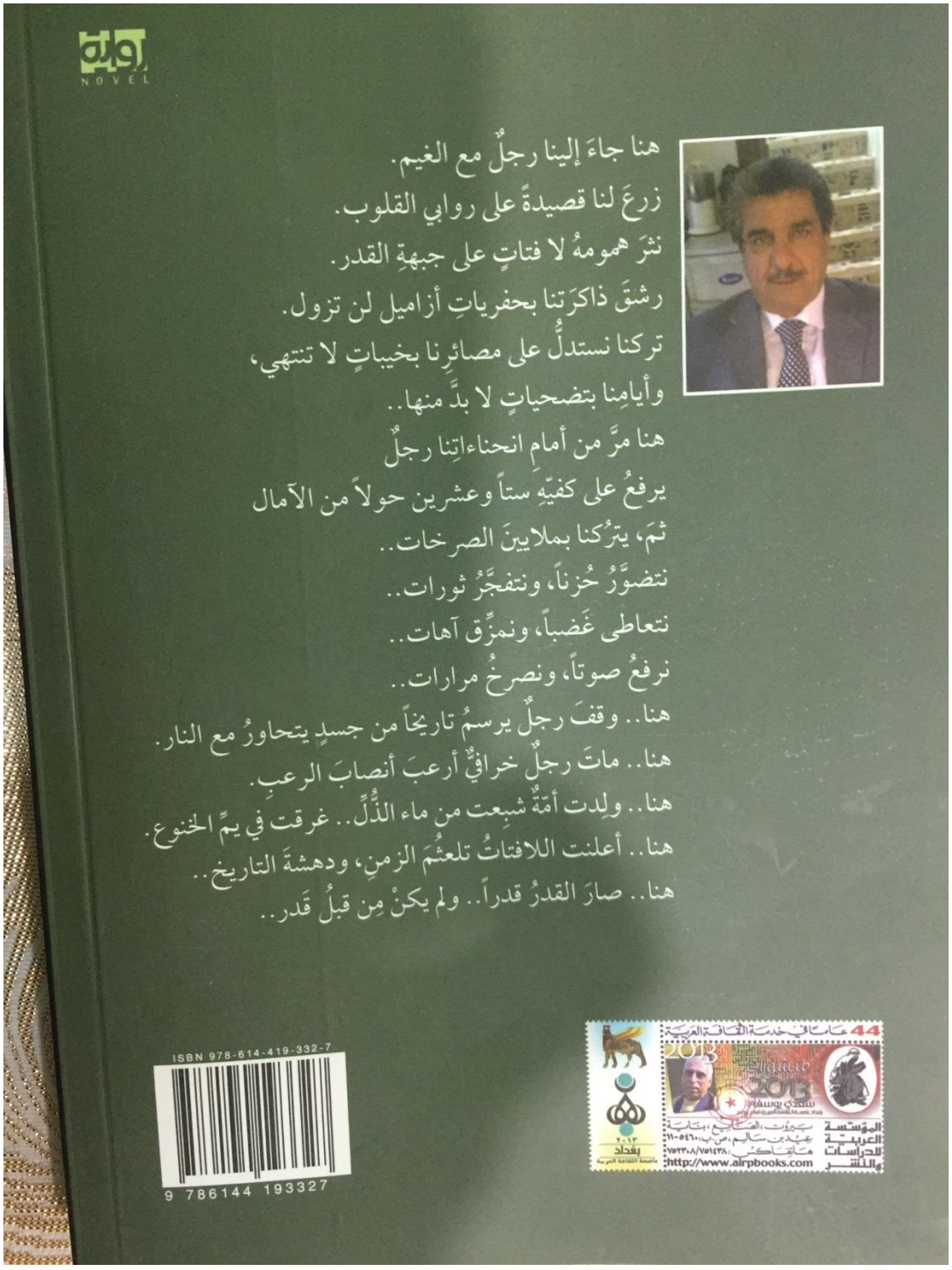

رواية
NOVEL

هنا جاءَ إلينا رجلٌ مع الغيم.
زرعَ لنا قصيدةً على روابي القلوب.
نثرَ همومهُ لا فتاتٍ على جبهةِ القدر.
رشقَ ذاكرَتنا بحفرياتِ أزاميل لن تزول.
تركنا نستدلُّ على مصائرِنا بخيباتٍ لا تنتهي،
وأيامِنا بتضحياتٍ لا بدَّ منها..
هنا مرَّ من أمامِ انحناءاتِنا رجلٌ
يرفعُ على كفيّهِ ستاً وعشرين حولاً من الآمال
ثمَ، يترُكنا بملايينَ الصرخات..
نتضوَّرُ حُزناً، ونتفجَّرُ ثورات..
نتعاطى غَضباً، ونمزِّق آهات..
نرفعُ صوتاً، ونصرخُ مرارات..
هنا.. وقفَ رجلٌ يرسمُ تاريخاً من جسدٍ يتحاورُ مع النار.
هنا.. ماتَ رجلٌ خرافيٌّ أرعبَ أنصابَ الرعبِ.
هنا.. ولِدت أمّةٌ شبِعت من ماء الذُّلِّ.. غرقت في يمِّ الخنوع.
هنا.. أعلنت اللافتاتُ تلعثُمَ الزمنِ، ودهشةَ التاريخ..
هنا.. صارَ القدرُ قدراً.. ولم يكنْ مِن قبلُ قَدر..

ISBN 978-614-419-332-7
9 786144 193327